

آسيا جبار

بوّابة الذكريات

رواية

الأمين

Assia Djebar

Nulle part dans la maison de mon père

roman

آسيا جبار

بـوّابــة الـذكــريــات

رواية

ترجمة : محـمـد يـحـياتن

سـيـديـا


https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى غياتري،

مع محبتي

جئت من بعيد وعليَّ أن أذهب بعيدا...

كاتلين راين، «السفر»، ذي بيتونس، 1949.

I.

شظايا الطفولة

ترى هل الطفولة سرّ خفيّ لا يسمع أم غبار الصمت ؟



1.
الأم الشابة

برزت صبية للوجود: عمرها سنتان ونصف السنة أو ربما ثلاث سنوات. ترى هل الطفولة نفق من الأحلام لامع هناك على خشبة مسرح حيث يعاد العرض، ولكن لكِ وحدك أنت يا صاحبة العين الجاحظة ؟ هذه طفولتك تمتد لأي صفيّة وكاتمة أسرار ولأي ابنة عمّ عابرة تكون قد رأت دموعك تنهمر في خضم الشارع فيما مضى، أو نحيبا لا يزال يمزقك ؟

ثمّة رسوخ باق: أمي التي لا تزال حيّة ترزق بفضل ربي، بإمكانها أن تشهد على ذلك. تسع عشرة سنة فقط تفصلني عنها. عندما كنت أتعلّم السير، كانت تدرك بأنها في مدينة شرشال حيث الطقوس الأندلسية تؤدّى دونما تغير، وكانت تتمتع بمنزلة «العروس الفتية» الممتازة المتبخترة في أفراح النساء، حاملة جواهر ثمينة، قد ضاعت

اليوم –مثل تلك العصافير والورود الذهبية المنتصبة على رأسيتها المصنوعة من الساتان المتموج، المتأرجحة ببطء مكلّلة جبهتها–، هي المعبودة الباسمة ذات العيون المخضبة واللآلئ الفضية التي تبرز وجنتيها.

الآن أنا ابنتها أمدّ لها اليد في بهو الطابق الأرضي، عند ماماني، أمها. إن كل امرأة شابة ملفوفة تماما في حايك[1] من الساتان الأبيض بحاجة إلى طفل كي تزور قريبا في الفترة ما بعد الزوال في المدينة الصغيرة. في هذا البهو تتدثر أمي ببطء بحايك ناصع ذي أهداب من حرير وصوف. في مقدوري أن أسمع أيضا حفيف القماش وطياته الرشيقة حول أوراك وأكتاف الأم، ونحن واقفتان في صلب الظلمة أمام الباب الثقيل.

في آخر دقيقة من توقفنا : يدي الممدودة تمسك بطرف الحايك قريبا جدا من جسد السيدة الشابة المقنّع. ترى هل سأوفق في الخارج في اقتيادها حينما نأخذ في التقدم ؟

هذه المرأة التي أرافق تضع على أنفها مثلثا من فتل الحرير جعل عينيها حرتين –إنه امتياز نساء هذا الميناء

1 الحايك لباس تقليدي انتشر قديما كانت تلبسه المرأة الجزائرية عند التنقل خارجا لاضفاء نوع من الستر أمام الأجانب.

الذي أمّه اللاجئون الأندلسيون منذ ثلاثة قرون خلت. في الشارع، ستمشي المرأة البيضاء ونظرتها مصوبة إلى الأرض، أهدابها مرتعشة من شدة الجهد : أنا لا أشعر بأني خادمتها فحسب بل المرافقة التي تسهر على خطواتها.

أمي البورجوازية ذات الأصول الأندلسية التي تقطع شوارع العاصمة العتيقة، السيدة التي عمرها لا يتجاوز عشرين سنة بحاجة إلى يدي. أنا صاحبة ثلاث سنوات ربما ثم أربع فخمس سنوات، سأستشعر، بمجرد أن أكون بالخارج، بأن دوري يكمن في توجيه خطواتها، أمام نظرات الذكور. نجانب بعض الشوارع أولا خلف الكنيسة ثم نسير على امتداد السيرك الروماني. نواصل السير أمام مجمع من المنازل القديمة –كل منزل له باب من الخشب المدهون باللونين الأخضر والأزرق وعليه يد ثقيلة من البرونز كمطرقة.

السائرة غارقة تحت الحرير الناصع، بحيث لا يمكن للمرء أن يرى سوى عرقوبيها أو عينيها السوداوين أعلى "العجار" [2] الصغير المصنوع من فتل الحرير على أنفها.

---

2 العجار هو قطعة قماش مثلثة مطروزة كانت تغطي به المرأة الجزائرية وجهها ابتداء من أعلى الأنف عند الخروج إلى الشارع.

لمست يدي قماش الحايك. آه لكم أستشعر فخرا جما وأنا بجانبها ! أرشدها كما يحصل لمعبود غريب : أنا ابنتها بل خادمتها أو حتى كفيلها بينما تتجه ببطء، وهي تبتعد عن بيت أمها، صوب منزل عائلي آخر.

نظرات الرجال -أصحاب المحلات المنتصبون، والمتسكعون الجالسون أو الفضوليون البسطاء- منصبة علينا نحن الاثنتين (إنها بداية عشية مشمسة)، تجمع شملنا.

ولئن كان الرجال يحملقون فيها رغم أنها غير مرئية ويمكن التعرف عليها بفضل العديد من التفاصيل المرتبطة بالحايك وانتفاخ القماش المرن العالق بالأرداف، فإن نظرتها المنخفضة تتجه بعيدا، في حين أنا الفتاة الصغيرة لا أحد يعبأ بي !

أحس بالافتخار، ذلك لأني أولج أمي -التي باتت عندي أجمل النساء وأكثرهن إثارة للرغبة- في المدينة كلها بل العالم قاطبة : أشعر أن أولئك الذين أعجبوا بها قد شرعوا في الحكم علينا وأنهم يترصدوننا بدافع الخشية والحذر...

حصل لي أن ذهبت (وإن كان ذلك قد تمّ بعد ذلك بكثير) إلى الاعتقاد بأن بإمكاني مواجهة هؤلاء المتلصصين —من أجلها ومن أجلنا نحن !

الأم وابنتها. هذا الثنائي قد توليت حمله –أنا الظل النحيف– في قرارة نفسي خلال عقود بعد ذلك : لقد كان انتقالي من البهو إلى النور الشمسي لأول الشوارع –لا يتعلق الأمر بشوارع وسط المدينة، كلا، بل المسار المقفن الواقع على الحواف، على امتداد الأطلال الرومانية– مغامرتي الأولى. إن طفولتي متحركة ولكن تحت المراقبة، طفولة أرهقتها مسؤولية غامضة تتجاوزني.

وصلنا أخيرا إلى منزل الصهر. استقبلتنا أصوات صاخبة تنمّ عن السرور، وهذا بدءً من البهو. قبّلت المضيفات أمي، نزعت إحداهن الحايك عنها ثم لوته وأخذت تعرب عن إعجابها بزينتها. في وسط الفناء حيث سبرت وجود أسماك قرمزية تنزلق في ماء حوض مرمري، انتشرت الجلبة والسرور.

من الطابق الأول، فوق المنحدر، نساء أخريات يحيين ويعدن بالنزول متى فرغنا من وضع القهوة والحلويات على المائدة المنخفضة. ثمة فتيات شابات، قريبات لي، رفعنني أنا البنت الصغيرة ورحن يقبلنني بإفراط.

وعلى غرار أمي، يجب عليّ أن أذهب لأنحني أمام جدة أو جدتين، إحداهما تكاد تكون مكفوفة، في حين أن الأخرى مقرفصة على سجادة وفي يدها المرتعشة سبحة.

في خضم ظليل غرفة، هناك شاب غير مرئي يعزف على العود. فجأة، اقتادتني فتيات صوب رواق طويل داكن عنوة. كان عليّ أن أشاركهن ألعابهن... كانت إحداهن تحرك دمى مصنوعة من عيدان خشبية مدهونة، هي عبارة عن قاراقوز، بينما فتاة أخرى مقرفصة بطريقة عفوية، ترغب في منافستي في لعبة الكعب.

تمنيت لو بقيت هناك قرب شجرة البرتقال الحامض، أو الجلوس على حافة الحوض بالقرب من أمي للاستماع إلى ثرثرات صديقاتها القيمة.

احتضنتني فتاة وهي تضحك، وكانت قبلاتها تخنقني. فتاة أخرى جالسة القرفصاء تداعب فستاني القصير أو تنورتي الأسكتلندية.

– إن هندامها كهندام فرنسية صغيرة! صرخت متهكمة أو حاسدة، صوب أمي المبتسمة الصامتة.

ثم بعد برهة من الزمن:

– أتمنى تبديل تنورتها بسروالي! قالت القروية الفتية متنهدة.

تنظر بازدراء صوب سروالها المنتفخ على الطريقة التركية، المصنوع من الساتان المزهر.

«لو لم تكن أمي هنا، خمنت في قرارة نفسي، كنت قبلت طوعا التبديل!»

فتاة أخرى صرحت بدورها أمام الملأ «بأن أباها في القرية قد...»

صمتّ وشعرت فجأة بأني غريبة بل أجنبية بسبب هذه الثرثرة التافهة.

– أجل، ألحّت فتاة ثالثة، بلهجة متشنجة، يبدو أن أباها يشتري لها دمى... مختلفة عن تلك التي نصنعها

بأيدينا بخرق وعيدان خشبية، كلا... (تحلم ويحدوها الحنين) إنها دمى حقيقية كما عند الفرنسيين !

نهضت أمي واتجهت نحو زمرة أخرى، فما يجري هناك ليس في نظرها سوى ثرثرة.

أما أنا الصامتة في هذا الفناء الذي يضج بأصوات هؤلاء النساء من مختلف الأعمار، اللواتي لا يخرجن إلا ملفوفات من الرأس إلى أخمص الأقدام، أحس فجأة – وقد هالتني هذه الملاحظة– «بأني ابنة أبي».

ترى هل هذا شكل من أشكال الإقصاء –أم الحظوة ؟

.2

الدموع

ها هي ذكرى طفلة عمرها خمس أو ستّ سنوات تطالع كتابها الأول تلوح أمام ناظري : لقد وصلت مسرعة كالريح إلى هذه الشقة بالقرية وفي يدها رواية استعارتها من المكتبة المدرسية. ودون أن تقبل أمها في المطبخ، دلفت إلى غرفة والديها. انبطحت على هذا السرير الذي بدا لها هائلا (قبالتها في المرآة القديمة العالية، يمكنها أن ترى نفسها هناك في العمق وكأنها طفلة أخرى).

أجل، وهي منبطحة وركبتاها ملتويتان ورجلاها قد تخلصتا من الخفين، فتحت الكتاب وراحت تطالعه : كما نشرب أو نغرق ! نسيت الزمان والبيت والقرية وحتى صورتها المعكوسة في المرآة.

وهي تطالع، قررت في قرارة نفسها : «لن أتوقف إلا عند آخر صفحة !».

بعد برهة من الزمن، أخذت تبكي دون أن تتفطن لذلك، في صمت في بدء الأمر، ثم بنحيب هزّها ببطء. سمعت أمها، التي أعدت لمجة المساء كما في كل يوم، من المطبخ، هذا اللحن الحزين الذي كان يتخلله الفُواق. هالها الأمر فهرعت وتسمرت عند العتبة تتأمل بكرها المكسورة ولكنها لا تزال تقرأ بنهم.

الشابة ذات الأربع والعشرين سنة –التي لا تحسن بعد قراءة اللغة الفرنسية وإنما العربية فقط– تتصور مدى العقبات والأعداء التي تقف في وجه صغيرتها، في مدرستـ(هم).

ماذا جرى لك في القسم ؟ سألتها بقلق.

ودون أن ترفع الفتاة رأسها ودون أن تمسح وجنتيها، وهي تبدي فضولا جما، اعتراها اضطراب جديد. أصابعها تطوي بسرعة كل صفحة :

– لا شيء ! أنا أطالع يا ماما ! صرخت النائحة بافتخار وانتشاء.

هكذا ولأول مرة، وقعت الفتاة في أسر –وقعت أنا في أسر– حياة كائن آخر، حياة قريبة جدا وملموسة للغاية،

هي حياة بطل قصة «بدون عائلة» كما تخيله الكاتب الفرنسي «هيكتور مالو».

فقد طفل أبويه : الفتاة تبكي جراء هذه المصيبة، وهي مندسة ملبدة في سرير الوالدين –واسع جدا ذي دعائم من الأكاجو، حيث كانت تطلب، بمجرد استيقاظها في السرير الصغير الموجود قريبا، بأن توضع بين أبيها وأمها. كانت تتكبب عليهما، وكان الوالدان يتحادثان من فوق جسدها هي.

هل كانا يقبلانها الواحد تلو الآخر، هل كانا يلعبان معها ؟ بالكاد تتذكر ذلك. ولكن ما أعظم الراحة التي كانت تستشعرها بينهما خلال أيام الأحد هذه، حيث كان في مقدور الأب أن يتكاسل بينما كانت الأم تتأهب لإحضار فطور الصباح !

إنها تتذكر (أنا أتذكر) أن أباها كان يطالع فيما بعد جريدته. أما الأم فكانت تشعل المذياع –«إذاعة الجزائر، القناة العربية»– بوصفها مستمعة مواظبة للموسيقى العاطفية المصرية أحيانا وللأغاني المصوغة بالدارجة الجزائرية...

ودموع الطفلة –الأميرة– التي استثارتها هذه القراءة الأولى ؟ بعد سنوات عديدة ستتساءل ما إذا كانت الدموع المشار إليها تستمد طراوتها من سرير أبويها حيث ارتمت في حين لم يكن طفل الكتاب يعرف طعم الراحة قط ولا برّ أمان في مآسيه على امتداد الصفحات المطوية.

حاولت أمي، المترددة طويلا على عتبة الباب، أن تخفف من حزني :

– كفي عن البكاء ! وتعالي لتتناولي لمجتك في المطبخ !

وأرد عليها أنا الغارقة في صلب أحداث القصة :

– أنت ترين يا أمي بأني أقرأ ! قلت دون أن أعبأ براحة بالها...

لا أدري ما إذا كنت قد مسحت دموعي، غير أن حموضة متعة هذه الدموع ظلت ملتصقة بي.

هل ألحت عليّ الأم الفتية ؟ سرعان ما استسلمت وابتعدت حالمة : «إن مطالعة أشياء حزينة تبعث على البكاء ولكن دون الإحساس بحزن حقيقي !» هذا ما كانت تقوله في قرارة نفسها وهي تكتشف هذه الأحجية.

هي نفسها كانت تحب كثيرا أداء الأغاني الأندلسية. لقد دونت كلماتها المصوغة بالعربية الفصحى الراقية.بمفردها، علما بأنها الحضرية الوحيدة بالقرية والتي كانت تشكو من الوحدة جراء انزوائها في شقة المدرسين هذه.

هذه التعابير المزخرفة التي تنطوي عليها الأغاني القديمة التي كانت ترددها، أدركت أمي فجأة حزنها أو على الأقل إيحاءها الرثائي البالي.

بعد أن تأملتني أمي في هيئة نائحة –وكتاب المكتبة لا يزال مفتوحا تحت أعيني– راحت، وهي متجهة إلى مطبخها، تتصور دون شك جسرا هشا بين الحساسية الزائفة التي استثارتها فيّ هذه القصص الغربية والجمال الخفي منقطع النظير –بالنسبة إليها– للأبيات الشعرية الأندلسية التي كانت تردّدها وهي في غاية التأثر.

قبل انبجاس هذه الدموع من متعة مطالعتي الجمة ليس إلا –كإشراقة مخيال جارف– أتذكر أن دموعي الأولى قد ذرفتها كسيول لا تنضب قبل ولوجي المدرسة في المدينة العائلية العتيقة : دموع قلق شديد مرده إلى كربة حامية وتمزق ممتد إلى ما لا نهاية يؤرقني على امتداد سباق يبدو، في ذاكرتي، وكأنه غير آيل للنهاية أبدا...

في شارع شرشال هذا، أجري وأجري باكية، وعمري لا يتعدى ثلاث سنوات دون شك. أصدر ما يشبه الصراخ وإن جزئيا، ولئن كنت أنقاد لإيقاع دموعي التي لا تأبى الانبثاق والتي تكشط حلقي، ولئن كنت أتوغل بعيدا، فإن أجنحة هائلة ودافئة من الوجع هي التي تحملني.

أركض وأبكي، أحس وكأن قلبي سينفجر في صدري النحيف، أتبع في الخارج طفلة ذات ثلاث سنوات قالت

لي بأن جدتي من أبي (ماما وليست مامّاني) قد توفيت –لا أظن أنني رأيت جسدها ولا أعرف ما إذا كانت لاتزال نائمة أو ما إذا وافتها المنية– أركض لأنني لا أرغب في تصديق هذا الانفصال وهذا التخلي (مامّا قد تخلّت عني)، وذهبت أو تمّ اختطافها عنوة. ماذا يعني «توفيت» ؟ ألا يعني ذلك بأنني لن أعني بالنسبة إليها أي شيء وبأنني لن أقوى على اجتياز الليل بين أحضانها وأن لا أحد سيحبني، وأن أمي... أمي توجد في مكان آخر، قد تكون عند أمها هي وعليّ العثور عليها !

في الخارج، في شارع عين القصيبة المنحدر، أجري وأنتحب وأصرخ صراخا خافتا أو أخنق انتحابي، وفي أحشائي تنفرج عقد وتصعد من حلقي لتصير واديا مهجورا مقفرا ونحيبا تحوّل إلى نهر لا يكف عن الهدير، ثم تتجلى في شكل عبق بطيء فعنيف، ذلك أن جسدي، طوال هذا الوقت الذي قضيته وأنا أنتحب، سرعان ما انتفض خارج منزل الوالد، ذلكم المنزل الموجود في الأعلى قرب الثكنات والهضاب. فقدام جميع الغرباء عن هذا الزقاق المنحدر (أصحاب المحلات، الأطفال، بعض الفضوليات اللواتي اشرأبت أعناقهن خارج العتبات)، في

خضم هذا الكابوس الطويل دون أن أسترجع الأنفاس، أعبر الشارع وأنا أكاد أصرخ إلى غاية منزل أمي وأسرتها قبل الكنيسة بقليل، بشارع يوليوس قيصر.

أطلقت العنان لدموعي : لقد حكم عليّ بأن أنزل هذا المنحدر دون توقف ! الشارع الآن غزته عربات الخيل وحيوانات الجرّ والأطفال قدام الأبواب الموصدة. على الجانب الأيمن، ينتصب المدخل المتواضع لبيت عمّتي : أتخيل الباحة وشجرة ليمونها. في مقدوري أن ألوذ إليها وأجفف دموعي بين ذراعيها، ولكن لن يتم ذلك، فقد ظلت ماكثة هناك في الأعلى !

رأيتها، إنها هي «عمتي» التي بسطت أمام مرآنا جميعا الكفن الأبيض ذا المخططات الحريرية والهدب الأخضر ! لم أر المتوفاة «ماما» اللطيفة التي تبخرت.

في انطلاقتي، تجاوزت منزل العمّة. ما زلت أركض ودموعي تغلي غليانا كمثل حجاب لامع على كتفيّ، أما رجلاي الهاربتان فتواصلان سباقهما المجنون. لم أعد أدرك أي شيء. يتبدّى الألم وكأنه زال ودون نهاية في الوقت ذاته، بينما يدا جدتي تداعبانني في الليل كي تحمياني من البرد. ترى أنّى لي أن أعثر على اليدين هاتين

وتحت أي سماء، هل يتعين عليّ أن أجري إلى غاية البحر أم إلى غاية المرسى إلى أقصى الأقاصي !

فجأة، في الأسفل، انفتح باب منزل الأم : بمجرد دخولي، سقطت في أحضان أمي أو ابنة عمي أو جارة ترتدي حجابها، ولكنه حجاب «من عندهم» من هذا العالم الذي لن يكون أبدا عالمي، بما أن جدتي قد اختفت هناك في الأعلى !

صحيح أني سأواصل طفولتي في هذا المنزل وهذه العائلة فيما بعد. بيد أنني لن أذرف مثل هذا السيل من الدموع، كلا ! لن أترك قلبي يهتزّ كما في السابق ولن يتسرب إليه هذا اليأس الحاد !

لن أعاود البكاء فيما أظن ! سأنظر إلى الآخرين بوضوح جمّ، من بعيد، تحدوني رغبة وحيدة خفية، قوامها عدم نسيان أي شيء. لقد قررت أن لا تكون لي سوى عينين في منزلهم البورجوازي : نظرة نهمة وعناية هادئة يقظة وكأنني قد أمسيت، في كنف هؤلاء الأشخاص، امرأة دخيلة.

كنت لا أزال طفلة : قد يكون ذلك قد حصل بعد عدة مواسم صيفية، بمعية أقرب ابنة عمّ لي خلال شهر رمضان، وكنا نرتدي قميصا أبيض. كانت القريبات والعمات والخالات ينهضن من نومهن هامسات لتناول السحور الذي يساعدهن على تحمل الصيام في اليوم الموالي. والحال أننا كنا نرغب نحن كذلك في الصيام : بدافع الكبرياء ! وها نحن ناعستان مترنحتان نوجه لهن لوما شديدا، لأنهن أقصيننا من هذه الوقفة الليلية لأننا كنا في نظرهن «صغيرتين» جدا !

كانت النساء الكبيرات يضحكن خجلات قليلا وقد تركن لنا حيزا ما بينهن. حينئذ تعترينا سعادة جمة لبقائنا قصد تناول السحور مع الكبار، حتى نتمكن من اجتياز

اليوم الموالي دون أكل وشرب. غير أننا بدلفنا وسطهن كأشباح نحيلة بدونا فجأة بالنسبة إليهن بمثابة مشاغبتين...

إن مشهد دلفنا هذا، ونحن نرتدي قمصانا طويلة وشعرنا مفككك، وسط طقوس عائلية، عشته بمعية ابنة عمي التي هي في مثل سني ومتواطئة معي في ذلكم الحين. كنا في نظر الكبار، وسط نور الشمعدانات الباهت، بمثابة وجهين توأمين لوخز ضميرهن : حيال حلقتهن، كنا نحن صاحبتا الجفون المحمرة نبتلع سريعا قدح السميد القمحي بخضر متنوعة، وكنا نشرب كأس الحليب الساخن. ثم نعود عابستي الوجهين لننام ونتعذب فيما بعد خاصة في الغداة من شدة العطش، لاسيما عند نهاية الزوال (في ذكراي، يتعلق الأمر دائما بأيام الصيف الطويلة).

هذه المرة أيضا لم أكن سوى ناظرة، بيد أن وجنتيّ لن تنضحا دموعا حتى أمام وجوه أخرى مفجوعة ! في هذه المنازل –منازل العطل المملوءة– حيث كنا نشعر بأننا شبه مسجونات، أراني أغمض عينيّ خلف باب أغلق بقوة وستار عتبة أسدل فجأة في صلب نور خفيف. هكذا شحذت أذني كي لا أنسى أي شيء من هذا العالم الذي هو أنا والذي لم يعد أنا تماما !

بعد ذلك بكثير، عند أفول الطفولة التي تنتهي دائما مبكرا في بلدان الشمس، ظللت موسومة بهذا النهم وهذه القابلية الخالية من كل هدف محدد : ربما دون وعي مني بذلك، كنت أحس، في هذه المدن العتيقة، كم كان هائلا عدد أجساد النساء المكدسة، هؤلاء النساء اللائي لم يكنّ يتُقن إلا للخارج، هذا الفضاء الذي كان محظورا عليهن. وها أنذا (ولكنني أستبق) أترصد نهم هذه العذراوات اللواتي لم أفهم بعد انتظارهن ولا قلقهن ولا حقدهن...

أما الأصوات المتشابكة المتزايدة أو الناعسة بعض الشيء خلال القيلولات الطويلة في الصيف الخانق، فقد تدثرت بها كقماط لذاكرة تبحث بشكل غامض عن مكان آخر أو مستقبل ما.

يحصل لي أن ألاحظ : دموعي، كل دموعي –أقصد تلك الدموع المنبثقة عن القطيعة أو التخلي– يبدو لي أنني ذرفتها دفعة واحدة وعلى نحو مبكر ! وفي شكل سيول كما تلك الريح التي شابت سباقي الطفولي، بعد أول حزن ألّم بي بسبب فقدان جدتي : الكائن الذي غمرني بأصفى حنان.

لن أذرف أبدا مثل هذه الدموع، دموع الألم الجمّ. سيظل حدادي منغلقا على نفسه دون بريق أو ارتجاج : ستبقى النظرة داخلية.

أجل، سيحصل بعد ذلك التأثر من أجل تبليل القسمات والسويداء لغشي العيون، ثم يأتي الحلم بل ألف حلم وحلم ! وأخيرا يأتي الحب اللطيف العنيف ملتويا أيما التواء ! غير أن الحب الأول نفسه لن ينبسط بالدموع والانبهار والندم.

فالحب، كما الوجع العاري الآخذ في الذبول سريعا، يحتفظ أحيانا بنظرة متوحشة.

إن اليد الكاتبة لامرأة اليوم تبعث إلى الوجود طفلة منقادة لحزنها الأول الأشعث. وتدوّنها بابتسامة ملؤها الرأفة، لا أمام انعكاسها، بل بالأحرى أمام انعكاس بنت

أخرى : طفلة شرشال قد تكون ديباجة لأنا ممحوة وإن بدت لي فجأة شبحا.

ستسيل دموعي أيضا ولكنها دموع لطيفة جراء هذه المسافة المقدرة بالسنوات بل بالعقود المضاعفة.

3.
كتابي الأول

قبل هذه الرواية المسماة «بدون عائلة» التي أبكتني كثيرا، وقع بين يديّ كتاب آخر لم أقرأه أبدا، أتيت به من المدرسة إلى البيت مظفرة، ولم أره قط بعد ذلك... ولئن كنت لم أطالعه بعد، فإنني مع ذلك ما زلت أستشعر سمكه وسعة حجمه بين يديّ. أراني خارجة بسرعة من القسم (قسم الدروس التحضيرية مباشرة بعد الروضة) وفي يديّ هذا الكتاب الكبير. أصغي وأنا أقول لنفسي —في صمت لنفسي ليس إلا وأنا أحاول السيطرة على غروري : «كتاب جائزة، الأول من نوعه !».

إنها نهاية السنة، أستلم إذن هذا الكتاب الأضخم والأجمل !

يلوح أمامي المشهد هذه المرة دون دموع ! فناء المدرسة البلدية مقسم إلى جزأين بوساطة سياج عال : من جهة

تنتصب أقسام البنات وفي الجهة الأخرى أقسام البنين. برزت بعيدا عن الأطفال الآخرين لأنني خمّنت مليا : «أبي ! يجب أن أريه هذه الجائزة !».

أبي كعادته، وهو يرتدي المئزر الأسود، يعبر الفناء جيئة وذهابا، وحيدا خلف السياج، بعيدا عن المعلمين الآخرين : يغدو ويعود وسط تلاميذه وهم جميعا أطفال صغار من الأهالي أو كما يسمّون بـ«ياولاد»، ما جعل هذا اللفظ العربي يلج اللغة المدرسية : جلهم أبناء عمال فلاحين أو حثالة عمال، يأتون إلى المدرسة منتعلين أحذية قماشية وأحيانا يأتون حفاة، يراقبهم المعلم بقسوة في الفناء ثم طوال مدة الدراسة.

كان المعلم يقول إنه «يحاول جعلهم يتداركون التأخر في اللغة الفرنسية»، إن أولياءهم لا يتكلمون سوى العربية أو البربرية، لاسيما وأن مساكنهم المتداعية تفتقر إلى الكهرباء وحتى إلى طاولة عالية، بحيث إن هؤلاء التلاميذ لا يمكنهم القيام بفروضهم في فترة الدراسة الإضافية، أي بعد الساعة الرابعة مساء.

نحن الآن في فترة الاستراحة : في الفناء الثاني، يخطو المعلم «الأهلي»، أي أبي، خطواته المعتادة جيئة وذهابا

وهو يراقب التلاميذ قبل «الدراسة الإضافية» هذه. يضم قسمه جميع المستويات وجميع الأعمار : فمهامّه كثيرة، بحيث إن عنايته بهؤلاء الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ست واثنتي عشرة سنة، تجعله يأبى الانضمام إلى زملائه الأوروبيين.

ها أنا أسرع الخطى وفي يدي هذا الكتاب الضخم. أصعد فوق حائط صغير قبالة السياج، في ركن حيث يمكنني الاقتراب من أبي الذي ما زال هناك يغدو ويجيء...

أراني مرتدية فستانا قصيرا وجواربي القصيرة تتجاوز حذائي المطلي بالبرنق. لقد عنيت أمي في هذا الصباح بهندامي لعلمها بأن هذا اليوم يوم مشهود : اليوم الأخير قبل عطلة الصيف... بعد صعودي فوق الحائط، ألوّح بيدي صوب أبي بشيء غير قليل من الحيوية الفائضة...

أشهرت الفتاة كتابها : «جائزة الامتياز».

أخيرا، اقترب أبوها ببطء. وبصوتها الذي تلاشى في جلبة الصراخ والضحكات في اللحظات الأخيرة من الاستراحة، أعلنت بلهجة المظفرة :

– إنها جائزتي !

توقف الأب خلف السياج على بعد متر أو مترين. ظننت أنها حسنا ستفعل، وهي تشهر الكتاب كي تجعل غلافه وبورتري سيّد عجوز ذي شوارب وعلى رأسه قبعة عسكرية، مرئيا.

أخيرا لاحظ المدرس الأهلي عنوان الكتاب. يتعلق الأمر بسيرة : رأس السيد الفرنسي ذي القبعة هو... الماريشال «بيتان» الذي كان آنذاك يحكم البلاد (فرنسا ومستعمراتها). كان ذلك في جوان 1940 أو 1941.

في الواقع، أنا التي أتذكر، بعد ذلك بكثير، لا أسعى حقا إلى تدقيق التواريخ : أتذكر المشهد وكأن الأمر قد حدث أمس أو السنة الماضية، وما لفت انتباهي هو تلك الابتسامة الصغيرة الغريبة على وجه أبي.

ما زالت الفتاة تشهر كتابها بعناد. ولا شك أنها تقول في قرارة نفسها : «إن أبي راض لأنه مدرس، المدرس العربي الوحيد في هذه المدرسة وأنا ابنته البنت العربية الوحيدة في القسم... بيد أنني الأولى !».

إنها تحيا هذا التشريف من باب التضامن، ذلك أن افتخار أبيها قد أمسى افتخارها هي...

ولكن ها هو المشهد قد أصبح معلقا : كما لو أن إخفاقا ما قد حصل. استعصى عليها الفهم وبقيت مدة طويلة رافعة ذراعيها إلى السماء مشهرة كتابها الذي يحمل صورة الماريشال.

لا تعرف بعد ما معنى الماريشال ! ومع ذلك كان على جميع الأطفال المصطفين كما يجب أمام العلم ذي الألوان الثلاثة الذي يرفع عاليا كل صباح، أن ينشدوا : «لبيك يا ماريشال !».

ولكنها هي، من غنّت وأنشدت مع الأخريات طوال السنة «ماريشال إلخ»، التي ظفرت بالكتاب المحلّى بالصورة –وفضلا عن ذلك فقد حظيت بالحياة المزيدة والمنقحة للماريشال رئيس الدولة، الموجهة للأطفال.

لا شك أن هذا المشهد كان جديرا بصحافة تلكم الفترة، صحافتهم... إذن الفتاة «الأهلية» أو «المسلمة» أو العربية، ما همّ، كانت الفتاة الوحيدة من هذا القبيل دون ريب في المدرسة في 1940 و41 (صحيح، بعد ذلك، برزت بنت الخباز ثم بعد سنة بنت بوابة المدرسة : ليس إلا من الجانب النسائي العربي في هذه القرية)، كنت في هذا اليوم في غاية الافتخار، ولكنني أتساءل لماذا لم يبق في

الذاكرة أي شيء من قراءتي لهذه السيرة النموذجية، ما عدا كوني أشهرت الكتاب عاليا كي يشعر أبي بالتكريم، وهو في الجهة الأخرى من السياج ؟

لقد احتفظت من نظرة أبيها، وبخاصة من نصف ابتسامته الساخرة –وهي التي ستكون بعد مضي وقت كثير القارئة المولعة الباكية لرواية «بدون عائلة»–، بردّة فعل الأب غير المتوقعة : حرّك رأسه، قرأ العنوان، ثم رسم تجاه ابنته شبه ابتسامة. ساخرة ؟ بيد أن صغر سنّها حال دون إدراكها الفارق.

والحال إنها كانت مغتاظة لأنها لم تلاحظ علامات الفرحة على وجهه.

بعد سنوات، (يكون عمرها آنذاك ثماني أو تسع سنوات، أي قبل ولوج التعليم الإعدادي ونظامه الداخلي)، أي في الفترة التي أخذ الأب يحاورها ويحادثها على انفراد باللغة الفرنسية ويشرح لها مقاصده. لقد أدركت متأخرا لماذا رفضت الابتسامة الأبوية الكتاب :

– لقد اختاروا هذا الكتاب عن قصد : كنت آنذاك الوحيد ممن لم يعلنوا الولاء لبيتان، وكانوا على علم بذلك ! تذكري، بعد أشهر قليلة من تسليمك الجائزة، كنت أصعد

برفقتك الدرج المفضي إلى شقّتنا. سمعت ضجيجا صادرا من الأسفل. فقلت لك : «توقفي !» نزلت ببطء وتحت الدرج فاجأت دركي القرية وقد اعتراه الخجل.

عادت الذكرى. ها هو أبي يقول للدركي المنزعج : «صباح الخير»، ساخرا.

أضاف أبي قائلا :

– أمر الدركي بأن يحاول ترصد ذبذبة الإذاعة التي نصغي إليها في المساء. وبطبيعة الحال، كانت إذاعة لندن !

راح الأب يوضح لابنته السياق :

– نحن معلمي المدرسة العليا للأساتذة فخورون بكوننا جمهوريين واشتراكيين.

أضاف قائلا :

– أرسلوا من البليدة محافظ شرطة ذا مكانة وشأن، ليتدبر الملف المعدّ ضدي. بيد أنهم لم يكونوا يعلمون أن هذا المحافظ المدعو غونزاليس، كان زميلي بالمدرسة العليا، وبأنه لم ينخرط في الشرطة إلا بعد ذلك ! والحال أنه هو الذي حذّرني سريا : «احذر يا طاهر ! سيفعلون بك ما فعلوا بـ«لشاني»، الأكبر منك سنا، الذي طرد من

التعليم واضطر إلى بيع الخضر !»... لحسن الحظ، حصل، بعد ذلك بقليل، نزول الأمريكان، وعاد لشاني إلى التعليم. أما أنا يا ابنتي، فقد اضطررت للتحلي بالحذر والحيطة : لم أكن أنفق عليكم وحدكم بل كنت أنفق كذلك على أمي الأرملة وأختي المقيمة في مدينتنا !

فاصل

من قال إن «المستعمرة» هي بالضرورة ميدان بكر حيث يقيم ويغامر الرواد المتلهفون للبناء والإعمار من عدم، من أجل الجميع ؟

كلا، إن المستعمرة هي قبل كل شيء عالم مقسم إلى قسمين : «نحن الذين نبني لأننا هدمنا» (لم نهدم كل شيء، بل تقريبا كل شيء !) و«ما بقي مما مضى» (قبلنا وقبل تهديمنا، كانت معاركنا تجتر ذكرى مجيدة مزعومة).

«هذا» المتستر ينظر إلينا منذ الـ«قبل» -لأن الوقت انشطر : هناك ديمومة وتاريخ لهؤلاء وديمومة أخرى لأولئك.

منذ الـ«قبل» ولمستقبل الأيام، بالنسبة إلى أولئك الذين لن يكونوا لا أبناء هؤلاء ولا أولئك...

المستعمرة عالم دونما ورثة أو ميراث.

لن يعيش أطفال الضفتين في منزل آبائهم ! ولئن كان لهم جميعا أجداد، فإن هؤلاء لن يتركوا لهم سوى الضغينة ليتقاسموها، أو النسيان في أحسن الأحوال، والرغبة في الرحيل والهرب والبحث عن أي أفق كي يندسوا في جوخ غروبه...

المستعمرة تلد الفرقة : إنها مسجلة في جسمها، كل جنس من الجنسين مقسم وكل واحد من فروعها ممزق وكل جثة من جثثها أو من بكورها غير معترف به !

المستعمرة تبدى لأول وهلة وكأنها ثأر أو مستقبل وأرض مغامرات، في حين تبسط أمامها قطرا لا حدود له وصحراء وأرضا من «محميات» مجعولة لمنبوذين ومحتشدا لمعتقلين دائمين منفيين...

إلى أي تقييد، وإلى أي ثوران نساق قسرا ؟ ترى أيكون ذلك بقصد العودة إلى طفولة هذه البنت التي كانت ذات يوم، في شرشال، تنزل الزقاق من أعلى الهضبة قرب الثكنات إلى غاية الأسفل خلف الكنيسة، باكية ومنتحبة، تنعق وفاة جدتها من أبيها، هي، أنت وأنا التي تكتب وتنظر والتي تبكي من جديد —أنا التي لم أقو على البكاء للأسف، على الأب الذي سقط دفعة واحدة في عاصمة الشمال على أرض الآخرين، والذي نقل أخيرا إلى شرشال ليدفن وسط أخواته وجميع النساء، ولكن ليس بمعيتك أنت التي تكتبين، جارية تحت الشمس من الأعلى إلى أسفل شرشال، وعمرك ثلاث سنوات، في الشارع والدموع.

.4
الأب والآخرون

في يوم من الأيام، وكان ذلك بباريس، اقترب مني رجل في سن أبي، وهو مدرّس متقاعد مثل أبي، وبعد أن قُدّم لي، بدا وكأنه ينتظر حتى نكون على انفراد –وسط جلبة صالون، لم أعد أتذكر أين يقع بالضبط– غير أن زميل أبي هذا خلص في النهاية إلى الإفضاء بما يلي :

– أتذكر جيدا جدة أبيك، هل تعلمين !

– تقصد جدتي من أبي ؟

ثم توقفت وقلبي يخفق بقوة جراء تأثري الجمّ. صوت عميق بداخلي احتج : «من ذا الذي يتذكر، في عالم اليوم، ماما (سيطرت على تأثري)، إن لم تكوني أنت –وفي نومك ليس إلا ؟ ربما أحيانا أبوك أو ابنه !» (كان أبي لا يزال على قيد الحياة).

ردّ الرجل صاحب الوجه المرح المبتسم –البورجوازي الطيب، في الستين من عمره ويقطن مدينتنا شرشال – بصوت لطيف ولكنه حازم :

– كلا، قلت على وجه التحديد : تذكرت جدة أبيك !

حصل توقف بيننا. ضجيج جم كان يحيط بنا –كان ذلك (أتذكر الأمر فجأة) خلال حفل استقبال باريسي في صالونات فندق فخم : كنت هناك عن طريق المصادفة تقريبا.

رددت بصوت خافت، مندهشة من جوابي المنبثق سريعا :

– لم يحدثني أبي عن جدته أبدا !

يتعلق الأمر بجدة أبيك من أمه، ردّ مخاطبي بصوت أكثر لطفا (قلت في نفسي : عليّ الآن أن أعثر على اسمه، فأنا مدينة له كثيرا ولا يستحق أن يظل مجهول الهوية !).

ثم أصبح السيد صاري –وهو اسمه، اسم بورجوازي من بورجوازيي شرشال– ذلق اللسان وبرر تسرعه –إن صح القول– في الإدلاء بذكراه :

– كنت طفلا صغيرا في مدينتنا المشتركة يا سيدتي ! وهذه السيدة، أي جدة أبيك، كانت تزورنا في بيتنا وكانت تفعل ذلك بوصفها جارة دون شك. إنها كائن مدينتنا الذي أدهشني كثيرا !

ثم انبرى هذا الرجل يصفها، فابتعثها بجمل معدودات. وعدت الرجل بزيارته في العاصمة حيث كان يعيش متقاعدا. بيد أني لم أره ثانية : مع أن جدة أبي بقيت راسخة في صوته مستعصية على النسيان، رغم أنها ذكرت في ومضات قليلة جدا.

بفضل ما رواه هذا الرجل، وبفضل لهجة ملاحظاته الحماسية، أدركت أن جدة أبي كانت تتحدى –فيما يبدو– بورجوازيات السنين الخوالي، المتعودات فيما بينهن على أسلوب التلطيف وإيحاءات اللهجة الحضرية.

– على غرار أبيك –الذي يشبهها جسمانيا، ورثت من أصلها العيون الخضر وحماسة الكلام، قال السيد صاري موضحا ومدققا. كانت تخرج من منزل لتلج منزلا آخر. لم تكن تلزم مكانها، والحايك على الرأس لأنها كانت تخرج سريعا وكانت النساء يحترزن من لسانها السليط !

قلت :

– بنتها كانت مغايرة لها : صغيرة وبخاصة كتومة ولطيفة، أو بالأحرى صموتة !

ردّ قائلا :

– على خلاف ذلك، كانت أمها طويلة وجميلة، وشعرها أشقر. كان كلامها جارحا، إذ دأبت على إسماع البورجوازيات الحقائق الفجة ! كانت –وضحك السيد صاري وكأنه يراها حية– ذات نزعة احتجاجية، أجل، كانت تصول وتجول كما يحلو لها، وهذا في جل منازل حينا بعين القصيبة !

كان هذا الرجل يحلم كما لو أن طفولته قد بعثت من جديد، مأتاها هذه الحاجة الملحة للحديث إليّ. بفضله، تخيلت هذا المجتمع النسائي الذي ظل جامدا، جراء قوانين حالت دون تطوره منذ ثلاثة أجيال على الأقل، بل لنقل منذ وصول الفرنسيين إلى مدينتهن، في منتصف القرن التاسع عشر.

وعلى غرار صنيعي (عندما أظل ساعات طوالا مقرفصة أمام ركبتي جدتي، كانت بنت تلك التي أشار إليها منذ حين، جالسة في منزل أبي المتواضع)، كان السيد صاري

يعلم أن هؤلاء النساء أمام أزواجهن وأبنائهن يتظاهرن بالاعتقاد بأن هؤلاء الأزواج هم السادة... على الأقل في باحة منازلهن المتواضعة.

لا زلت أتذكر أن زميل أبي تردد ثم أضاف بصوت خافت:

– لقد أصابت جدتك، بنت هذه السيدة، مصائب عدة: لقد ظلت أرملة وهي لا تزال شابة، بمعية طفل يتيم. لحسن الحظ، تكفلت أمها بمصيرها وزوجتها مرة أخرى بجدك... أنجبت أربعة أطفال بعد ذلك. وكان صديقي، أي أبوك، الابن الأصغر المدلل.

هكذا إذن تولى السيد صاري ترميم القطيعة التي حصلت في الشجرة النسائية، من جهة الوالد.

حدث هذا المشهد في الفترة التي كانت الحياة فيها تبدو لي هادئة جدا! وعندما عدت بعد عقد من الزمن إلى العاصمة –وكانت العاصمة قريبة مني جدا– كان السيد صاري قد وافته المنية وكان أبي يذوي شيئا فشيئا.

إن صورة الجدة هذه التي لم يخلّف لي أبي أي أثر عنها، لم أتجرأ على إشهارها مخافة أن يخطفه المنون هو الآخر وأن أصبح بدوري يتيمة عن قريب.

في قرية الساحل حيث استخلف أبي معلّما «أهليا» آخر –كان يقول بأن هذا الأخير متواضع جدا وصامت أمام المعمرين (كانت قريتنا تقع عند سفح جبال الأطلس، وسط منطقة كروم في أوج الازدهار)– اضطر إن صح القول إلى أن يرث مزاج جدته، كي يتحدى، في كثير من الأحيان وهو يحاول السيطرة على نفسه بشكل أخرق، الأوروبيين «الأقدام السوداء» المتأثرين بأغنى معمّري البلاد.

كان في سنّ المراهقة أحد أفضل سبّاحي المدينة –كان بطلا في السباحة العميقة، توّج خلال المسابقة السنوية التي كانت تجري، كل موسم صيف، بين المرسى والمنارة العتيقة البعيدة جدا عن الشط.

روى لي –مرة واحدة، وهو يتهكم آنذاك من «جسارة» الشباب– كيف أجاز لنفسه، إثر فوزه الرياضي المحلي وبينما كان مصحوبا بأعز صديق له (الذي أصبح خالي)، في الشاطئ الكبير على مشارف شرشال، دوس رمال الجزء المخصص حصريا للأوروبيين، ثم كيف قلب برجله، أمام مرأى الفتيات الفرنسيات المرتديات لباس البحر، الممدودات تحت أشعة الشمس بخمول، جميع اللافتات التي تحمل عبارة «ممنوع على العرب» : أجل، لقد قلب ببطء تلك اللافتات الواضحة المركبة على أعمدة حديدية، بقدمه، قدم بطل السباحة : الواحدة تلو الأخرى على الرمل غير مبال. ثم ارتمى بجسمه العاري المستور بتبان أسود على الأمواج بعد أن انتظر عبثا حصول مناوشة ما.

لا زلت أصغي إليه وهو يروي لنا في القرية المشاهد هذه التي كان يراها «صبيانية»، ذلك أن الميز العنصري كان يبدو له أقل تعسفا واضطهادا من بؤس الفلاحين اليائسين في قلب هذا السهل الأغنى في البلاد حيث كنا نعيش آنذاك.

كان أبي رجلا شابا، طويلا جدا، ذا كتفين عريضين، وعينين خضراوين–زرقاوين كأبيه، أو ربما كعيني هذه الجدة (من أمه) التي لم أتعرف إليها.

ذات مساء، في وسط الأسرة –وقد أضحى كلامه بالفرنسية خشنا– روى لنا (لأمي التي أخذت تفهم الفرنسية ولي) كيف أن وليّ تلميذ –فرنسي أو إسباني أو مالطي– تجرّأ أمس بأن خاطبه دون احترام الأعراف التي تقضي بأن يخاطب من لا نعرفه باستعمال ضمير المخاطب الجمع (أنتم بالفرنسية) أمام باب المدرسة، لأن هذا «المعلم العربي (في نظر الأوروبي) متعجرف للغاية»، وهو المصر على حمل الشاش التركي الأحمر : في الثلاثينيات، كانت حداثة أتاتورك رائجة بين الشبان المسلمين المغاربيين الذين كانوا يتظاهرون بـ«التطور».

أحد حرفيي القرية أو أحد المعمرين، لم أعد أتذكر ذلك، استوقف عند الباب «المعلم العربي» الذي خرج رفقة تلاميذه. إنها نهاية الدروس، لا على الرابعة والنصف، بل على الساعة السادسة مساءً. لاشكّ في أن أبي كلّف استثناء بالسهر على فوجين من الأطفال –من بينهم أطفال فرنسيون.

أحد هؤلاء الأطفال خرج باكيا جراء قسوة المعلم، حسب زعمه.

– المعلم العربي ؟ صرخ الفرنسي ذو الأبوة الحساسة.

وسرعان ما راح يوجه الكلام لأبي بلهجة عنيفة :

– أنت هناك، لقد أبكيت ابني ؟

– أنت هناك، ردّ أبي سريعا، من تخاطب في نظرك ؟ راعيا ربما ؟ أم عبدك ؟

انتفض أب الطفل (فجأة كفّ هذا الطفل عن البكاء) وقال لأبي بفرنسية شعبية للغاية :

– أتتجرأ... ؟

واستشاط الرجل غضبا كاد يخنقه.

واصل أبي قائلا خلال ذلك العشاء العائلي :

– كان قويّ الظهر ويقظا ومستعدّا للشجار !

بعد توقف قصير أضاف بلهجة محايدة :

– وضعت المحفظة جانبا، ووقفت قبالته. بيدي نزعت سريعا شاشي الذي سلمته لأحد تلاميذي. تقهقر المستفز : أدرك فجأة بأني أطول منه بخمسة عشر سنتمترا، أو أنه لاحظ ببساطة بأن نظرتي لا تطرف ! فتردد.

الأب لا يضحك. يلاحظ كل شيء بخيلاء، وكأنه يفعل ذلك لنفسه. في الغالب، لا يتحدث حول المائدة. شيء ما من قسوة المعلم يظل قائما كل مساء في المطبخ حيث نتناول العشاء في صمت، لا على مائدة سفلية كما عند الأسر الأهلية الأخرى، بل على الطريقة الأوروبية، على مائدة عالية، وهذا حتى عندما كانت جدتي من أبي التي كانت تعيش معنا على قيد الحياة، كانت تتعشى مثلنا.

كان التقليد يجري آنذاك في صمت. ولكن بمجرد أن يأويا إلى غرفتهما، عندما يتمدد أبي على سريره –بعد الاستماع إلى الأخبار التي تبثها الإذاعة– أصغي، وأنا قابعة في زاوية بالغرفة الأخرى، إلى ضوضاء حديثهما...

هذه المرة، انبرت أمي التي استمعت متوترة رواية أبي بالفرنسية، تقول بالعربية :

– وبعد ؟

تحاشى أبي السؤال، لم يكن يرغب في إدهاش أمي ليس إلا، هذا كل ما في الأمر. وهو ليس بنادم على أي شيء.

أما أنا التي أتذكر المشهد دون التعليق عليه، فقد أدركت الآن فقط بأن شجرة نسب النساء هي التي تتولى بسطه وتقويمه : على غرار جدته من أمه التي كانت تنظر من عليائها البورجوازيات المسلمات المحظوظات والتي كانت على خلاف ذلك تتألم جراء طيبة ابنتها المفرطة.

في صلب ذكرى هذه المأدبة العائلية، روى أبي حكاية هي بالأحرى بسيطة حتى لا يقلق زوجته... ربما لأن أمه العجوز كانت حاضرة، لست متأكدة جدا من ذلك. على كل حال، لئن نسي نفسه وهو يتحدث عن مغبة التشاجر مع وليّ هذا التلميذ الفرنسي، فقد عقد العزم على ألا يقلق زوجته.

بيد أنه انبرى يبرر إجابته بهدوء حازم، فراح يتحدث بالفرنسية.

في هذا المطبخ، بدت أمي فجأة فخورة قبالتي أنا في هذا المشهد –بأني متواجدة في جميع الجهات : بجانب أمي التي تصغي وتطمئن، وربما بجانب أم أبي التي، لئن كانت هنا، تفهم دون أن تفهم، ولم لا بجانب أم هذه الجدة الغائبة حقا والتي لا يمكنني تذكرها سوى بوصفها ظلا عنيدا، ولكنها عبرت عن نفسها من خلال حفيدها –كما يقول السيد صاري المعجب بها... «إنها هي، قال مؤكدا، التي تسكن شظايا الجرأة الجموحة لأبيك يا سيدتي !»... ماذا لو أخذت بدوري في استرجاع –الظل تلو الآخر– أم جدتي من أبي على إثر ابنتها التي هي أيضا عبارة عن شبح، فأنا متأكدة بأن ذلك مرده إلى أن الموتى، خلال جيل أو جيلين، يسكنون أبناءهم ويؤازرونهم لتهدئتهم ربما، وخاصة من أجل تقويمهم.

ثم خلص أبي (أستعيد مشهد العشاء في المطبخ) وهو ينهض للاستماع إلى أخبار الإذاعة الفرنسية إلى القول :

– قلت لصاحب الأقدام السوداء : «لم لا تناديني كما يقتضي العرف ؟ وها أنا أفعل مثلك !»

خلد للصمت وغادر المطبخ تاركا إيانا، أمي وأنا، نتصور معا ودون أن نتحادث «الأوروبي» غاضبا مترددا

أمام قامة هذا المدرس العربي الذي ردّ عليه بفرنسية متقنة...

بدت أمي، وهي ترتب مطبخها هادئة مرتاحة : لو حصلت مشاجرة لتعرض «المدرس العربي» للتوبيخ دون ريب. بل لكان قد طرد من التعليم بسبب «سلوك عدواني»، هكذا كانت تخمّن، وها هي الأسرة الصغيرة مضطرة للعودة إلى شرشال والعيش في المنزل المتواضع الذي لا ترتاح له الأم، علما بأنها رفضت قضاء العطلة فيه، ذلك أن منزل أمها كان يبدو لها أوسع وأكثر رفاهية.

ولأول مرة، خلال الصيف الفارط، انصاع الزوج لطلبها.

5.
الدراجة

ثمة مشهد حصل في فناء العمارة الخاصة بالمدرسين ظلّ عالقا في ذهني كحرقة، وهو بمثابة لوثة في صورة الأب المثالية، أخذت أشيدها رغما عني، لأنه غائب غيابا مبرما.

هذا الفناء الواسع مفصول عن الشارع. تنتصب عمارتنا في وسط المدينة قبالة البلدية والكشك، على ساحة صغيرة أصبحت قلب الحياة العامة «الأوروبية» في هذه البلدة الاستعمارية التي يعود تاريخها إلى قرابة قرن (على سفح قمم الأطلس التي بعد أن كانت ميدانا لمعارك الحملة الفرنسية، سرعان ما اشتعلت بعد عقد من الزمن)، في هذه الأرض المسيجة، المحظوظة إذن بسلامها والتي أصبحت ملاذا لألعابنا نحن أبناء المدرسين، كنا نلعب معا متجاهلين مؤقتا اختلافاتنا. كان في مقدوري المكوث فيه مدة ساعة

أو أكثر في كل مساء، ولكن ساعات كاملة أحيانا أيام الخميس والأحد.

كنا نلقي بالكرة ببساطة على الحائط، يحدونا تنافس واع. أحيانا كنا نلعب لعبة الحجلة. كانت هذه الألعاب تجلب لنا متعا بسيطة لم يبق لي منها في الذاكرة أي مشهد متميز ذي بال، اللهم سوى متعة التكرار مع بعض الصيحات من شدة الفرح أو الخيبة.

غير أنني لما أردت بدوري —وعمري أربع أو خمس سنوات، لا أتذكر بالضبط— أن أتعلم ركوب الدراجة، فإن شيئا ما من هذا الماضي يدور في ذاكرتي ويمسي جرحا وخدشا.

في هذا اليوم، وبمساعدة ابن المدرِّسة، وهي أرملة، وأقرب جارة لنا ركبت دراجة، وبعد محاولات محتشمة، أحسست أني قادرة بمفردي على الاحتفاظ بتوازني. لا أتذكر بأني سقطت أو شعرت بالخوف. حقا، كان قلبي يخفق، لكنني سأكون مستقلة وقريبا سأقوم كغيري بجولة أولا في هذا الفناء ثم عبر القرية حرة طليقة... ولكنني أحلم : لا شك أني سقطت مرة أولى. فأعاود الركوب، فأنا مصممة عنيدة. أنا واثقة بأني سأسيطر وحدي على

هذه العربة. والشاب الذي يساعدني بذراعه وهو يراقب مقبض الآلة يشجعني بلطف.

بعد ذلك، ظهر أبي عائدا لتوه من القرية. أراه، وأواصل إدارة العجلة نحوه... تظاهر بتجاهلي. سار بخطوة سريعة إلى غاية الدرج المؤدي إلى الشقق. من هنا، استدار بالكاد وبصوت حاد ناداني باسمي. ولم يضف شيئا.

لم أحاول أن أرد عليه بالقول: «انتظر! لن أنزل في الحال: تفرج على انتصاري! بعد لحظة ستراني على الدراجة وحدي في كامل توازني!»

كرر الوالد عاليا اسمي: كان ذلك بمثابة أمر حقيقي! نزلت من الدراجة مندهشة خائبة، لم أقل شيئا للشاب، لم أقل له حتى «شكرا» أو «سأعود انتظرني!».

أراني صاعدة الدرج صامتة خلف أبي الذي دخل سريعا إلى المنزل، يوصد الباب خلفي ثم يصرخ وكأن الجملة التي ينطق بها كان يحملها منذ دخوله الفناء:

لا أريد، كلاّ لا أريد –كرّرها عاليا لأمي التي هرعت صامتة هي الأخرى– لا أريد أن تُظهر ابنتي ساقيها وهي تركب الدراجة !

ثم ودونما انتظار، التحق بغرفتهما –التي حين يكون موجودا بها، تصبح مكان الزوج الذي لا يدنس سواء بالنسبة إليّ أو بالنسبة إلى جدتي– وهي هاهنا كظل غائب لهذه الذكرى التي تسلخني.

في اللحظات التي تلت، كانت حالة من الغيم المتواصل بالنسبة إلي، من اللاواقعية. أخالني قلت لنفسي لأول مرة : «هل أبي لا يزال هو أبي ؟ ربما أصبح فجأة شخصا آخر ؟» لم أحتفظ من جملته النابضة، مثل سهم نحاسي يتردد صداه بيننا، إلا بهذا اللفظ العربي ؟ : «ساقيها». ماذا يعني هذا يا ترى : جملته، نبرته، غضبه كونه لأول مرة يهجم على «غرفتهما»، هذا العرين ؟

خيّل لي أن أبي أجبر على شيء غامض فجأة... .

أظن أني حاولت محو هذا الصداع بل وحتى الإحساس بأن شخصا آخر مجهولا قد دلف وتقمص شخص أبي... كائن لا هوية له مزوّد بصوت جديد قصد إطلاق صرخة

غير مسيطر عليها، هذا الغضب الأعمى وهذه النبرة التي كانت مع ذلك تشعرني بالخجل ؟

لا، ليس الخجل على وجه التحديد، بل بالأحرى إحساس بداخلي لا شكل له، مأتاه تسلل ذو طبيعة غير إنسانية لدى أبي وغير حيوانية تحديدا. بل هو بالأحرى يشبه مادة خاما ووحلا صادرا من تربة مجهولة... وما سرّ هذه العدوانية المباغتة التي لم أعهدها قط فيه، والتي لم تكن لصيقة به حتى لما كانت قسوة المدرّس تخيف تلاميذه كثيرا ؟ لم أفهم قط.

ومع ذلك سجلت (ذكراي هاهنا دقيقة) أن أمي ظلت صامتة وكأنها فهمت ! لم يكن بينهما تواطؤ حقيقي، ولكنها لم تحتجّ، والحال أنها لم تع حال الاندهاش التي كنت عليها.

بل أزعم بأني افترضت بأن أبي قد احتك بجرثومة ما وداء لا اسم له -لأنه قبيح أو أسود : خثّ وأقذار !

كلا، ليس في ذهني أية صورة دقيقة : هالني كون أمي لم تلاحظ مدى اضطرابي وخجلي -في حين أنه بات أكيدا أن أبي قد أمسى شخصا آخر !

وما شدّ انتباهي أكثر في الجملة تلك الكلمة العربية «ساقيها»، وقد انزعجت أيما انزعاج لما استشعرت بأنه حدّد شخصي ونزع مني شيئا لم يكن ملكه. والحال أن الأمر كان يعنيني ! ساقاي وبعد؟ لا بدّ لي من أن أمشي بهما : لكل طفل ساقان ! لم يكن ذلك عدلا من قبله ! لقد فصلهما عن جسدي. أدركت أن ما بدر منه عبارة عن شتم ولكن لماذا ؟

اتجهت إلى زاوية مقابلة لهما (ذلك أن أمي سبق أن التحقت بأبي في غرفتهما). كنت أرغب في الابتعاد عنهما في المنزل، ولكنني كنت أبحث عن مكان خاص بي. ماذا أصابهما : مرض معد ؟ بما أنه حتى أمي لم تفسر لي أي شيء !

أتذكر ذلك الجرح الذي سبّبه لي (في الواقع قد يكون الجرح الوحيد الذي سببه لي أبي) وكأنه وشمني به، حتى في هذه اللحظة التي أكتب فيها، بعد نصف قرن ! بعد ذلك حال هذا الأمر دون تعلّمي ركوب الدراجة حتى بعد أن توفي أبي، وكأن هذه المحنة وهذا الخدش وهذه البذاءة اللفظية قد شلتني إلى الأبد مبعدة إياي عنهما —وهما اللذان يشكلان زوجا يتقبل مجتمع جيرانهما ويعجب به : مدارسهم التي كانا يقدسانها ودينهم الذي كانا يشعران بأنهما بعيدين عنه ولكنهما يحترمانه، فكل شيء كان يبدو لهما مثاليا إلى حد بعيد وجديرا بأن يتبع ويحتذى ما عدا... ما عدا أن ساقي البنت التي كنتها لا يجب أن تسعيا إلى تعلم ركوب الدراجة !

وفي صلب هذا الحظر الذي أصابني كانت كلمة «ساق» بمثابة لوثة !

كان ذلك يعني أن أي طفل وأي كهل أو عجوز هو بالضرورة متلصص داعر أمام الصورة العارية لساقي بنت مفصولتين عن بقية جسدها، تقود دراجة في الفناء !

تظاهرت، دون شك، بتناول العشاء والغط في النوم وعدم قول «مساء الخير» باحترام (العبارة العربية مع ذلك

تنطوي على كثير من الدفء والجمال...) –نظرا إلى أن قسوة الأب بعد غضبه وبعد قوله الجملة المشهودة التي أسجلها هاهنا كما الحديد والنار على كامل جسدي، فإن هذه الشراسة قد أضحت بشكل طبيعي جدا كتما لديه وصمتا متواطئا لدى الأم– الزوجة التي كانت تعبر بطريقتها الخاصة عن مجاراتها له إلى حد ما.

كنت المنبوذة إذن –أو بالأحرى كنت ذلك الزوج من السيقان الذي كان عليّ أن أسخّره للمشي ليس إلا !

هذا الاضطراب وهذا الرضّ، أكتشف، بعد أن تذكرته بكثير من التأخر، بأن جسدي ما قبل المراهقة وعند المراهقة –ولكن في النظام الداخلي للبنات، وهو مكان مغلق و«حريم» من نوع آخر– سيثأر لنفسه : من عشر إلى ست عشرة أو سبع عشرة سنة بالمدرسة المتوسطة من خلال تدريبات متواصلة في كرة السلة وألعاب القوى...

أما عن ركوب الدراجة، فقد امتثلت للحظر الصادر عن أبي امتثالا تاما.

في السنوات التالية، ما عدت أشعر بالرغبة –حتى بمفردي وحتى في حالة خلو الفناء من الناس– في الاقتراب من الدراجة، سواء بالحيطة أو بالذعر الذي من شأنه أن

يثيره فيّ الشيء المرغوب فيه. وحتى السعي إلى المحاولة انعدم. وكأنني رسّخت في نفسي بأنني لن أركب الدراجة ما حييت لا في القرية أمام الملأ ولا في المدرسة وإن بأمر من المعلمة !

ترى هل حصل ذات مرة أن اندهشت لأن أمي، على خلاف جاراتها -اللائي تحولن من جارات بسيطات إلى صديقات لها- لا تقوى أبدا، بين عشية وضحاها، أن تخرج «عارية» وفق اللفظ العربي المستعمل آنذاك- أي دون الحايك «الإسلامي» -ومن ثمّ عدم الظهور علانية كالأوروبيات اللواتي نصفهنّ بـ «العاريات». هؤلاء الأوروبيات اللواتي يحترمهن الجميع، بمن فيهم نحن ؟

لم يبق بالنسبة إليّ سوى رنين كلمة «سيقان» (ذلك لأن الأمر كان يتعلق بساقيّ !) الذي حمله صوت أبي الشرس والمتبدل، والذي لطخني وأثارني إلى هذا الحد : أجل، لا أجد كلمات أخرى لوصف هذا الأمر !

كان عليّ أن أثور، ولكن في سنّ الخامسة أو أكثر، وأنا مثقلة بإعجابي بأبي، لم أواجه كما ينبغي هذه الصورة «القذرة» جراء الغضب الجم الذي استولى على من أصدرها.

لا بدّ أن أضيف بأن موريس، ابن المعلمة الأرملة -الوحيدة التي كان والداي يدعوانها إلى بيتنا بدافع المحبة الحقيقية أو بدافع المواساة لترملها (إلى الحد الذي جعل هذا الابن الذي يكبرني بثلاث أو أربع سنوات يتصدر إحدى الصور العائلية)- وكان هو تحديدا، وهو يمسك مقود الدراجة، من اقترح عليّ أن يكون مرشدي في هذا التعليم.

أراني مرة أخرى : استبد بي الخوف ولكنني أواصل وأواصل لأني خائفة وأريد الانتصار والانتصار على نفسي. الدراجة تذهب من اليمين إلى اليسار، أحبس أنفاسي، يساعدني موريس : أخشى السقوط على وجهي، وفي هذه اللحظة يدخل أبي إلى الفناء فيرى المشهد في طرفة عين، لا يتوقف، ثم وهو يضع رجله على الدرج الأول، يدير ظهره للأطفال ثم يناديني !

يناديني ثانية. يستدعيني إلى محكمة الأجداد المختصة في المحظورات ضد النساء ذوات سن الخامسة –أو ثلاث أو أربع سنوات– إلى غاية سن البلوغ وإلى غاية ليلة الزفاف، قصد التنازل عن هذا الحق الثقيل جدا لصالح الزوج الأول أو الثاني إن اقتضى الأمر، ولكن الأب –كل أب– يمكنه تنفس الصعداء أخيرا، والتخلص من عبء واجب التخفي البذيء والحالك– وفي حالتي هذه: ساقاي الصغيرتان الراغبتان في تحريك عجلات دراجة.

بينما كان أبي يردد، وهو لا يزال مديرا ظهره للأطفال، وواقفا على الدرج، قائلا: «تعالي في الحين!»، لا أزال أسمع، أجل لا أزال أسمع اليوم كذلك الصوت الدافئ الودود الحنون، ربما صوت موريس الذي يهمس لي خائبا:

– انتظري قليلا، كنت ستنجحين!

غير أني التحقت بأبي، ولم يعترني الذعر أو الخوف أو البرود. أما هو، أي أبي، فواصل الصعود مديرا الظهر، وأنا مقتفية أثره دون فهم. في الداخل فقط، جراء الجملة القاسية الموجهة لأمي بصدد «ساقيّ» اكتشفته متجمدا في درع غضبه.

لم أجد الوقت الكافي لأقول لنفسي : «ولكن لم غضبه ؟». أدخل الغرفة وأعيد تدوين جملته العمياء التي أطلقها في البهو إلى أمي الصامتة المنتصبة على عتبة المطبخ : «لا أريد (يصرخ) ! لا أريد أن تظهر ابنتي ساقيها أمام الناس الآخرين بالقرية ! » ثم يأوي إلى غرفتهما.

لا أعتقد أنه التحق بنا لتناول العشاء في ذلكم المساء. ولا ريب أن أمّي قد قدمت لنا، أنا وأخي، الطعام في صمت.

إن صراخ الأب وارتجاجه ونهيه : «لا أريد» ثم نهايته : «أمام الناس في القرية» أي هذان الجزءان من الجملة راحا يرقصان بداخلي. لن أكفّ عن الشعور بالمعاناة من هذه الفظاظة في صوت الأب الناطق بهذه الكلمة : «ساقيها».

لم يخطر على بال أمي، وهي تجهل الاضطراب العميق الذي تسلل إلى نفسي بسبب ما تقدم (شرخ في تمثال الأب الذي نصبه حبي لأبي)، أن تشرح لي الأمر.

بعد سنوات خلت، حصل أن ذكرتني غير مرة بفظاظة أبي وصرامته التي لطالما طبّقها عليها، وهي المتدثرة بالحايك التقليدي، عندما يتعين عليهما السفر كزوج، وفي حافلة مملوءة أحيانا بقرويين يغريهم النظر إلى عيني أمي –وهما عينان جميلتان تخفضهما بعناد... («كان

قلبي يخفق طوال السفر من شدة خوفي من حدوث مشاجرة !» هذا ما أسرت به إليّ بعد ذلك بكثير.) أما أنا، في ردي على استذكارها، فلم أكشف لها حتى عن اضطرابي الأول هذا. ذلك أنها كان في مقدورها أن تجد العديد من التبريرات بدءا بالفترة : دون تلفاز، دون صور التجلي الحميمي والفاحش من الأمور، أو حتى الأمور العائلية بكل بساطة...

في ذلكم العهد، يلاحظ، في المجتمعات الإسلامية بما في ذلك الطبقة المتوسطة الصغيرة الحضرية، أن الصور المعلقة في الصالونات صور رجالية. ذلك أنه لم يكن يخطر على البال عرض صورة أخت -فتاة جميلة، لم لا- صورة زوجة قد تغوي العيون برؤيتها : بالكاد يظهر البعض بناتهم اللواتي لا يتجاوز سنهن خمس أو ست سنوات. ولكن في أغلب الأحيان، لا يحق سوى عرض إطار صورة وجه الجدة الوقور، المتوفاة حديثا... والحال أن جدتي من أبي كانت قد توفيت (وإن كان الأمر ليس كذلك في قلب الطفلة التي كنتها) دون أن تتاح لها فرصة أخذ صورة لها !

يحق لي الآن أن أبتسم وأنا أتذكر هذا المشهد الطريف، بيد أنه خلال العشرين سنة التي تلت، عندما حاولت في أول فرصة مسك مقود الدراجة في حديقة أو في فناء أو في درب من دروب القرية، جعلني صوت الأب الرقيب والصداع الهائل الذي ألمّ بالفتاة المبعثة، أعدل عن ذلك. لكن العدول عن ماذا ؟ عن تحدي الأب والقول، من الآن فصاعدا، لشبحه : «أنا على حق، وقد انتصرت، وفي مقدوري أن أركب دراجة وإظهار ساقيّ ورجليّ وربلتيّ وركبتيّ وحتى فخذيّ !» وكذا أن أضحك وأحب السرعة ونسيان العالم والقرية وحتى موريس الفتى الذي كان يربكني، وهو الأمر الذي لم أدركه قط ! آه ! أجل، أنا حرة ورجلاي لا تحملاني أو تجعلاني أركض فحسب، بل تحركان آلة ودراجة ليست للبنات بل للفتيان، كي تجعلني أعبر أخيرا القرية وشارعها الأكبر، وأقطع شارعها الرئيسي في كل الاتجاهات أمام المقاهي المسماة بـ «العربية» في أحد الأطراف، والحانات المملوءة بالذكور الأوروبيين في الطرف الآخر، أجل السير أمامهم جميعا من المدرسة إلى البلدية، ومن البلدية إلى المحطة، ومواصلة قيادة الدراجة أكثر فأكثر، وقطع جميع قرى الساحل هذه المرة على مركبة احترافية، الواحدة تلو الأخرى إلى غاية شرشال

—إلى غاية مدينة الأجداد، وإلى غاية باب جدتي من أمي بشارع يوليوس قيصر !

أَكُلُّ هذا كي أنسى أبي ؟ كلا، بل لكي يستقبلني فجأة عند وصول «سباق القرن» هذا ويقبلني ويشرفني، بأن يعترف بأن ارتياد الفضاء هكذا بسيقان بنت وبطلة في سباق الدراجات يساوي جميع جوائز نهاية السنة الدراسية وجميع النجاحات المستقبلية من تلك التي تشرّف، فيما يبدو، الأب... أب قد تحوّل الآن وتغير ولم يعد يتحدث عن «ساقيّ»، بل يتحدث عني ليس إلا بكل بساطة، أنا ابنته الرياضية مثله لما كان بطلا في السباحة في مدينته، أنا ابنته المشتطة والعنيدة مثله، وحتى مثل جدته من أمه التي لم يحدثني عنها قط.

.6
يوم الحمّام

في القاعة الباردة لمدخل الحمام، في أقصى زاوية مظلمة بها مصطبة، يوجد مكان خاص وضعت فيه أرائك مريحة وحيث تتكدس أفرشة مغطاة بزراب ذات ألوان فاقعة. في ظهيرة كل خميس نتخذ أنا (كان عمري أربع سنوات ثم خمس سنوات ثم ست سنوات) وأمي مكانا به بسكينة كما في قاعة استقبال.

قبل ذلك بقليل، بمجرد دخولنا في ظل أول رواق، بعد رفع الستار ذي التخطيطات الحمراء والسوداء التي تحمي من الشارع، هرعت لالة عائشة، مسيّرة الحمّام، أمامنا. حيّت أمي التي لا تزال محجبة بضم رأسها وقفاها (أشعر أن أمي لا تحبذ هذا الدفق الذي لا تقوى على تحاشيه). سبقتنا المضيفة إلى قاعة الانتظار الباردة جدا، ينبعث منها ضجيج أصوات بعيدة وخرير المياه في الخلف وصدى أصوات

صارخة لمستحمات نصف عاريات يهيمنّ على القاعات الداخلية، بشراتهن قد احمرت جراء الحرارة الرطبة التي هبتها منذ دخولي قبل أن يأتي دوري.

في هذه الأثناء، لالة عائشة، المتكلفة جدا، تحاول أن تتدارك ما فاتها بأن رفعتني وأخذت تداعبني واقتادتني على ذراعيها إلى جانب أمي. لطالما حاولت التصلب وتحريك ساقيّ لتحرير نفسي والقفز على رجليّ المضمومتين على البلاط ذي لون الآجر. بيد أني لم أكن أوفق دائما. أخيرا أنزلتني صاحبة الحمام قرب أمي ضاحكة، وكانت أمي قد أقامت في زاوية تشكل مصطبة للقاعة المسماة «باردة».

وسرعان ما تحلقت قرويات حولها. أما أنا، المقرفصة وسط الأرائك المزركشة التي بدت لي في الظلمة فاخرة تقريبا، فقد رفعت عيني إليها وهي لا تزال مستقيمة، تاركة الحايك ينسدل على كتفيها ببطء، إلى غاية وركها. كانت صاحبة الحمام تبدو في كل مرة سعيدة ومفتخرة أكثر لاستقبالها زوجة المعلم بانتظام. المستحمات الأخريات ذوات الأكتاف العارية والشعر المبلل، ظللن واقفات ومنذ مدة طويلة، صامتات ولكن فضوليات : إن ذهابهن بعد الظهيرة إلى الحمام والمكوث فيه وقتا معينا

يمثل بالنسبة إليهن حدث أسبوعهن المميز. لا شك أنهن قد وصلن باكرا، منذ افتتاح خصة النساء في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا. قبل ذلك، نظفت الأماكن تنظيفا كاملا لأنها تسخّر في كثير من الأحيان، في الليل، كمرقد للفلاحين الذين يقطنون في المنطقة، والآتين من بعيد من أجل الذهاب إلى السوق عند طلوع الفجر.

القاعات الداخلية العميقة كالقبور تطل على هذا البهو. تتوقف فيه حلقة المستحمات، كل واحدة منهن ينوء كاهلها بالعديد من الأطفال الذين ينتظرونهن في الغالب وهم يتأوهون أو يغنون. يلاحظن، الواحدة تلو الأخرى، أمي التي ظل وصولها محط احتفاء، وهو أمر لاحظته بكيفية لا تخلو من السذاجة.

شيئا فشيئا بدأت أستأنس برطوبة وظلمة الأماكن وكذا بالهيئة الفظة للمستحمات العاريات، بعضهن يحيي أمي بعبارات مألوفة لا تنتهي.

ترد عليهن في هدوء، بإشارة من رأسها وأحيانا (أحب كثيرا هذه الحركة) بأن تمد لهن إصبعين أو ثلاثة من يدها التي تقوم كل واحدة منهن بملامستها ثم وضعها على جبهتها وهي تتمتم بدعوات تبدو لي غريبة.

وهي تتأهب للجلوس، تركت أمي الحايك الحريري ينسدل دون أن تتفطن لذلك. هرعت المسيرة لتطويه بإتقان. أمي التي تحاول دائما رفض ذلك، سمحت، على العكس، لسيدتين أو ثلاث بأن يسحبن إليها الحقيبة الصغيرة التي أرسلها أبي منذ الصباح. تدعى هذه الحقيبة «سابا»، كما لو أن الأمر يتعلق باسم امرأة، في حين هو اللفظ الذي تطلقه حضريات مدينتنا على حقيبة الحمام المفتولة في شكل سلة عميقة وطويلة، والتي بمجرد أن تفتح تجلب الناظر بمتنها المضاعف بالساتان الوردي المزين بالعديد من الجيوب المطرزة، وكذا بمرآتين أو ثلاث مرصعة.

حينئذ تطرأ لحظة من الترقب : إحدى القرويات، وقد اكتشفت هذا التفنن لأول مرة، اقتربت كثيرا فسعت المسيرة إلى إيقافها فخورة وكأنها صاحبة هذه الأعمال !

تمسكت أمي بعفويتها وطبيعتها، وضمتني إليها. وسرعان ما أخذت الفضوليات في الابتعاد والعودة الواحدة تلو الأخرى إلى قاعات الانتظار. حينئذ، وفي كل مرة، تغويني الشائعة الصادرة في شكل موجات عن باب ثقيل مصنوع من السنديان ينفتح أمامنا وينغلق ثم

ينفتح من جديد. يبدو لي كأنه يصل إلى ضفاف عالم باطني يبدو انسكاب مياهه لا نهائيا. في عمق الحمام تتواصل صيحات الأطفال الذين تساء معاملتهم وسط البخار.

أين أنا فجأة، في حلم من الشلالات وليل ومشعوذات ربما، تنتظرنني في قلب هذا العرين ؟

هكذا كنت مذعورة وأنا صغيرة جدا، ولكن حقيبة الحمام متى فتحت على ما بداخلها المصنوع من الساتان، تهدئني : فنصبح كائنين متميزين ؛ هذه السابا جاءت من مدينتنا هناك، من شرشال. ما كان علينا أن نخاف. فقد كان لدينا متسع من الوقت.

فيما عادت النساء الأخريات ليغسلن أطفالهن الذين كفوا عن الصراخ، أقف مرة أخرى بكثير من التلذذ على طقوس الاستقبال: أتت المسيرة بمشروبات الليمونادا وأخذت تتحدث إلى أمي بصوت خافت، مزودة إياها بمعلومات عن الأسرتين أو الثلاث أسر «المشهورة» في القرية: زوجة الخباز القبائلي (التي لا يحق لها حتى المجيء إلى الحمام) وزوجة الحلاق –وهذا الحلاق مرتبط أيما ارتباط بأبي.

روت لالة عائشة، وهي ترسل كلامها همسا، الزيارة التي قامت بها أول أمس أسرة القايد بمعية بناته العديدات وآخر زوجاته...

أما أمي فتنتظر أن تعود كل فضولية إلى الغرفة الساخنة. حينئذ فقط تنشر المسيرة غطاء سرير بين عمودين من

خشب بال، كي تستطيع أمي نزع ثيابها خلسة بعيدا عن أنظارهن.

عندما أرفع عيني صوبها، أجدها قد ارتدت ثوب الحمام —وهو عبارة عن فستان الشاطئ يكشف ذراعيها وظهرها— أحذو حذوها: أنا مغناج ولدي أنا أيضا «فساتين الشاطئ»، ليست في الحقيقة مخصصة للشاطئ وإنما للحمام فقط.

خلال هذه المدة كلها، لم تكفّ لالة عائشة عن مدّنا بأخبار عن القرية، ولم تكن أمي توقفها إلا لترسل صيحات تنمّ عن التعجب. غير أنها قد رتبت كل شيء: ثياب المدينة وكذا الحايك في السابا. أخرجت طاقما من الأقداح النحاسية اللامعة وذات أحجام مختلفة. أعطتني إياها كي أحملها. حين نهضت، تناولت أواني الصابون الخاص ومختلف قفازات الاستحمام وكانت خادمة الحمام قد حجزت لها قعيدتين وتحققت من أن القاعة المخصصة لنا في الداخل قد نظفت بماء بارد وفير. أخيرا دخلنا بمراسم وحذر، إذ كانت أمي تردد لي بأن أحتاط وأتحاشى الانزلاق على الأرضية المبلطة (كنا ننتعل أحذية خفيفة من خشب خاصة بالحمام).

سبقتنا لالة عائشة متبخترة إلى داخل الحمام كما يفعل الحارس الشخصي.

أتذكر هاهنا أحد الطقوس الثابتة والخفية : عند العتبة الأولى لهذه الأماكن الظليلة وذات المياه السائلة، توقفني أمي بحركة واحدة، قبل الدخول إلى القاعة الصغرى :

– انحني ! تهمس لي.

أفهم : تريد أن تبارك لي أو «تحميني من العين الحسودة». أتلقى ذلك كأمارة خاصة عن حبّها –أقول ربما بعد عقود من الزمن، سيطهّر الحمام قلوبنا كذلك من تحفظاتنا الصامتة وتكتمنا الذي جعلنا نحن البنات الحضريات نميل إلى التحلي بعفة مبالغ فيها.

أجل ذلكم الصمت النادر، هذا المسكوت عنه لدى الأم، بعد زمن بعيد، والحرارة الملطفة لهذه الأماكن، تجعلني أدركها بكيفية أحسن كما لو أني في رواق يغشاه نور خفيف.

أخيرا ها هي أمي الشابة تنحني إلى غاية ركبتي. على عتبة هذه المملكة من المياه والأصداء، هامسة عبارة قرآنية أو تعويذة، تصبّ، من قصعة نحاسية مرصعة، دفعة أولى

من الماء البارد على رجليّ اللتين أمدهما طواعية. أرتعش، فتستقيم وتملأ ثانية القدح وتصب نفس الماء البارد على رجلي اليسرى الممدودة بدورها. ثم ترتل صلاتها. أما أنا فأضحك تحت دفق الماء البارد !

لا زلت أصغي اليوم إلى صوت الأم وهي تهجي الكلمات المقدسة التي تباركني وتحميني وسط هذه الأماكن الملبدة بالبخار. همست أول مرة قائلة :

– مّا، لَمَ على رجلي ؟

لا ريب في أن أمي قد أجابتني كما جميع أمهات مدينتنا بقولها :

– من أجل المحافظة عليك ! على رجلك أولا كي لا تنزلقي... ولكي يكون حمّامك هذا مفيدا لك !

بعد ذلك بكثير، شرحت لي أمي – و ابنة عم أكبر سنا – طويلا سبب هذه الحركة على كل رجل.

هذه الأماكن المبنية بالحجر البالي حيث تسيل المياه دون انقطاع، يمكن أن تكون كذلك جحيما حيث قد ننزلق ونحترق! جهنم أو مكان آخر باطني لا يكون بالضرورة مهددا حيث –أتكون أسطورة رويت لفتيات في سن الزواج– بنات رفضن الزواج قد اخترن فيما يبدو الاختفاء. أي عبارة عن عرين لمتمردات –هذا ما ترويه قرييات شابات، ولكن فيما بعد...

أتذكر هذه الصور في صلب هذا التلبد تحت السقوف السفلى في ضوء باهت حيث تتلاشى أصوات القرويات فرحات طورا ومبحوحات طورا آخر. أحيانا تستبد بإحدى المستحمات، الشابات والمسنات خاصة، الرغبة في

الإصغاء إلى صوتها –صوت ممزق أو على العكس صوت عميق وقوي، في هيئة سيل أقوى من سيل المياه– أجل إلى الإحساس بصوتها في البخار الرطب والتحليق والتيه، صوت واحدة ليس إلا، بينما جميعهن المستسلمات منهن أو الهادئات، سيظللن لصيقات بالزوج والأطفال والحماة –أجل، بجوار هؤلاء اللائي لن يبرحن القرية أبدا، صوت واحدة فقط يمكن أن يتحرر، دون رجعة، صوتا جديدا !

بمجرد اجتيازي عتبة الباب الثقيل، أجدني في هذه المملكة المظلمة ذات المياه المتدفقة : عالم الأطياف الذي سأحلم به طويلا في الليلة الموالية بتموّج أصواته الكثيفة المتأرجحة وبحّة العديد من أصوات نساء مجهولات عاريات في أغلب الأحيان، لا أكاد ألمح من أجسادهن غير أطيافها.

اقتدت أنا وأمي إلى قاعة صغيرة تمّ تنظيفها طويلا بالماء البارد. بها أحواض على مستوى أرضيتها. مقاعد خشبية ضيقة كانت في انتظارنا.

الجوّ حارّ، ولكن هذه الحرارة تتسلل بتقتير، فيما ظل متلألئا كما لو أنه آت من عالم آخر يبهرني إبهارا. كما لو أن أشباحا تنتظرني، أنا، في أعقاب أمي.

ظلت أمي هادئة في هذا المجال، مجال الظل والماء، مع الصراخ المتناغم الصادر عن الأطفال، الذين هم في المحصلة يئنون أو يبكون بكاءً متقطعا كما الجراء.

غادرتنا المسيّرة بعد أن تحدثت إلى أمي بصوت خافت جدا. أدركت أنها لم تتركها تختار ما بين مساعدتين أو ثلاث مهمتهن غسلي أنا. شُرح لي بأن الأطفال لا يمكنهم المكوث سوى مدة قصيرة جدا في هذا الجو الساخن. ثمة امرأة أخرى —في أغلب الأحيان مسنة وقلما تكون فتاة شابة— هي التي ترسل إلينا.

تجلس «الغريبة عن الحمام» كما أسميها على إحدى القعيدتين، تجلبني إليها وتضمني بين فخذيها العاريين، وتحك رأسي بقوة وبالكاد تتركني آخذ نفسي، ثم تصب عليّ ماء كثيرا —دون أن أذرف دمعة ؟ بلى !

أتذكر الأغنية الغزيرة، التي كانت تصدر من حنجرتي، في السنوات الأولى. «أغنية» ؟ قالت أمي بعد ذلك بكثير ساخرة، كلا، كنت تبكين طوال الوقت بدافع ما يشبه المتعة !

كانت هذه «الأغنية» إذن تصاحب أيادي الغريبة القوية التي كانت تعجن جلد رأسي وتحك الجسد في جميع طياته، في حين كنت أتظاهر بالبكاء جراء تهييج الصابون لعيوني... بعد أن تجاوزت سن الثلاث، كنت أبكي لمجرد المتعة التي أستشعرها عند البكاء، لأن أيدي الغسالة الملتصقة بقوة بشعري الطويل، كانت تدلك جمجمتي وفق إيقاع منتظم، يكاد يكون إيقاعا دموعيا، في نظري، وهذا طوال جريان طقس الحمام. كانت عيناي تؤلماني وجلدي مخدوشا جدا، الأمر الذي جعلني أشعر بأن جسمي الصغير يتفتت تحت قوة الأيدي التي تحكني —أجل، في الختام كنت أبكي بدافع النشوة وكل أملي في أن أمي، التي سمعت صوتها الآتي من بعيد، هي ربما التي ستتولى غسلي فيما بعد بلطف أكبر.

ربما شرعت في هذا الحمام ذي القاعات القديمة حيث يبدو الماء يسيل منذ الأزل – أجل أي مطهرة في الليل ؟ –

في الوعي بجسدي الصغير، اللهم إلا إذا كنت قد تهيّبت فجأة من أن تتركني أمي هنا ؟

لا. لا أظن أني أتذكر مثل هذا الذعر.

غير أنني انطلاقا من لحظة بعينها –ولكن في أي سنّ ؟– أخذ سحر شعوري بأني صغيرة جدا والخوف من أن أجد نفسي فجأة وحيدة في هذه القاعة الواسعة والمظلمة، الضاجة بخرير المياه، ذات السقوف السفلى...

لم أعد أتذكر سوى الآثار المتلاشية من هذا الزمن المتجمد الغارق تقريبا. لم أعد طفلة ذات ثلاث أو أربع سنوات. أنا الآن طفلة كبيرة عمرها خمس سنوات على الأقل. وبينما أنا برفقتي أمي أراني أعبر وسط القرية وأتوجه بانتظام إلى الحمام. ولكن منذ الآن أصبح أخي الأصغر يرافقنا. ثمة سيدة أخرى تهتم بي : امرأة سوداء مكتنزة ذات صوت دافئ.

في الذهاب إلى الحمام كما في الإياب، نرتاد وسط القرية : أمي المحجبة تماما كما في المدينة. لم أتفطن إلى أن أمي تستثير إعجاب الرجال بسبب هذا الحايك الحضري، الذي يضفي عليها طيفا أبيض ذا طيات بينة، ويجعلها مقنّعة ولكنها ذات هيئة أنيقة، وأنا كما العادة، متشبثة بوركها، أنا البنت الصغيرة التي لم تعد تصلح كضمانة فحسب بل أيضا كحماية، لم يعد الأمر يتعلق بمواجهة نظرات الرجال العرب، كما في حيّنا، بل هنا نظرات الأوروبيين الجالسين في شرفات حاناتهم المطلة على الشارع الطويل المؤدي إلى المحطة، والذي تعبره هذه العربية المتميزة جدا في كل يوم خميس بعد الظهيرة.

عند مرورها، وبشكل مبرم، يتأجج الفضول أو الحنين، وكان على كل فضولي أن يلاحظ قائلا، ونظرته مغروسة في هذا الانبثاق الغرائبي :

– إنه يوم الخميس ! يوم ذهاب النساء إلى الحمام أي إلى عقر دارهن !

هكذا إذن توجهت زوجة المعلم العربي إلى حمّامها كما تفعل تقريبا أميرة من الشرق مقنعة آتية من بعيد، وهي تمشي متبخترة قليلا تحت الحايك الشفاف، تتفحصها نظرات الأوروبيين الموجودين في أهم حانات القرية : «هذه الغريبة الشابة... آه لو ينزلق عنها الحايك فجأة بفضل أخفّ النسائم، كي نرى قوام هذه السيدة الفتية !».

فلو انتفخ القماش و تطاير كمظلة، فإنها يقينا سوف تتجمد ولن تزيد خطوة واحدة، سنرى حينها الملابس التي ترتديها، إن كانت مثل سلطانة بطرز ذهبي مفتول على المخمل، أو أنها ترتدي ملابس خفيفة كراقصة شرقية قبل صعودها على المنصة.

وهكذا راح خيال كل ذكر فرنسي بالقرية يزداد اتقادا !

أما الفضوليون العرب، المنشغلون بلعبة الدومينو في شرفات المقاهي، فهم يعلمون أن هذه المرأة العابرة هي زوجة مواطنهم الذي يتولى تعليم أطفالهم. تتقدم بوصفها حضرية هادئة، وإن كانت منفية في القرية، مادّة يدها لابنتها، وفق الأعراف. ومن باب احترامهم لهذا المعلم، يأبى هؤلاء المتفرجون التلصص على هذه السيدة، فيدخلون إلى محلاتهم أو يقررون، حين يتعلق الأمر بزبائن جالسين بالخارج منذ مدة، الانغماس ثانية في لعبة الدومينو التي لا تنتهي.

حين الفراغ من اللعبة، لا يهم من ربح أو خسر. فالأهم أن لا يقال إن جشعا دنيئا قد استثار فضولهم، وإن من أجل رؤية زوجة «الشيخ» وهي تتجه صوب الحمام، هذا الشيخ الصارم والفخور أمام «الآخرين» ولكن القريب منهم جدا حين يأتي ليضايقهم كي يبذل أطفالهم بعض الجهود، ويتمكنوا من بلوغ شهادة الدراسات الابتدائية أو أكثر... لا شك أنهم قالوا في قرارة أنفسهم :

«كلا، لنخفض عيوننا احتراما لمن هو منشغل كثيرا بأبنائنا !».

وبدوري، أنا ابنة «شيخهم»، أكتفي بأن ألاحظ فيما بعد وبشيء من اليقين : «العفة والتحرج الصامت يوجدان في الغالب عند الفقراء !».

بعد هذا التطواف في كل يوم خميس بقلب القرية الاستعمارية، أدخل بمعية أمي إلى الحمام حيث تستقبلنا المسيّرة مبتسمة وتهيئنا للاغتسال.

.7
الأخ الصغير

وفاة الأخ الأول، صبي ذي ستة أشهر : هذا الفقدان يجثم في مكان حالك من حنين طفولتي... ترى كم كان عمري آنذاك، خمس سنوات أو أقل بكثير ؟ لا أدري. بيد أننا كنا عائدين من شرشال. وكان الفصل خريفا وبالضبط قبل اليوم الأول من الدخول المدرسي.

لماذا أتذكر هذا فجأة : هل كان الأخ الثاني في مهده أم كان يحاول حينئذ المشي في الشقة ؟

ها أنت يا أبي تشهدني في غرفة الانتظار (أمي هناك لا شك أنها منشغلة بمولودها الجديد وأنت تنبري بغتة وتفضي إليّ بأسرارك !) أسمع صوتك وهو يشير بالفرنسية إلى ذكرى ترتقي إلى سنتين خلتا. لا أثبّت عينيّ في وجهك. فاجأني كونك تحدثني بغتة كراشدة بالغة، أنا التي لا يتجاوز عمري خمس سنوات :

– أترين يا ابنتي...

لا شك أنك تذكرت بغتة عمري وشرعت بلهجة أبوية ولكن فيما بعد كأنك كنت تتوجه إلى امرأة. أحسّ بهذه الجِدّة –كما لو أنها اختلال للتوازن واستباق (أضع هذه اللوحة كرسم نافر في تناظر مع ألم أمي الغريب بعد ذلك بكثير في اليوم الأول من ترمّلها، حين تتهالك في ذراعيّ).

أنت لا تتهالك، بل تصغي بالأحرى إلى نفسك أمام البنت التي تحدّثها بحذر.

أمام عينيّ اليقظتين المصوبتين نحوك، تستعيد، من أجلي، حزن الزوجة الفتية.

عشية الدخول المدرسي، قلت إذن لابنتك ذات الأربع أو الخمس سنوات (بدت لك قد كبرت، وأنا كذلك بالقدر الكافي الذي يجعلني أدرك وأنا في مواجهة نفسي ولا شك لأنه لا يمكنك التحدث إلاّ إليّ، الآن، بالفرنسية، فأنت تكشف عن ذاتك –آه جزئيا. ذلك أن الحديث بالعربية، هذه العربية التي تجعلك تتلعثم حين يعتريك التأثر، لا تجدي نفعا...).

في هذا الحوار المشوب بالثقة، تبدو لك ابنتك أكبر سنا : تكاد تكون نجيّتك قبل الأوان، إنها تقيم الصلة بين الزوجة وبينك.

قلت لي... آه هذا يبدو في غاية البساطة، وربما تافها جدا –تنساق وراء الذكريات، فتتذكر أمي العائدة بعد صائفة مأساوية بالنسبة إليها، وتتجرأ على التذكير عاليا بألمها.

أتذكر، أو أعيد بناء ما فات : أولا لهجة أبي الصارمة هنا في بهو الشقة بالقرية، وقد وضعت الحقائب توا ولم تفتح كلها. الأم مشغولة خلف باب غرفتها، بالرضيع الذي سينسيها ألم الماضي القريب المضني.

أسمع صوت الأب الذي يتذكر ما فات بصوت عال (هل سأدشن قبالته دوري كندّ في الكلام ؟).

– أود أن أقول لك يا ابنتي... هذه العودة تذكّرني بأخرى في شقتنا... في هذا المكان الذي أنا فيه، توقفت أمك ونزعت ببطء حجابها عن كتفيها ثم همست (تردد أبي وهو يتذكر) :

«آه يا طاهر، غادرنا المكان قبل الصيف، كنا أربعة... –أرسلت حشرجة– وها نحن قد أمسينا ثلاثة !» ثم، ذهبت لتنام دون تناول العشاء !

حينئذ استعاد لهجته الصارمة بوصفه أبا :

– أقول لك هذا يا بنيتي، لأن أخاك الصغير الذي توفي هناك، يجب عدم التحدث عنه أبدا أمام أمك ! أبدا...

نظرت إليه. قد يكون استشعر الريبة أو الخجل المفاجئ لأنه لم يتمالك نفسه : إظهاره الحنان لزوجته ولوجعه الشخصي الذي ضاعفه وجع أمي «التي يتعين تحاشي الحديث أمامها عن الابن الأول» !

سنكتم أمره إذن. وسنواريه التراب نحن الثلاثة، سريعا، في السنوات الآتية. الآن، في مشهد غرفة الانتظار هذه والعودة إلى القرية «وقد أصبحنا أربعة».بما أن الابن الثاني قد استخلف الأول (لكن هل استخلفه حقا ؟ فلطالما كان يقول بأن لا !) لا شك أن أبي قد تفطن فجأة لسني : وهل بسبب هذا ألح أيما إلحاح على هذه النصيحة التي أسداني إياها، وقد تفاجأ هو نفسه لما أبداه من حبّ للزوجة، هو الذي اعتاد على خنق أي إحساس جراء الأعراف التقليدية ولكن أيضا جراء فظاظته ؟

لم أدرك بعد بأن أبي لا يتحمل الدموع ولا الصمت المتجمد بسبب الدموع التي لم تذرفها زوجته الشابة، التي لم تتقبل وفاة ابنها الأول، وهو رضيع جميل وممتلئ الخدين لا يتجاوز عمره ستة أشهر، في ظرف أربع وعشرين ساعة،

فالطبيب الذي وصل متأخرا لم يكن في مقدوره سوى ملاحظة الخطب الجلل...

أين كنت يا ترى في هذا اليوم الحاسم ؟ كنت دون شك في منزل عائلة والدي المتواضع الموجود في أعالي مدينتنا، محفوظة من الوقوع تحت جناح الموت الأسود.

بعد ذلك بكثير، احتفظت في ذاكرتي من هذا الحديث الخافت، بلهجة أبي الحذرة :

«لا تتحدثي أبدا عن الرضيع المتوفى، فإن أمك قد لا تتحمل هذا الأمر !».

لا ريب في أن هذا التحذير قد وجهه إليّ لأنه كان يعلم بأنه لا يقوى على أن يواجه من جديد مشهد أمي، المرأة الشابة شعثة الشعر، وهي نهب تشنجات الألم.

انبثقت خلاصة غير منتظرة بالنسبة إليّ، كخاتمة لهذا المشهد المتعلق بموت الابن الأول. ذلك أن أختي الوسطى الثانية قد ولجت الركح –عقودا بعد ذلك، كنا نعيش آنذاك، أنا وهي، بباريس، علما بأنه نادرا ما نتذكر مشاهد طفولتنا المشتركة.

هذه المرة، تذكرت أختي بغتة –ترى هل بسبب إخباري إياها بوصية الأب ؟ –حرصه القلق على ألا نذكر أمام الزوجة الوفاة المباغتة للابن الأول –التي حدثت أثناء عطلتهما الصيفية بشرشال في المنزل ذي الشرفات العليا للجدة من الأم.

وهي تصغي إليّ وأنا أروي لها الحظر الذي فرض علي بألا أذكر موت الأخ الصغير –«أبدا !» كما لو أن صورة الزوجة–الأم، أمامه، قد تتفكك–، ابتسمت أختي

الصغرى (رغم مضيّ عشرين سنة، على الأقل، على هذا المشهد الذي جرى بيني وبين أبي) ابتسامة تنمّ عن تعب جمّ.

– هذا إذن، قالت بلهجة محايدة أو مشوبة بالمرارة، لم أعهدها فيها من قبل.

فور ذلك، عرضت عليّ مشهدا من طفولتها الخاصة. لنعد إذن إلى القرية الاستعمارية حين برزت ابنة الزوج المدللة، كي تحيا ثانية طفولتها الأكثر «حرية» على كل حال غير محاصرة بالمحظورات على خلاف طفولتي –ثماني سنوات تفصلنا، سنوات التطور السريع، على الأقل في بعض الميادين الثانوية : أظن أن أختي قد تعلمت ركوب الدراجة دون عوائق، ورأت أمها تكاد تصبح صديقة لجاراتها الأوروبيات، وتخرج مثل الأوروبيات أي بدون الحايك الإسلامي، عند نزولها إلى العاصمة لاستشارة الطبيب على سبيل المثال– إذن تنهدت أختي بالكاد وقالت :

– هكذا إذن التزمتم جميعا الصمت الذي طلبه أبي.بما أنه لم يكن يقوى على تحمّل دموع أمي ! هل تريدين أن تعرفي ما ترتّب عنه بالنسبة إليّ ؟

ترددت.

– بماذا ستفيدينني ؟ قلت.

ولاحظت، بشيء من السخرية، من منطلق أنني البنت البكر :

– وأنا التي ظللت أعتقد إلى غاية اليوم، مقارنة بالأزواج المسلمين المتحلقين حولنا، بأن لأسرتنا صورة واضحة وشفافة للغاية !

أرسلت أختي ابتسامتها المعتادة الدالة على الأريحية تجاهي. إنها –هل يجب عليّ تأكيده– امرأة علم حيث مارست، لمدة طويلة وبشغف، مهنة الطب بوصفها مختصة في الغدد. قالت :

– أنا معجبة باحترامكم رغبة أبي ! ولكن، (ترددت) الصمت الذي تم عليه الإجماع أو أسرار الأسرة، يجب أن يدفع أحد ثمنه !

لم أنبس ببنت شفة. انتظرت. قالت بهدوء وروية :

– ها هو المشهد الذي عشته وأنا صغيرة والذي ترك فيّ آثارا. حاولت كبت هذا المشهد طوال عقود من الزمن، غير أنه منذ سنوات قليلة ظهر من جديد وسط حصة من

حصص التحليل النفسي... تذكري : لقد اخترت، تقريبا بالاتفاق معك، هذا المحلل النفسي الذي يتحدث بالعربية أيضا بما أنه من أصل مصري.

قررت أختي إذن أن تروي ذكرياتها ! وأنا على إثرها عدت عن طريق التفكير إلى سنواتنا المشتركة : القرية نفسها، الشقة نفسها في عمارة المعلمين.

مرت ثلاث سنوات منذ أن انتسبت للنظام الداخلي في إعدادية المدينة المجاورة. هل كنت حريصة بالقدر الكافي على أختي الصغرى التي كان عمرها ست سنوات، والتي كانت تتردد، في القرية، على نفس المدرسة التي كنت أرتادها مع نفس المعلمات ؟

والحال أنني كنت غائبة تماما عن المشهد الذي روته :

– تذكري، بدأت الراوية. أتذكرين طبيب القرية ؟ كان طبيب أسرة بحق !

– كان يقدم لأبي، أتذكر ذلك جيدا، الفاتورة السنوية لمستحقاته، وكان ذلك يحصل في آخر ديسمبر فقط !

هذا التفصيل جعلني أبتسم : لا شك أن الأمور كانت تجري على هذا النحو في أقاليم فرنسا...

لاحظت أن شبح وزيارات الطبيب تريناري لم تمح (حتى اسمه تذكرته، ذلك أنه وأبي كانا يسخران من ذلك وعلى عكس ذلك، نسيت اسم مستخلفه.

– سأروي لك بالمناسبة أول زيارة لهذا الأخير، همست أختي.

انتظرت، وأنا منشغلة قليلا بذكرى هذا «الطبيب الطيب المدعو تريناري الذي لا يجرجر قدميه أبدا !» كما كان يقول أبي. كان، في نظري، صديقه الأوروبي الوحيد بالقرية، وهو الوحيد الذي قرر التقاعد في مدينتنا الجميلة شرشال !

– أعود إلى الزيارة الأولى التي قام بها مستخلف الطبيب الطيب تريناري، قالت أختي، ونظرها مصوب بعيدا. في نهاية ظهيرة، دخل أبي رفقة هذا الطبيب الشاب إلى بيتنا. وقال لي بلهجته المعهودة القاسية : «اذهبي إلى غرفتك ! لا تزعجينا : الطبيب جاء ليفحص أمك !» أمامي، قدم أبي الزائر الجديد لأمي. دخلا الصالون وانعزلا... أنا لم أعد أتذكر، يفترض أنني في تلك اللحظة كنت أنجز واجباتي المدرسية أو ببساطة كنت جالسة هادئة، بيد أن أبي قد أمر : « اذهبي إلى غرفتك» والحال أنه مع الفضول الخاص

بكل طفل، قد لاحظت بأن باب الصالون لم يغلق تماما... وبسرعة جمة، اقتربت خلسة و... (خفت صوتها) سمعت كل شيء، أو على الأقل البداية !

نظرت إليها : ما هذا السر البعيد جدا الذي يؤرق أختي التي كان عمرها أربعين سنة ؟

– السؤال الأول الذي طرحه الطبيب الجديد على أمي : «سيدتي كم لديك من أطفال ؟» .

أجابت أمي (وقد اعتراها ما يشبه التشنج) : «أربعة أطفال !». قالت أربعة ! واصلت أختي قائلة وهي تحيا من جديد مفاجأتها. قلت في نفسي مفجوعة : أنجبت أمي أربعة أطفال ولم نعد سوى ثلاثة !

استعادت نفسها وواصلت حكايتها بهدوء أكبر، ولكن فعلت ذلك بلهجة صلبة مفاجئة :

– تلقيت هذا التجلي، قالت هامسة، كضربة سيف قصمت جسدي ! قلت في نفسي غير مرة مذعورة وأنا أعود القهقرى وأصطدم بالحائط : «ولدت أمي أربعة ! أنجبا أربعة أطفال، إذن فقدا طفلا واحدا !».

واصلت أختي الحديث حزينة، وعيناها تنظران بعيدا :

– عشت حديثا هذا المشهد الذي كان بالنسبة إليّ صدمة حقيقية. أنا ابنة السادسة، كررت هذه الحقيقة لنفسي طوال الليل، وربما طوال كل الليالي الموالية : «لقد فقدا أحد أطفالهما ! إذن هما والدان سيئان. بما أنهما فقدا واحدا منهم، فسيفقدانني أنا أيضا ! سينسياني في مكان ما، سيـ... »

ثم صمتت، وخلصت إلى القول :

– هذا ما ستؤول إليه التوصية : الصمت الذي فرضه أبي على من حوله... (أضافت حالمة) : صحيح أنه آنذاك كنت أنت البكر وكذا الابن الثاني، تتوفران على حياة خاصة في المدرسة الإعدادية في النظام الداخلي للمدينة المجاورة... ثم أنا أيضا كنت أعيش مثل الطفل الأوحد.

حينئذ تذكرت، في هذه السن المبكرة، أسابيع قليلة بعد ذلك، كيف تدهورت صحة الأخت الصغرى، إذ بدأت تعاني من أزمات الربو في حين لم يسجل في العائلة أي سابقة صحية من هذا القبيل.

ابتسمت أختي بشيء من الحزن : لا شك أن حكمها بوصفها طبيبة كان قد حسم الأمر.

في خضمّ هذا الماضي المضطرب، سعت أمي القلقة، بطاقتها المعهودة، إلى عرض أختنا الأخيرة على أطباء المدينة القريبة والعاصمة. حصلت تعبئة جمة : فمن أجل صحة أختنا الصغرى تمّ إدخال تغيير تام في عطلتنا الصيفية. قلت :

– أتذكر جيدا الصيف الأول الذي تلا مشاكلك الصحية : انتهى أمر المنازل العائلية من جهة الأم حيث كنا نجد الجو المعتاد لحفلات النساء (زواج أو ختان) التي كانت تغمّسنا ثانية في سلوكيات وعادات شرشال المهذبة الراقية !

في ذلكم الصيف، أتذكر أنه من أجل معالجة صحة الأخت الصغرى الهشة (وهي التي اختارها القدر في المحصلة كضحية غير منتظرة، كي تضمن حسب رغبة

الأب، هدوء الزوجة –علما بأني أنا نفسي امتثلت لقاعدة الصمت المفروضة)، إذن خلال الصيف الأول، اكترى الوالدان شقة بمليانة، المدينة القديمة الموجودة في أعالي الونشريس.

هل في مقدوري أن أقول على سبيل الخلاصة إن الاسم الذي اختير لأختنا الصغرى يعني بالعربية «سكينة» ؟ كما لو أن أبانا لم ينشغل إلا بسكينة وهدوء زوجته وأنه لأجل ذلك، ودون علم منه، تعرض توازن هذه الطفلة المسماة «سكينة» لهشاشة جمة مبكرا.

8.
في الشارع رفقة الأب، أو لعبة المرايا

أنا أصغر مرافقة ما بين المدرسة الفرنسية وشقة العمارة المخصصة لأسر المعلمين. نمشي، أبي وأنا –أنا الظل الصغير– بخطى غير مأمونة، تكاد تفقد التوازن (ولكن أبي هو الذي يدرك الخطر) بين مجتمع «الآخرين» ومجتمع الأهالي.

ومع ذلك فإن اللغة، لغة «الآخرين»، هي التي تظل درعه، حتى وإن قيّض له، بعد الدراسة، الذهاب عند البقال القبائلي ولعب لعبة الدومينو –يوم الخميس– والعودة إلى استعمال اللغة العربية، دون لثغ حرف الراء بالفرنسية، وأحيانا بتأتأة سرعان ما يسيطر عليها.

من جهة أخرى، البقال فخور جدا بإعارة الجزء الخلفي من دكانه لشيخ الكتّاب وهو يرفل في هيئة الأسياد (توجة بيضاء كالثلج على عباءة رمادية فاتحة وستر خفيف من

الحرير الشفاف يغطي الشاش الأحمر ذا الخيوط الذهبية الموضوع على الرأس) : أذهب إلى هذه المدرسة المرتجلة المؤقتة مرتين أو ثلاثا في الأسبوع : أجلس متربعة إلى جانب بنت البقال المسماة جحيقة، وهو اسم قبائلي يبدو لي غريبا. نشعر نحن الاثنتان وكأننا أميرتان صامتتان ومتنبهتان وسط عشرة فتيان ذوي مظهر بائس أحيانا.

حين أخرج من البقالة، ولوحتي تحت الذراع، يغادر أبي لعبة الدومينو. يتركني أمشي بمفردي متقدمة إياه. لا يأخذ يدي كما في الصباح، أو بالأحرى كما في السنتين الأوليين عندما كنت أصغر سنا.

أمشي خافضة العينين. نمرّ أمام البلدية على امتداد كشك الموسيقى. ليس في الشارع سوى الرجال. الآباء الفرنسيون هم أيضا لا يمدون أيديهم لبناتهم، بيد أن هؤلاء البنات لسن خجلات من تنوراتهن المغضنة التي تصل إلى ركبتهن. أما أنا فالعكس هو الصحيح.

في الرصيف الآخر، نظرات الرجال العرب مصوبة نحوي فقط. ولكي أنساها، أردد سورة اليوم كي أرتلها على أمي عند العودة. لا شك أنها ستفخر بذلك. بعد

أسبوع سأريها لوحتي المزينة برسومي التي سأتوج بها النص المحفوظ.

ستدعو أمي زوجة القايد وبناتها الثلاث الأكبر مني سنا، اللواتي سيأتين محجبات وسيرسلن زغاريد لتكريم علمي.

في المساء، ستقول أمي بنصف ابتسامة :

– في كل حفلة من حفلاتنا، تعتقد الفرنسيات القاطنات في عمارتنا بأننا متوحشات !

سنوات بعد ذلك، استذكرت ردّها وأنا بالنظام الداخلي بالمدرسة الإعدادية الموجودة بالمدينة المجاورة. مراهقات عربيات كن يمزحن هن الأخريات حول الموضوع نفسه :

– الفرنسيون حين يسمعون أمهاتنا وهن يزغردن زغاريد حادة لا يستشفون الفرحة الثاوية فيها !

– ماذا يسمعون ؟

– زغاريدنا تشبه قليلا صياح الهنود في أفلام الوسترن الأمريكية !

هذه الخلاصة سجلتها في قرارة نفسي عشر سنوات بعد ذلك. أما الآن، في القرية، فأنا فخورة بفخر أمي،

فيما أرتل السورة على الضيفات اللواتي يغبطنني (أبوهن لم يسمح لهن بالاختلاف لا على المدرسة القرآنية ولا على المدرسة الفرنسية). تنهدن، وقلن بأنهن يغبطنني، حيث إن والدتهن -أو زوجة أبيهن (لأن القايد يطلق زوجاته بسهولة)- لم تعلّمهن إلا ما يكفي من القرآن لأداء الصلاة...

وماذا عن أبي في ذكرى هذه الأيام الخوالي بالقرية ؟ صعدنا إذن انطلاقا من دكان البقال، متقدمة أبي، بتنورتي المغضنة، بينما أبي خلفي يحيي فيما أظن الأهالي الجالسين في المقهى العربي هناك في الرصيف الآخر وسط قرية الساحل هذه. لم يمدّ لي يده بسبب هذا الجمهور من الرجال المنتمين إلى جماعته (عمال موسميون، حرفيون، بطالون). إن الرجل العربي، أب أسرة، يجب أن يمشي وحيدا، ونظرته مصوبة نحو الأطفال (في الغالب الأعم، الأطفال الذكور، ولكنني الاستثناء)، ويتقدم هو كما يفعل «القادة» الحقيقيون، بخطى هادئة.

ماذا لو كنت فتى ؟ بما أن الطفل الثاني المولود بعد وفاة الأول لا يزال صغيرا ليكون جزءا من اللوحة، ترى هل كان لمسعى الأب أن يظل على حاله ؟

أتخيلك يا أبي ثانية في الشارع المركزي للقرية، ولكن هذه المرة انطلاقا من ذكرى من ذكريات أمي. إنه لغريب حقا أن أتحدث عنك بصيغة الماضي ! هل أفعل ذلك لأنك حقا قد توفيت ؟

لو غامرت بالإشارة إليك وأنت على قيد الحياة، هل كان في مقدور أمي أن تبلور نفس الصورة عن طفولتي وهي الزوجة الشابة التي لمّا تتجاوز الثلاثين سنة ؟ لا أعتقد، فغيابك، غيابك المبرم، هو الذي يجعلها تستجيب لتذكري.

الآن، آتي إلى حوار مع أمي التي أمست أرملة حديثا، وكأنني أتقدم معها إلى ميدان بكر –لا يخرق بالنسبة إليها، وأنت على قيد الحياة. وكأنها لشدة ارتباطها بك كزوجة (زوجة ذات منزلة مجهولة لدى ذويها وأمها كما

عند أخواتها الأكبر)، كانت «زوجتك» بالمعنى التام للكلمة، أي بالمعنى الذي تتداوله الجارات الأوروبيات من معلمات أو زوجات معلمين ليس إلا، أي «النصف» الأكثر حساسية لزوج ملتحم- أمي، حتى وإن كانت تعيش معتقلة كزوجات الأهالي، تذهب ظهيرة كل يوم خميس إلى الحمام ملفوفة في الحايك الأبيض غير منشغلة بكونها الاستثناء في القرية : عبارة عن «سيدة بيضاء» متحركة ومفاجئة.

أظن أنها تعرض نفسها وهي على وعي تام بكونها «زوجة المعلم العربي» ولكن كذلك بحسبانها «سيدة المدينة العتيقة» التي احتفظت ببساطتها البورجوازية وسط العديد من الريفيين من الجهتين.

بينما أستعيد، بعد عقود من الزمن، طيفها وهو يعبر وسط القرية غير مبالية بنظرات الرجال -فرنسيين كانوا أو عربا- أعتقد بأن هذه الخرجة الأسبوعية كانت تنقاد لها بعفوية أميرة مقنّعة، وهو دور لم يكن يثقل كاهلها قط. بل كانت تؤديه بشيء من الأريحية (كما فعلت بعد ذلك بخمس عشرة سنة حين تحولت إلى امرأة غربية أنيقة في

سن الأربعين، تسافر في أرجاء فرنسا البعيدة التي عبرتها في جميع الاتجاهات بوصفها زائرة سجون).

ولئن كنت اليوم أستحضر حزم وراحة أمي الشابة في هيئة عربية محجبة بالقرية (التي تحولت بسلاسة بعد ذلك إلى غربية مسافرة) في مرحلة طفولتي الأولى –وكنت بمثابة دليلها الضروري– فلأنها كانت قد وعت هذه الوحدة ذات الرأسين التي أدركت أنها تشكلها بمعية أبي.

ولم تكن تجرؤ على الحديث لابنتها البكر، سواء في سن الطفولة الأولى أو قبل المراهقة، عن الأب، وكأنه كائن منفصل عنها (صحيح أنه منفصل عنها في الخارج، في الشارع العربي). ولكنها، عندنا، كانت قد كونت نوعا من الاتحاد الجديد حتى وإن كانت عند الحديث عنه بالعربية، تكتفي بالقول «أبوك» مشددة على سلطانه عليّ، هذه السلطة التي ورثها عن التقاليد والأعراف، بينما في قلبه ظل وسيظل الزوج، أي نصفها الآخر.

لاح في ذهني هذا المشهد بعد ذلك بكثير: أنا العائدة من الطرف الآخر من الأرض، أدخل الشقة الصغيرة الباريسية وأحتضن أمي، وقد أصبحت لتوها أرملة، فتنهار الأم القوية الصلبة، تتهاوى بين ذراعي ابنتها البكر، هذه البنت -التي يقال- أنها تشبه كثيرا الأب، وتهمس لها في الأذن بصوت صبياني (هذه أول مرة في حياتي أسمع هذه التنهيدة الصادرة عن الأم)، أجل بصوت تائه، تلقنني بالعربية بلكنتها الشرشالية:

- أترين، أنا... (صوتها اليائس يتردد، ويعثر على الصورة الوحيدة التي تنبثق منها، من قلبها وجلدها وذاكرتها)... أنا، يا ابنتي، كقطة دون قيود!

أجل لقد ندّ منها هذا الاعتراف الغريب: ها هي قد تحولت إلى قطة غارقة في الألم، ويداها أو قوائمها، لم تقل

إنها خالية من المخالب، لا : «بلا ديدات» قالت متنهدة بالعربية –«دون قيود» !

أثرت فيّ هذه الصورة تأثيرا جما : «قطة دون قيود» وكأن الأم –الزوجة الغارقة في ألم لا حدود له– تقول لابنتها البكر : «استقبليني أنا، أنا عشيقة أبيك، استقبليني كالرضيع الذي ولد لتوه !».

ضممتها ضمة أمّ حنون. كنت أودّ هدهدتها كي أخفف من روعها. انقلب كل شيء رأسا على عقب : استعادت طفولتها وتكاد تكون رضيعا، وأنا العائدة ليلا من تورنتو إلى باريس، أضمها كأمّ شابة، هي التي تصف نفسها فجأة بـ«القطة» (وكأن جلدها فجأة يطالب رغما عنه بالغائب) ! ها أنا قد عدت من بعيد كي أتحول، خلال خمس دقائق طويلة، ليس إلى بنت محزونة بل بالأحرى إلى أمّ شابة لأمي التي لم تهرم بعد. كما لو أن المأتم قد أضفى عليها مسحة من الفتوة، وكأن موت الأب قد جردها من سكينتها، لاسيما من هذه السكينة الآمنة التي نفختها يا أبي في نفسها !

لئن كنت ألح طويلا على هذه الضمة الحاصلة بين امرأتين غداة وفاتك، يا أبي (نفسك الأخير وقد غفوت وحيدا في غرفة بمستشفى باريسي)، فلأنه في نهاية هذا

الاتصال، حيث تم اقتسام الألم بيننا، أي الأم التي أصبحت أرملة بغتة، وأنا البنت اليتيمة، أدرك جدة مسارك أنت الزوج وأثرك الذي لا يمحى...

لا، ليست صورة الأب المرشد لابنته البكر هي التي ستحسب لك (يوم الحساب) بوصفها المكسب الأساس. بل ما هو أكبر، كونك تزوجت وفق تقليد مدينتك العتيقة، أخت صديق العمر، البنت المدللة للأسرة الأكثر نبلا في المدينة، التي زفّت مع ذلك لـ«نجل الفقير»، أي العامل البسيط، صحيح أنك قدمت ما يشبه الصداق -بصفتك خاطبا- معرفتك اللغة الفرنسية وهي ضمانة مستقبل آمن، وعلى خلاف زملائك من نفس الزمرة الاجتماعية ورغم فظاظتك، أقمت في نوع من السرية ودون مرآة، مساواة فعلية مع زوجتك الشابة -ثم زوجة أقل شبابا، وهي منذئذ أرملتك التي بكت في ذلكم الصباح حبا للزوج العاشق، «نصفها الآخر»، هذا ما كان يفترض أن تقوله جاراتها الأوروبيات في القرية. هذا المسار أعيد استذكاره من خلال صورة واحدة- بدت في العربية الدارجة شعرية.

وبدل أن أسمع : «لقد ذهب صديقي وتركني»، أصغي ثانية لأمي وهي تردد : «أشعر أني قطة دون قيود». وفي

ثانية خاطفة، تلاشى بريق الشبقية الثاوي في الكلمة الثالثة في عراء «دون قيود». لقد شملني بعنايته وأعطاني القوة وذهابه تركني... «دون مخالب» ؟ كلا. «دون قيود !» كي أحسن المداعبة ؟

شيء منها (من جلدها أو قلبها) صرخ : «بْلا ديدات» -كان في مقدورها أن تخلص : دون أيدٍ من أجل المداعبة أو من أجل إمساك الأشياء أو لإمساكِ النفس !- وأحسست بأني أنا وحيدة قد أمسيت شيئا ما ظل زوجها الذي لم يدفن بعد : «خذيني في أحضانك، أعيدي إليّ -لأنك تشبهينه- بعض قوته أو حتى بعض حضوره !».

فكّرَت في ذلك بالكاد (في تلكم الضمّة، وعيناها مغمضتان وخاليتان من الدموع، مشدودة نحوك فقط أنت الذي كانت تبحث عنه)، خيّل إليّ أني سمعتها تقول : «ردّي إليّ رقته !».

ذلك –علما بأني لا أحدّث إلا نفسي هذه المرة– أن أبي كان لطيفا رقيقا، في غرفة الزوجية، رقيقا وفظا في الوقت ذاته !

9.
غرفة الوالدين

في نظر الطفلة التي كنتها، في القرية الاستعمارية، كانت الغرفة وأثاثها المصنوع بالأكاجو الغليظ ذي الطراز الأنيق 1920، وغرفة النوم الكاملة بسرير واسع ومنخفض، مشتمل على إطارات عالية عند الرأس والرجل، وطاولتين صغيرتين والخزانة الهائلة ذات ثلاث مرايا كبرى، جزءً لا يتجزأ من أحلامي الأولى العديمة الشكل والغريبة في أغلب الأحيان، حيث كانت الكرات النحاسية المزينة لزوايا السرير الأربع تلمع دون توقف، وهي الكرات نفسها التي كانت تعكسها المرايا حين أستيقظ قبل الفجر في سريري الصغير المجاور، وحين كانت أمي، وهي تقوم متثاقلة، تخرج من الغرفة حافية القدمين كي لا تزعجنا : أنا وأبي النائم في الطرف الآخر من السرير الواسع.

إذن أنا ابنتهما الوحيدة. نمت في هذه الغرفة إلى غاية ميلاد الابن الأول الذي سيتوفى مبكرا والذي لا أحتفظ له بأي ذكرى.

سريري ضيق وعميق مع إطار معدني مدهون باللون البني الفاتح. حين ألتحق بجدتي من أبي كي أنام بجانبها في الصالون، في هذه الشقة الموجودة بالقرية، أكون قد بلغت ثمانية عشر شهرا. هكذا كانت ذكراي الأولى سمعية وليلية.

أنام. أنام كل مساء قبالة المرايا الكبرى في خضم الظلام... بعد ذلك بقليل، أي بعد انقضاء نصف ساعة أو ساعة برمتها وأحيانا أكثر، بشكل منتظم للغاية، بل أقول كل ليلة (كذكرى أولى لإنسان، حتى لو من غير كلام، وببصيص وعي غير مدرك، شعلة شمعة تترنح على خلفية عتمة، ظلت تلك الذكرى متشبثة كعنكبوت راسخ في ذاكرتي الهشة)، إذن كل ليلة سرعان ما أنام: أتوغل، أغرق.

تنقضي نصف ساعة إذن أو ساعة وربما أكثر. وبشكل منتظم، وفي كل ليلة، يهزني ضجيج صوت بعيد وقريب في الوقت ذاته.

أتذكر لا استيقاظا بل بالأحرى صداعا جعلني أتصدر الساحة : هكذا الليلة تلو الأخرى، من غفوة شبيهة بالوحل صعب عليّ التخلص منه.

ليال متتالية لرضيع عمره ثمانية أشهر. صوت أو صوت ثنائي ووشوشة قريبة وبعيدة في نفس الوقت، كأنها آتية من الأعلى، ومن بعيد، ولم يعاود البروز إلى وعيي إلا سنوات من بعد : هذه الاستفاقة مع ما تحدثه من اضطراب، حتى في سن مبكرة، كانت تكتسي آنذاك طابع الجرم الحيواني إن صح القول. وكأنه كان عليّ ألا أصغي لشيء قط ! كما لو أن محظورا عظيما وجدارا من غيوم وليل قد قام بين سرير الوالدين وسريري النحاسي الصغير. لذا امتنعت عن فتح العيون.

يتعين علينا إذن أن نغرق في الظلام الدامس ! لا أدري ما يجري حولي. إنها نوع من الموسيقى وأنين لا شكل له، ولكنه أنين ينمّ عن المتعة (لا أعرف الكلمة الدالة، ولكني أحس أن الأمر كذلك).

لا أعرف ما إذا كان هذا الضجيج –وهو شبيه بصوت سيلان الماء– صادرا عن الوالدين، أم أن الأمر يتعلق بأنين وحيد قد استولى على الغرفة كلها. لكن الرضيع المستيقظ

الذي لا يكلف نفسه سدّ الأذنين (لا أجرؤ على الحركة) يعلم، وإن بشكل غامض، بأنه دخيل ومزعج، عليه أن يكتفي بالبكاء أو التأوه أو التظاهر بأنه في حاجة إلى حليب الأم. لقد انتشرت هذه الخطورة في كل مكان !

يجب عليّ ألا أتحرك، أجل لا ينبغي ذلك، وعليّ بالأحرى أن أعود إلى سواد النوم !

الموسيقى الصوتية متواصلة، ثم تبتعد لحظة ولا تتوقف —الأمر الذي يضاعف من صداعي. أخيرا تمكنت من الغط في النوم من جديد، إما لأن الهدوء هناك قد عاد، أو بسبب الإعياء. ثم خيّم الصمت : بجانبي تنفّسان شبيهان بوشوشة.

الغريب لا يكمن في استيقاظ رضيع عمره عشرة أو اثنا عشرة شهرا أو أقل. بل الغريب أنه بعد ذلك بكثير، حين أصبحت بدوري زوجة (في حوالي اثنتين أو ثلاثة وعشرين سنة) أمام رضيع (ليس برضيعي)، شعرت بالتقزز :

قلت في نفسي : «يجب على الرضيع، مهما كان صغر سنه، ألا ينام بالقرب من سرير الوالدين !».

لاحت في ذهني الذكرى : وجع بطيء وعديم الشكل لأني سمعت أمرا ما فيما مضى رغما عني ! أنا مقتنعة أيما اقتناع، بعد هذا الزمن من النسيان لوعيي المبكر، بأن كوني سمعت هذا النشيد الطويل لمتعة الحواس (قلت في نفسي جازمة : هذا صوت أنثوي) أجل بعد الوقت كله، كون ذاكرة الرضيع الذي كنته قد انغلقت مثل محارة على جوار مزعج –الذي أخجلني أنا الرضيعة–، والباعث على الدهشة ليس العفة الصردة التي ابتعثتها، بل استمرار الذكرى النائمة كالماء الجوفي في أعماقي، هو بمثابة أثر لا يمحى للذّة شبيهة بفاكهة.

بعد ذلك وعلى نحو بطيء خلال السنوات الأولى من حياتي الزوجية، اختبرت دون علمي –ولكن دون ذوبان، نقلا من امرأة إلى أخرى : هكذا زودتني أمي، التي كانت في الماضي زوجة شابة عمرها تسع عشرة سنة أو عشرون سنة، بكمال المتعة الجنسية الهادئة، على غفلة مني.

وها أنا اليوم أعرب لكما عن امتناني وعرفاني.

.II

تمزيق المحجوب

من ذا الذي، في أذني، يُصغِي إلى صوتي ؟
من ذا الذي ينطق بكلماتي من فمِي ؟
من ذا الذي في عَيْنَيَ يستعير نَظرَتي ؟
ماهي هذه الروح إذن التي أنا لباسها ؟

ديوان شمس تبريز (من القرن الثاني عشر)



.1
السيدة بلازي

ترى، أنّى لي أن أروي عن هذه المراهقة حيث يتسع العالم الداخلي، من عشر إلى سبع عشرة سنة، فجأة بفضل الكتب والخيال الذي أمسى مرنا متدفقا وسماء هائلة واكتشافا تلو الآخر وقراءات لا تنتهي، فالكتاب هو كائن (المؤلف) وعالم (في مكان آخر) في الوقت ذاته، وزخم داخلي تعبره سيول طويلة هادئة حيث تتبدى المطالعة بمثابة انغماس ومغامرة لا تنتهي والأفق حيث يتمزق ويتقهقر حتى في قاعة الدرس للنظام الداخلي لبنات يرتدين جميعا مآزر زرقاء، علما بأن مئزري ذو جيبين ممزقين يتثاءب، في أحدهما كتاب على اليمين، وفي الآخر كتاب على اليسار.

وها أنا أقول اليوم أيضا بعد عقود من الزمن هذه الكلمات : "بو دو لار".

بعد المقطع الأول، ارتفعت الصورة ببطء : أصابع طويلة ذات أظافر طويلة كذلك ولكنها ذات لون أحمر قان، يدا امرأة مضمومتان في حركة واحدة... للدعاء ؟ للهبة ؟ أبصر، لم يسبق لي أن رأيت أظافر حمراء طويلة على أطراف أصابع دقيقة، وها أنا أسمع صوتا عائدا يعبر عقودا عديدة، صوتا حذرا جهورا به لكنة لم أكن أتعرف عليها آنذاك، ولنقل بأنها لكنة لدى هذه المرأة الطويلة والنحيفة –ولكن يديها هما اللتان جعلتاني أتعرف عليها ذات يوم في مدينة بلوا، بعد مرور ثلاثين سنة على الأقل، بالضبط قبل أن أرفع عيني إليها، هل يتعلق الأمر بظهور امرأة طويلة، كلا إنه الصوت الذي وشم فيّ للأبد كما في المرة الأولى صورتها، هي التي عرضت عليّ البيت الشعري الفرنسي الأول، أنا المتعودة فقط على تلقي آيات القرآن : ببطء مهيب وخشوع موسوم بعض الشيء وزخم هادئ متأجج عند وقوعه.

إن صوت السيدة صاحبة الأصابع الطويلة المضمومة التي كان عليها، في نظام داخلي آخر، مصاحبة (أفترض ذلك الآن) تحية مريم العذراء أو صلاة الأموات أو صلاة العشاق، هذا إن وجدت مثل هذه الصلاة، قلت إن صوت

السيدة بلازي، الفرنسية الأولى التي أهدتني هذه الهبة عن طيب قلب وخشوع كما لو فعلت ذلك للقسم الصامت برمته، قسم السنة السادسة للآداب الكلاسيكية. التزمت البنات الصمت بسبب الحركة أو بفضل الصوت وبطئه ولكنته الخفيفة، أما أنا الجالسة في الأمام أو في الصف الثاني (لم أعد متأكدة إلا من حركة اليدين المضمومتين في شكل هبة، كما في طقس من الطقوس المفاجئة)، أنظر حولي وأصغي، وقلبي يخفق خفقانا، أتلقى الهزة الأولى، بل أكثر من هذا : صدمة تحرثني حرثا.

سيقيّض لي الاستماع غير مرة، بعد ذلك، إلى صوت هذه المرأة ذات الأظافر الحمراء والوجه النحيف، والتي تحوّلت فجأة كاهنة وراحت تؤدي قداسها في خضم صمتنا جميعا وقلبي الذي يخفق بشكل خافت :

إيه بنيتي وأختي
اصغي إلى الرقة

وبطريقة مفاجئة تلقيت «الدعوة إلى السفر»، بل أكثر من هذا : الدعوة إلى جمال الكلمات الفرنسية، بل أكثر وأكثر : الدعوة إلى التنفس الخافت تحت الكلمات، وهو الإيقاع الذي بالكاد يجعل هذا الصوت المجبول بالبطء

والمراسم، يترنح. تلقيت هذه الأبيات ببطء في البدء كما لو أنها ترتجلها بدافع معجزة مفاجئة من خلال انبجاس لطيف –ولكن بعد ذلك، كما الضربة المسلطة على الصدر... حملقت في الأصابع الطويلة والغريبة وها أنا بدوري أنحرف إلى جهات أخرى كما في الماضي، في حوالي أربع أو خمس سنوات حين يرتفع بالإذاعة العربية صوت صداح يرتل بعض آيات القرآن الكريم ما يلبث أن يتصاعد إلى الأعلى في شكل دوائر وأنا في هذا القسم الإعدادي، أنسى بأنني مختلفة بالنسبة إلى زميلاتي، من خلال اسم أبي الطويل واسم فاطمة هذا الذي يبجّلني لدى ذويّ والذي ينقص من شأني هنا في قطر «الآخرين» الذين يتظاهرون باستقبالنا، ولكن من قفانا كما يظنون –حول ماذا تدور هذه القصيدة البطيئة لبودلير (ولكنني أستبق، لم أسمع بعد أحدا تلفّظ باسم الشاعر)، بالكاد أتحسسها، سألمسها بالإصبع والأذن : أصبت بتأثر جم لما أدركت أن الجمال واحد ومتعدد، وبأن الآية القرآنية لها سجعها و... وأنا أستمع، أشعر بأني في القسم وخارجه في الآن نفسه : كشيء قد أخذ في الاتساع وتمزق وكبر، السماء في الأقاصي وهذه التي تنهي القصيدة، التي كانت بالنسبة لي طويلة، قصيدة طويلة جدا، لا آية، دعوة.

«دعوة إلى السفر» هكذا كانت تقول، ثم قالت بعد ثانية من الترقب ...

– شارل... بودلير.

فصلت اللقب عن الاسم. كادت تضيع نفَسها خلال هذا التوقف القصير. كلا، دون تردد ودون أن يعتريها الفشل، نطقت، بالعكس، باسم الشاعر نطقا متناغما متجانسا. رفعت عيني صوبها. حملقت فيها طويلا، والموسيقى لا تزال ترنّ في أذني ثم تلاها صداها.

أتذكر المشهد وصدمتي الجمالية الأولى أي التامة، ولكن «عندهم» هناك حيث تم رفض استقدام أستاذ العربية «لي وحدي» («من أجلك فقط ! التلميذة الوحيدة !») صرخت المديرة من شدة الاستنكار، هذه المديرة التي تجشمت التنقل لأني أعربت عن اندهاشي، ثم بعد أن رفعت إصبعي لأدلي بمطلبي : «بوصفها اللغة الأجنبية الأولى التي يمكنني اختيارها، أود أن أتعلم عن طريق الأدب لغة أمي وأجدادي –من خلال شعرائها ونصوصها القديمة، وليس كما في القرية حيث كنت أتردد على الكتّاب حيث كان القرآن يستظهر عن ظهر قلب ومن ثم دون فهمه حق الفهم !»).

لم يكن عمري قد بلغ إحدى عشرة سنة، رحت منذ الدرس الأول أورد حججي واقفة بصوت صلب، عاقدة العزم على الإعراب عن خيبتي (صحيح أنني قلت لا يمكن أن تكون العربية «لغة أجنبية» ولكن...). صرحت لي مديرة الإعدادية -التي كنا نسميها فيما بيننا «العاشرة وعشر» جراء مشيتها، وطريقتها الآلية في التقدم- وهي التي كنا نصفها بصوت خافت بـ «الشيوعية» والتي طردها نظام «بيتان» سنوات قبل ذلك من وظائفها، هذه السيدة إذن المكللة بماضيها بحسبانها مضطهدة، ها هي تصرح لي بقوة بأن طموحي في تعلم لغة أمي «تعلما أدبيا» لا يبرر قط استقدام أستاذ لي وحدي...

- ستدرسين الإنجليزية، قالت باتّة في الأمر، وهذا يصدق على زميلاتك! وإلا أعدلن عن اللاتينية والتحقن بالسنة السادسة آداب حديثة، حيث ستجدن فيما أظن ثلاث أو أربع بنات مثلكن قد اخترن العربية... الأدبية!

شددت على الصفة، وكأنها تشكّ في إمكانية وجود مستوى آخر من هذه اللغة لـ «الأهالي».

ثم حيتني «العاشرة وعشر» وهي ترتدي الأسود كالعادة، بطريقة تكاد تكون عسكرية، قام طيفها بثلاثة أرباع دورة

لمغادرة المكان، في حين عاودت الجلوس متصلبة، ذلك لأن طلبي الخاص جدا ظل عالقا بي، لأني كنت على وعي بأني لم أهتد للحجج المناسبة، ولكن كيف السبيل إلى فهم كون زميلاتي المكنيات «الأوروبيات» رغم ميلادهن في البلد مثلي، كن جاهزات لتعلم جميع لغات العالم، بما فيها اللغات الموصوفة بـ «الميتة» (كنا نعرف مسبقا بأن أحسن تلميذات القسم، بعد سنتين، سيخترن دراسة اللغة اليونانية الكلاسيكية –مع ذلك كنت الوحيدة التي تعرف المثل العربي الذي تتناقله حتى قرويات أميات والقائل «إن كانت العربية لغة الخالق» لأن محمدا سمعها من جبريل في غار حراء، فإن اليونانية هي «لغة الملائكة»)، بيد أن هذه الفتيات لم يكن يسعين قط إلى فهم اللغة المستعملة خارج المدرسة من قبل تسعة أعشار الساكنة ! حتى أنا لم أتطارح السؤال وكأن الحقبة الاستعمارية حيث كنا نحيا قد خدّرت فيّ الاندهاش الذي كان من المفروض أن يكون نصيبي أمام صمم زميلاتي حيال لغتي الأم.

بعد هذه العودة الطويلة إلى الخلف، لنعد إلى قصيدة بودلير. لم تلقها السيدة بلازي ولا استظهرتها بحيث تؤثر فينا بشكل من الأشكال، بل تركتها تنساب ببطء كنبيذ

العسل. كنت دون شك البنت الوحيدة -«الأهلية»- التي أثر فيها أيما تأثير الإيقاع والموسيقى وصفاؤها والصور الآفلة القريبة جدا المداعبة لي تقريبا، ومع ذلك فهي آتية من بعيد. أنا البنت ذات العينين المرفوعتين نحو العرافة ذات اليدين الطويلتين والأصابع المضمومة، ودون أن أصرف نظري عنها، أحسست بأني منغمسة في هياج واضطراب يتعذر عليّ تحديده بـ «الجمالي» : وها هنا تحديدا كان ولوجي الصامت، ولكنه رائع في سهل من التأمل -كان ذلك دخولا بطيئا وغير مدرك إلى عالم لا واقعي أخّاذ جدا بحيث إن جسدنا (عيونا، آذانا، أصابع تريد لمس الإيقاع، أرجلا تكاد تنحرف، وتتيه دون هدف) بل جسدكم أجل، ولكن كذلك قلبكم ألفيا نفسيهما لاهثين دون إدراك السبب.

خفضت عينيّ. لم أكن أنطوي لا على كلمات أو جمل. بيد أنه انطلاقا من هذا «المنطوق» الأول، وانسياب صوت هذه المرأة، بدا لي أن تواطؤا ما قد حصل : منطقة على حدة، سيالة ولمّاعة -حيث سيأتي بعد ذلك شعراء وشاعرات آخرون ينزلقون كأطياف هاربة ستصبح أيضا مألوفة بالنسبة إليّ كألفة الجدة من أبي التي طالما بكيتها.

ما طمأنني بعد ذلك -بفضل بودلير والسيدة بلازي دون شك- هو اليقين بأنه في هذه الدروس التي ستمتد على السنوات الست القادمة، لن يكون هناك اختلاف، رغم المظاهر، بيننا نحن «الأهليات» (عشرون بنتا من ضمن مائتين) من جهة والأخريات من جهة أخرى، «الأوروبيات» أي الفرنسيات والإسبانيات أو المالطيات، ولكنهن يعتبرن جميعا «من الجهة الأخرى». لا، ليس عالما مقسما إلى قسمين في هذه الشرنقة التي تمثلها السنوات التي قضيتها ضمن أقلية البنات العربيات أو القبائليات -علما بأني لم أكن أتكلم البربرية، بل العربية والفرنسية.

هذا التقسيم كان، والحق يقال، قائما (بعد فترة طويلة، ذكّرتنا بعض مشاهد المطعم بذلك بقسوة).

وعلى خلاف ذلك، أحسست منذ السنة السادسة هذه ومنذ هذه القصيدة الأولى الملقاة صوبي من قبل السيدة بلازي فيما يشبه هبة من النور -من خلال أدائها المسرحي وخشوعها-، أجل أدركت أن عالما آخر يحلق فوقنا، عالما يمكنني أن أدنو منه بواسطة الكتب الواجب التهامها، وبواسطة الشعر بشكل آمن -على الأقل حين يتركك تنفذ إليه بغتة مثل طيران عصفور في الأفق. وأنا التي سأصبح

عضوا وحيدا شرسا في النظام الداخلي، أمسى هذا الفضاء فجأة أثيرا عجيبا –منطقة تعشش فيها جميع الأحلام، أي أحلامي وأحلام رفيقات أخريات...

في مقدوري أن أشعر هناك في الأعالي بالحماية كما كان يحصل لي قديما في الليل في سرير البنت الصغيرة التي كنتها، بفضل أدعية مامّا الليلية، هذه الجدة الحنون المفقودة التي كانت تبدو لي أحيانا بجواري في سرير المرقد تداعبني وتدفئني برقة يديها وتتحسس رجليّ الباردتين.

.2
أسفاري الأولى، وحيدة...

في هذه السنة الأولى، يوم كل سبت، بعد تركي المئزر في درج القسم، كنت أجتاز على الساعة الرابعة بوابة الإعدادية الكبرى. في بعض الأحيان، كنت أحبذ المرور برواق مظلم يفضي إلى قاعتي استقبال هائلتين جدا مع ما يزينهما من أثاث مصنوع من الأكاجو يجعل هذا المكان الفاخر ملمعا يضيء المكان الدافئ رغم فراغه. وبمجرد خروجي كنت أكتفي باقتفاء الشارع الأول الحافل –شاحنات وأحيانا عربات أو مركبات ذات مقاعد تجرها فرس آتية من الضواحي (وسط خليط من الضجيج وصراخ الحوذي عبارات مصوغة بفرنسية رديئة ممزوجة بالعربية أو البربرية)–، كان قلبي يخفق خفقانا، وكانت هذه الجلبة تبعث على الدوار. كنت أتقدم بتأثر وكلي حرص على ألا أتيه، ولم يكن في حوزتي سوى نصف ساعة كي أصل إلى

الحافلة. ومع ذلك كانت هذه الأصوات الصاخبة تحلق بي تحليقا.

بعد قطعي قرابة عشرين مترا، ألقيت بنظري على الجهة الأخرى حيث كانت تمتد أمامي الكتلة الدائرية الهائلة (لسوق الخمور) ذات الأطراف الهادئة والمنطفئة تقريبا في هذه الساعة. كنت أمشي بخطى منتظمة، خطى بنت رزينة ومحفظتي الثقيلة على ذراعي. بالقرب من مفترق الطرق، كان يكفيني أن انعطف صوب اليسار كي أجد نفسي في شارع أوسع محاط بشجر الكستناء. وكان هذا الشارع أكثر حركة لأنه يفضي إلى المحطة التي تتجه إليها شاحنات كبرى وكنت ألاحظ في كل مرة، الآثار التي لاتزال قائمة لمركبة «المشلين» القديمة، التي كانت على ما يبدو، تصعد فيما مضى نحو قلب المدينة.

كنت أتقدم وعيناي منخفضتان تقريبا، بيد أنني كنت بالمرصاد. أخيرا اقتربت من محطة الحافلات التي كانت تقلع الواحدة تلو الأخرى وتخرج ببطء في كلّ ساعة من المدينة كي تعبر بعد ذلك قرى المتيجة على الأقل إلى غاية «مارينقو» وما يليها.

حينئذ، أمسيت أقل قلقا، بل تغريني فكرة الوقوف على حافة الرصيف والمكوث هنا بقصد التأمل : من يتوجه نحو المحطة ومَن مِن بين الممتطين هذه السيارات مختلفة الأشكال سيذهب بعيدا، أي إلى غاية الجزائر العاصمة. ومَن مِن بين القرويين الذين يسوقون عربات مبتذلة بذراعهم أو التي تجرها بغال، سيتوقفون في الساعة الموالية أمام مزارع لم أرها من قبل. أعلق حينئذ خيالي : أراني قد وصلت إلى بر النجاة، ولا يتعين عليّ الإطالة !

الساعة الآن تشير إلى الرابعة والنصف. قضيت أقل من عشرين دقيقة لقطع مسافة خمسمائة متر من مشيتي بوصفي طالبة حرة ولكنها حذرة وأحس بالسعادة، وإن بدون تسرع، لكوني سألتحق بمنزل الأسرة حيث تجري الاستعدادات لاستقبالي...

فكما ألاحظه اليوم، بينما أعيد استحضار مشيتي كل يوم سبت مساء، وعيناي مفعمتان بجلبة الحشود التي تحمّسني، بأني «بنت عاقلة». دخلت إلى مكتب شركة الحافلات (في المرة الأولى، اضطر أبي إلى مرافقتي وأوصى خفية أحد الموظفين الأهليين من معارفه بأن يساعدني) ثم أخرجت نقودي وبالكاد همست باسم القرية التي

ترعرعت بها، ورحت أستعدّ للالتحاق بمكاني («جالسة» قال لي الموظف مؤكدا، وفي الصفوف الأولى لأن الخلف مخصص للرجال والفلاحين أو العمال –وهذا حتى لا يتم إزعاج النساء القليلات أو البنات مثلي...) كان عليّ أن أنتظر بعد ذلك في الخارج أمام الحافلة –التي وصلت بعد تأخر طفيف ثم تمت مراقبة الحافلة وهي فارغة وكنست ونظفت لاسيما في الخلف. أخيرا عندما فتحت الأبواب صعدت النساء أولا –إسبانية بوشاحها الأسود وقبعتها وامرأتان محجبتان كما الحضريات مخضبات العيون ولكنها مخفضة، وأنا الأخيرة، البنت الخجولة متصلبة الهيئة. بعد جلوسي في الصف الأول أو الثاني، وبعد أن تأكد الموظف الذي يعرف أبي من مكاني (دون أن يحدثني ولكنه اجتهد أيما اجتهاد كي أتعرف عليه)، أخذت في ملاحظة الزمر الأخرى: الفلاحين البربر في عباءاتهم المتّسخة، على رؤوسهم أحيانا قبعات من تبن أو من صوف. ألاحظ أن لبعضهم شوارب طويلة ومقوسة ما يسبغ عليهم مظهر المحاربين أو قطاع طرق مزيفين. كانوا تقريبا آخر من صعد بهدوء مهيب. تلاهم بعض الموظفين ذوي المظهر الأوروبي يرتدون بدلات –كانوا يتكلمون أحيانا بالعربية وتارة بالفرنسية الجزلة التي تتخللها لكنة. يوصفون

بـ«المتحررين»–، أعرف بأنهم –كما هو الحال بالنسبة إليّ– سيجدون في انتظارهم في القرى الكبرى أناسا عند نهاية المسافة. بعض أيام السبت، كان من ضمنهم «ذوو البشرة البيضاء» : أحدهم يضع قبعة على الجانب، والآخر، وهو يتأهب للالتحاق بمكانه، يأمره المراقب بإطفاء سيجارته بمجرد الانطلاق. أما أنا، فأدير رأسي، وألصق أنفي بالزجاج، ولا أكلّ من النظر إلى الوجوه والملابس واللهجات المختلفة لذلك الحشد الذي بقي خارجا، ومن بينهم من جاء فقط لمرافقة أهله.

فجأة عدلت عن السفر، لم أشبع من هذا المسرح المرتجل : فضوليون جاءوا للتوقف هاهنا، ونساء من عامة الشعب ينتظرن وجهات أخرى وكأنهن هنا منذ الصباح، حجابهن المصنوع من الصوف يكشف صدرا مكتنزا وخصلة من الشعر الأشقر. قلت في نفسي : هؤلاء النساء قد لا يذهبن. فهن موجودات هاهنا كما في الفرجة : جعلني صبرهن وتعب قسماتهن أتأمل حياتهن. ماذا ينتظرن ؟ ربما هناك شخص ما سيأتي ليقدم لهن المال الضروري لاقتناء تذكرة السفر ؟

أخيرا انطلقت الحافلة. خلال المدة التي استغرقها السفر وهي ساعة، سمّرت أنفي على النافذة، إذ كنت حريصة على ألا يفوتني أي شيء من المنظر والسرعة والسماء التي تأخذ في الاحمرار قبل الليل. شيئا فشيئا، لفّني الليل قبل وصولي.

حين ضاعفت الحافلة سرعتها بعد أن قطعت ضواحي المدينة، رحت بنفس الحماسة أتأمل المناظر المتعاقبة التي تبدو وكأنها تقف أمامنا إلى حين تضاؤل ضوء النهار الذي أتخيله يسحب نفسه خلفنا مختالا، وهو يلف بأشعته المتوحشة هذه الحافلة العنيدة ذات المحرك المتحشرج.

بعد ذلك أراني أنتظر دنوّ أول ضيعة حيث قلما نتوقف -بيد أن الطريق بعد مفترق أو مفترقين، انقسمت إلى مقطعين، وكما جرت العادة، يحدوني الأمل في أن نسلك الطريق الأخرى الملتوية الصاعدة إلى الأطلس القريب والمخيف، طريق تبدو لي مخصصة للمغامرين. ولكن ها نحن قد عبرنا هذه الضيعة ببطّاليها الجالسين على الرصيف والأطفال الشحاذين الذين ينظرون إلينا بصمت.

في القرية الموالية، استغرق توقف الحافلة ربع ساعة (أنزل المراقب حزما من البريد والطرود المختلفة) : ألاحظ كل شيء وكدت أنسى بأني ألتحق بمنزل الوالدين وأتيه في

فرجة العالم : إنها قرى أكتشفها دون أن أحلّ بها أبدا، وهذه الحشود من الناس والأطفال المنقسمة إلى نوعين بل حتى إلى أماكن : المقاهي العربية المكتظة والصاخبة من جهة، وفي الرصيف الآخر أحيانا في وسط الضاحية أمام الساحة بكشكها، و العديد من الحانات الأوروبية بمرايا عالية جدا ترتقي إلى بداية القرن، وثريات تبهرني.

يسود وسط زبائنها نفس التميز : من جهة الفلاحون العرب جالسون أو ملتحمون في الغالب، ومن جهة أخرى الأوروبيون بعضهم يرتدون بدلات وقبعات مستديرة على الرأس، وقلة يرتدون الكاسكيت التي توضع خلف الجمجمة. البعض الآخر يبدو بدينا، ويجلس خلف كأس الجعة أو الأنيزات، ويلعب لعبة الأوراق في أغلب الأحيان... حركاتهم عصبية، يبدو وكأنهم يتجاذبون الحديث أو يأتون حركات مختلفة، ولكنني أرى دائما صورهم في مقاطع صامتة. بعيدا، هناك أناس آخرون واقفون، رؤوسهم منحنية يمعنون النظر في الأرضية : إنهم لاعبو الكرات الحديدية. يبدو لي مظهرهم غريبا من حيث وضع جسمهم الكهنوتي.

عند كل توقف، ينزل المراقب لمدة دقيقة أو دقيقتين معلنا عن اسم القرية، هي غالبا أسماء مدن أوروبية حيث انتصرت الجيوش النابليونية قبل قرن ونصف، بينما يخصص لها الأهالي أسماء القبائل المجاورة.

في ذلكم العهد، لم يكن يدهشني كون هذه المحطات تحمل اسمين مختلفين تماما –أحدهما آت من البلد، والآخر لا ينتمي حقا إلى فرنسا– : غير أني أعدت التفكير في الأمر بعد سنتين أو ثلاث، حين تبلور بالنسبة إليّ برنامج التاريخ...

أنا التي أنظر إلى الخارج وأسمع صوت المراقب الجهور، أحس وأن كل شيء ليس واقعيا حقا، ومرد ذلك أنني هاهنا أسافر بمفردي وأني من علياء مكاني أهيمن في صمت على هذا العالم من القرى المجتازة وهذه الشوارع المأهولة بالرجال فقط المنقسمين دائما إلى مجموعتين : «الأوروبيين» والآخرين، أو بالأحرى لا أقول لنفسي هاتين الكلمتين الأخيرتين، لأن هؤلاء «الآخرين» هم في الواقع «أهلنا» أو «ذوونا» –هكذا كان أبي يتحدث حين يخاطبني بالفرنسية بصدد «الأهالي» كما يسميهم زملاؤه.

«ذوونا» : أكرر إذن كلمات أبي وأنا ألاحظ «زمرنا» من حيث وجهها الأكثر بؤسا، بيد أني أشعر بأنهم –على الأقل بالنسبة إلى بعضهم ذوي الثياب الرثة في غالب الأحيان– يحتفظون بمظهر سادة قدامى أفلسوا وندموا. في السنوات التالية، طوال هذا المسار الطويل نفسه، يوم السبت مساء، سمحت لي الفرصة للتساؤل لِمَ هم يبهرونني، مع ابتعادي عنهم، لا لأني بنت أبي –«بنت المدرس» كما يقول أهلي تحديدا في قريتنا–، قلت لأنهم يلفون أنفسهم داخل برانسهم كما في بدلات الركح أو الخشبة المسرحية، أو بالعكس، لأني لما أشاهدهم يجلسون القرفصاء على الأرض مباشرة، وهم يثنون رجلا ويضعون مرفقا على الركبة في كسل، لا أدري، إن كنت أنا، كما يرونني (والحافلة متوقفة)، أو وجهي ذي العينين الحادتين المضموم تقريبا الى زجاج الحافلة، الذي لا يكاد يرى، هو الوحيد الحقيقي، وهم، تلك الجماعات البروليتارية الجامدة، قد تحولوا في نظري إلى لوحة عابرة، رسمت في لمحة برق، أو مستمرة في سكون زمانها.

ها أنا أدنو أخيرا من قريتنا. في فصل الشتاء أجدها قد غرقت في ليل دامس حالك. ما إن انفتح باب الحافلة حتى

كنت أولى الخارجين وانتصب أبي أمامي بخطوة واحدة، مادا يده لي ومبتسما. قال مطمئنا :

– جيد وصلت الحافلة في الوقت !

في كل مرة أدرك بشكل غريزي بأنه لا يجب أن أرتمي في أحضانه : فنحن بالخارج أمام الملأ. والحال أنه عند «ذوينا» لا نقبّل وجنتي الأب (علما بأن أبي لا ينحني). كلا إن الفتيان في القرية يقبلون بخشوع مبكر وباحترام ظهر يد الأب –هذه اليد الممدودة بشكل ظاهر. أما أبي فقد يستشعر الغثيان إن تجرأ أحد على توجيه هذه الحركة له لأنها تنمّ في رأيه عن الخضوع. كيف علمت ذلك ؟ لا شيء تم التفكير فيه مسبقا في بروتوكول الأسرة، ما عدا أن كل واحد منا منذ نعومة أظفاره عليه أن يراقب جيدا حركاته وتحية الصباح كما تحية الوداع : كل شيء مقعّد وموضوع سلفا ولاسيما في حالتي، في سن إحدى عشرة سنة، فاثنتي عشرة سنة، يتعين عليّ في الخارج أمام الملأ –أي جميع الفرنسيين ككتلة واحدة و«ذويّ»، أولاد ورجال فحسب، –فصيلة الذكور مجتمعة– أبدو أنا حينئذ، ومن الوهلة الأولى، كاستثناء، أنا صاحبة المظهر الأوربي دون أن أكون كذلك.

أن ألجم حركاتي حتى وإن كان الشارع خاليا بالمصادفة.

هكذا إذن من المشين مثلا أن أقف على أصابع رجلي كي أقبل بحنو أبي وسط فوضى مرتجلة وفائضة على خديه، مرة، مرتين، أجل، كقبلة عصفور !

في الواقع، لم يمنع ذلك عليّ بشكل صريح، ولكن أبي، أمام الآخرين، لا يحني أبدا هامته كي تتمكن ابنته من تقبيله كما يفعل عصفور البرقش أو القبرة، ما همّ : فهذا التفاخر قد يعدّ أمرا مشينا وطريقة لمحاكاة الطائفة الأخرى، إذن لم يبق لي في الشارع الذي اسودّ باقتراب سقوط الليل، أو احمرّ بفعل الجمر المتقد أمامنا، سوى جمود جسده وكتفيه وضغط بيده على يدي (قيدي وسط يده العريضة)، وأنا أهمس : «كم أنا فرحة !».

لا يجب القول بسرعة : «أنت، لقياك أنت»، لأنه إذا أطلقت العنان لنفسي، أعرف مسبقا، أنه سيضيف –كأنه ليقي نفسه بدرع، أو لأنه معي، يحب الحديث عن حبه لزوجته– أجل، بل سيهمس و بغير تواطؤ، متحكما في نفسه كالعادة أمام الملأ : «وأمك، تنسينها ؟»

يعلم، هو الزوج، أن بمجرد اجتياز العتبة بعد عشر دقائق على الأكثر، فإن الارتماء في أحضان أمي يكون بالنسبة إليّ

استعادة ما هو طبيعي، استعادة الطفولة والمراهقة الآتية في الوقت ذاته، فحيويتي ليست سوى حلّة إضافية بالنسبة إلى الأم الشابة التي ستنقاد لعناقي في بحر من الرقة، دون أن تغادر مملكتها المتواضعة.

وهكذا، ورفقة أبي، وقد مسكني من يدي، خلال أنوار الليل الأولى (مصابيح في الحانة المقابلة راحت تشعل الواحد تلو الآخر)، أجتاز مع أبي إذن، الخمسين مترا التي تفصلني عن العمارة المخصصة لسلك المعلمين. والحال أني متأكدة من أن أمي ترابط خلف مصارع غرفتها المغلقة في الظاهر...

هكذا تنقضي في كل أسبوع ساعتان ونصف الساعة بين خروجي من الداخلية بالبليدة ووصولي إلى المنزل الأسري بالقرية.

.3

البيانو

لم أعد أتذكر أيام الأحد من هذه السنة الأولى. لا شك أن أمي كانت منهمكة في غسل وكيّ ثيابي. أما الأخ الأصغر، فكانت ترعاه، كالعادة، «خالتي خديجة» مرضعة بالقرية تكاد تكون جزءا من العائلة : لم أعد أرى قط هذا الأخ في ذكراي، ربما كان يقضي وقته في الخارج مع أطفال العمارة الآخرين أو حتى في القرية مع أحد أبناء القايد... أختي بنت أقل عرضة للمراقبة على خلاف ما كنت عليه فيما مضى، مع أبناء المعلمين الآخرين. في الواقع، ليست الحياة العائلية هي التي أستعيد. كيف أعبر عن ذلك ؟ حينذاك، كان يبدو لي أني لست هناك (في المرقد وسط العديد من الفرنسيات حيث كانت بداية حوار تتواصل في كل مساء مع جاكلين الممدودة في السرير المجاور) ولا بالمنزل، في

حين أن المراهقات المسلمات القليلات اللواتي أصبحت قريبة منهن لا يخرجن في كل يوم سبت مثلي.

يجب عليّ إذن أن أستجيب لفضول أمي الراغبة في تصور نوع الصديقات اللاتي يمكن أن يكنّ لي «هناك». ترى، هل اقترحت على أبي في هذه السنة أن يشتري لي بيانو ؟ أبدى موافقته سريعا على أن يدفع مقابل دروس السولفاج. هذه الأستاذة أعفتني من درسين أسبوعيين اقتطعا بسهولة من الوقت المخصص للدراسة المسائية. لا شك أن أمي تتصور بأنه بعد سنة من الدروس المنتظمة أستطيع -بعد اقتناء البيانو- أن أعزف لها ألحانها المفضلة من الموسيقى الأندلسية التقليدية.

خلال هذه السنة الأولى التي قضيتها في الداخلية، كنت بنتا رزينة وكانت أمي تغذي أوهاما موسيقية بشأني... لأجل متعتها الخاصة والحق يقال. حقا، لم يحصل إلى حد الآن أن فكرت في أمي بوصفها «معتقلة» في الشقة، وهي التي كانت تعاني دون شك من بعدها عن مدينتها الأصلية ومن اقتصار أوقات فراغها على الاستماع لبرامج إذاعة الجزائر باللغة العربية التي تبث حصصا من الفولكلور. هل كانت أمي حقا تحنّ إلى حياتها هناك بشرشال، هذه

الحياة الاجتماعية النسائية –زيارات متكررة وحفلات بورجوازية في أدنى فرصة–، هذه المدنية التي نلاقيها منذ بداية الصيف في منزل أمها ؟

بالنسبة إلى البيانو، فقد تمّ اقتناؤه في السنة الموالية وحتى أنا كنت فخورة بذلك في مرحلة أولى.

ثمة ذكرى لاحت: في هذا اليوم حيث انضممت إلى مجموعة من الداخليات، رحت أستمع إلى الموسيقى لأول مرة في حفل برمجته الشبيبة الموسيقية: كان على الموسيقي المشهور سمسون فرانسوا الآتي من باريس أن يعزف العديد من أعمال «شوبان».

فإلى غاية هذا اليوم، كنت مثل أمي من مستمعي الإذاعة ليس إلا، ولكني كنت أستمع إلى الموسيقى الغربية. كان ذلك يحدث صباح يوم الأحد، ويبدو لي أن الأمر كان مرتبطا دائما بالقداس، بحيث لم أكن أستمع إليها حق الاستماع، فقد كنت أقرنها لأول وهلة بالمواكب الكاثوليكية التي كانت تمر تحت نوافذنا بمناسبة احتفالاتهم

التي كانت تبدو لنا وثنية وكأنها بقايا معتقد بدائي، خاصة أن العديد من التماثيل كانت تنقل بتفاخر من قبل أطفال يرتدون حلّة قداسية ذهبية. فجأة بدا لنا هؤلاء الأوروبيون «الأكثر حداثة» أطفالا أو حتى أوثانا دون علم منهم !

في حفل الشبيبة الموسيقية هذا، لأول مرة، (كان عمري تقريبا ثلاث عشرة سنة)، بدا لي كل شيء جديدا : الظلمة التي غزت القاعة، العازف الشهير على البيانو وهو ينحني محييا الحضور ليدخل في لحظة تأمل بعد ذلك، ويداه ممتدتان فوق لوحة مفاتيح البيانو، حيث راحت النوتات الموسيقية تخدش الصمت في هدوء، وهي تتعالى شيئا فشيئا –وكأنما شلال كان سينبثق من وراء البيانو الذي اكتشفته للتو–، ظل الفنان شبه المنحني الذي جعل سيولا من النغمات المتداخلة تنساب من أصابعه في نظام عجيب.

أغمض عيني، أدلف في تدرج هذا السيل من الأصوات المحبوكة. فجأة بدا الحشد الذي يحاصرني ممدودا نحوي رغما عنه، وقد حبس أنفاسه منقادا مثلي إلى هذه الأمواج من الأصوات المتناغمة المتمازجة...

أين أنا ؟ نسيت هوية الموسيقي : هل هو العازف أم شوبان وقد بعث من جديد وتم نفيه لكنني أعلم أنه ليس

سوى شبح متواطئ خلف هذا الرجل الأسمر المنحني على آلته ؟ وأنا في صلب هذا الشلال من النوتات المنسابة دون انقطاع وتصدم سمع كل واحد منا ؟ طبقات من الأصوات الممزوجة تصعد وتطير مظفرة قبل أن تهوي فجأة، ولكن ليس بشكل نهائي، في حين يتواصل عنف الأصابع (أراها بسبب المعاصم على الحواف اللامعة بياضا)، وأرى في لمح البصر وجه العازف على البيانو -العازف أم شوبان ؟ - ثم ملمحه الذي يكاد يوضع على اللمسات وكأنه يتأهب للنوم عليها أو على العكس يبدو كمن يريد رفع البيانو نفسه كي يستقيم ثانية ويستحوذ لنفسه على هذه الموسيقى الرحبة ويجلبها إلى ممشاه، فيذهب تاركا المستمعين يتامى إلى الأبد.

فجأة ارتفعت موجة متصلة من الأصوات وكأنها صادرة من أعماق البحار ولطّختنا قبل أن تتلاشى رويدا رويدا. وهكذا لفّ الصمت هذا العنف المعلق.

عاد الضوء دفعة واحدة وتعالت التصفيقات والهتافات. ظل الفنان طيلة دقيقة طويلة منحنيا ثم استقام ببطء، نظر إلينا بشيء من الحزن تقريبا -قلت في نفسي- بأنه فعل ذلك كي يهرب بعيدا عنا، بعيدا عن كل شيء -وقلت

ثانية- هل هو العازف أم ظل شوبان بعينه خلف ذاك الذي يحيينا والذي عانى أمامنا ؟ في خضم الضوء الأبيض أخذت جارة من الداخلية تحملق في وهمست برقة :

- هيا امسحي دموعك! وهي تبتسم لي بما يشبه المواساة.

أتكدّر. ألاحظ أني أفتقر إلى منديل. لا زلت أسمع في نفسي صدى النوتات الأخيرة. إلى غاية الآن، لم أكن أعرف أن الموسيقى يمكن أن تلقى هكذا في قاعة خاوية رغم اجتماع أناس كما في حفل. بالنسبة إليّ لا يتعلق الأمر بحفل بل باكتشاف.

أمسح وجهي كما أستطيع ولكني أظل مضطربة -القلق ثاو في صلب صدري الهش. كما أني خجولة. أخرج سريعا مع الموجة الأولى. في الخارج، أذناي تطنان ولم أعد أسمع لا الحشد ولا المدينة التي سنعبرها عن قريب على امتداد الشارع الموازي للثكنة. لم أعد أعرف أين أنا. إنه حفلي الموسيقي الأول. أنا وحيدة بالخارج فيما يبدو لي.

- أي قطعة موسيقية ليلية تفضلين؟ قال لي صوت شجي منبعث من الداخليات اللواتي التحقن بي واللواتي بعد أن أدركن أنهن تحت المراقبة عدن إلى الداخلية مثلي.

صمتّ وانزعجت جدا لكوني نسيت نفسي وسط الجمهور.

– رأيت الدموع على خديك حين عاد الضوء، قالت لي بلهجة خبيثة إحدى زميلاتي في الدراسة.

ثم طلبت مني بجدية إن كنت ألفيت سمبسون فرانسوا «رومانسيا»... نظرت إليها كمن هوى لتوه من كوكب آخر. ربما يحسن بي أن أعترف لها بأني استمعت إلى شوبان إلى حد الآن... ولكن في الإذاعة!

كلا، عليّ أن أقول بالأحرى بأني أبدو لهن كمتوحشة!

ترى أمِن أجل هذا توهّمت بأني سأصبح، بالنسبة إلى أمي، عازفة البيانو بالمنزل، بشكل من الأشكال ؟ أنى لي أن أعرف لأول وهلة، بأنه في مجال الموسيقى التقليدية -موسيقى بامتياز في نظر أمي- لن يسعفني تعلمي السولفاج كثيرا ؟

وعلى غرار الجاز، فإن هذه الموسيقى التي استوردها عرب ويهود إسبانيا، الحاضرة بقوة في مدينتنا شرشال، تقوم على فنّ الارتجال. ودون استباق موهبتي الرديئة في العزف على البيانو، رغم أني برهنت في البداية على مثابرة لا ريب فيها، فقد تسبّبت في خيبة أمي الأولى.

أعاود استحضار هذه الدروس مع السيدة د. أستاذة البيانو التي راحت تعنفني سريعا، مضاعفة الملاحظات

اللاذعة حول أصابعي «الطويلة جدا لكنها متخدرة وخرقاء» ثم تكرر بمرارة بيّنة :

– ما الداعي للنجاح في جميع المواد في الآداب كما في العلوم إن كان رغم تنوع السلم الموسيقي فيما يخص المؤلفات الكلاسيكية المفضلة تقدمك في السنتين الثانية والثالثة غير بارز !

ثم تضيف لاذعة وكأني أقوم بذلك عمدا :

– وتقولين لي إن أمك –موسيقية حقيقية أنا متأكدة من ذلك– قد أقنعت أباك بشراء بيانو من أجلك ؟ كي تسمعك تعزفين ؟

هذه السيدة أصبحت مثبطة للعزائم أكثر فأكثر.

كنت أخرج في كل آخر ساعة من ساعات الدراسة، حاملة توليفاتي الموسيقية، وأعبر الرواق الهائل الغارق في الظلمة وأجد نفسي قبالة قاعة الحفلات وحيدة هناك في الطرف الآخر أعزف على البيانو خلال ساعة. ولكن كلما خصصت نهايات المساء لهذا الجهد الفردي ازداد ثقل سماجة السيدة السمراء التي كانت تبدو، من خلال ملاحظاتها اللاذعة، تسعى إلى إبعادي عن الموسيقى.

راحت تضرب بعصاها على أصابعي التي لم تكن منثنية بما يكفي، دون أن تغض البصر عن أي من هفواتي وقلة مرونتي. كانت قلة مرونتي وبطئي يتعاظمان في حضورها. كنت متأكدة من أنها لا تحبني وبأن والديّ يدفعان لها المال كي أعزف مثل عازفة تافهة هاوية. لا شك أن هذه السيدة المثبطة كانت تقول في قرارة نفسها : أين رأيتم بنتا مع أب يرتدي الشاش التركي وأم ملفوفة في حايك صوفي أو حريري، تزعم التوفيق في عزف ولو شذرات من المقطوعة المسماة ***Clavier bien tempéré*** ؟

يبدو لي أن هذه السيدة الجافة الفظة ظلت تلقنني الموسيقى مدة ثلاث سنوات على الأقل. في السنة الأخيرة، تضاعف الفشل في نفسي جراء نزعتها العدوانية أو ترددها. ورغم ذلك أتذكر أنني تذوقت أحيانا متعة العزف منفردة تقريبا كل مساء في قاعة الحفلات الواسعة جدا !

كنا عدة أقسام داخلية مجتمعة في الساعات المتأخرة من الدراسة : خمسون على الأقل من شبه المراهقات. في كل مساء، أنهض وتوليفاتي تحت ذراعي، وأسلك الطريق

المعتادة على امتداد الأروقة المظلمة إلى غاية القاعة حيث كان البيانو الكبير في انتظاري.

في خواء هذه الأمكنة، وبينما لم أكن أتمرن على السلم الموسيقي فحسب، ولكن أيضا على فك بعض المقطوعات، كان حضور الموسيقى يبعث السكينة في نفسي : في صلب هذا القفر، تعاظم جهدي -كنت أعاود العزف ثلاث أو أربع مرات، بشيء من التكالب دون أن يعتريني التعب، إلى أن أسمع المقطوعة تتردد في رأسي : كان ذلك بمثابة معركة استنزاف لم تجازني عليه السيدة القاسية جدا...

أخيرا، وبناء على رفض مفاجئ، نهضت واستسلمت للأمر الواقع. لا أتذكر أي أمر لافت في هذه المسألة... ترى ألم يكن ذلك بمثابة تعب ضارّ ؟

ذات يوم، فيما يبدو لي، بعد إحدى الملاحظات اللاذعة الكثيرة للأستاذة، انتفضت وأغلقت توليفاتي بحركة خاطفة ونهضت : ودون أن أقول وداعا لأستاذة الموسيقى، أدرت لها ظهري مستقيمة والتحقت بقاعة الدراسة.

في هذا المساء، أعلنت وأنا جالسة بقرب زميلة حميمة :

- ستكون المطالعة ثمالتي الوحيدة... !

إن أصعب ما في هذا العدول –الذي لم أعشه كهزيمة حقا– هو أن أجعل أمي بالقرية تقبل نهاية الطموح الذي غذّته بصددي.

كنت أتمنى أن أعزف –على الأقل بشكل صحيح– بعض مقطوعات موزار السهلة، ولكن أن أرتجل بالبيانو ألحانا كما في قصر الخليفة بقرطبة ؟ من ذا الذي سيعلمني ويريني، لاسيما وأن الأصوات في هذا التراث التي ترتقي إلى القرون الوسطى، تتبدى لنا رائعة مثل صوت الأم...

ولكن باتباع توليفة كلاسيكية ؟

كان في وسعي أن أشرح لأمي بأن أداء هذا الفولكلور الخاص جدا على البيانو يتطلب أساتذة آخرين.

لم أقو على ذلك. كانت خيبة لم أتوقف عن الاعتراف بها في القرية يوم السبت. دامت هذه المحاولة ثلاث سنوات على الأقل، ولكنها كانت تنتهي دائما بالإخفاق. بقيت لي من ذلك ذكرى تتعلق برزانتي العنيدة بينما أجتاز القاعة الواسعة المسماة «قاعة الحفلات» المملوءة بالأشباح، وأنير بخشوع المصباح الموجود فوق البيانو الكبير.

وأنا أقترب من البيانو، هناك في الطرف الآخر، رافعة الغطاء قبل أن أشعر بأني الوحيدة التي ستخرق الصمت البكر وأداعب المفاتيح العاجية اللامعة في الظلام –أجل في كل مرة ينبعث الأمل خافقا بأنه في مقدوري أن أعزف جيدا كي أقاسم هناك في شقة القرية أمي متعتها، وأن أكون بذلك مرافقتها في هذا الذوق الذي تهيأت له والذي كان يخرجها من انغلاقها ويذكرها هي أيضا بمراهقتها وربما بأحلامها، كان يحلو لها أن تغني الأغاني القديمة حول المنفى الأندلسي. لماذا لم أرغب في مرافقتها، هي، بخجل وبساطة لدعم صوتها وهربها، أي حريتها هي الأخرى؟

الآن فقط أقدّر عمق وحزن هذا الإخفاق الجزئي. بقيت لي ذكرى هذه اللحظات من العزلة السعيدة في الداخلية، حيث كنت أعتقد بأن أصابعي بفضل المثابرة

ستلين وتستطيع أن تجري على لوحة البيانو، كي أحتفظ في نفسي بصوت أمي الصافي وهو يرتفع هناك بالقرية بشيء من الحزن...

ربما بعد مرارة هذا الإخفاق -التي تسللت إلى نفسي ثم زالت على مرّ السنين- حلت الصداقة التي ربطتني بزميلة أولى في هذا الفراغ أو تجدد عزلتي. صديقتي هذه اسمها «ماق».

فجأة انفتح لي قطر جديد: نهم مشترك للكتب كنا نتبادلها دون كلل جعلنا صديقتين حميمتين.

.4
الصديقة الأولى

كانت ماق من المنتميات إلى النظام الداخلي، ولكنها لم تكن بقسمي بل في شعبة الآداب الحديثة. كنا نصفها نحن المنتميات إلى زمرة الداخليات «الأهلية» بـ«الأوروبية»، حين نجتمع في الساحة، على الأقل في السنة الأولى.

لم يكن طبعي اجتماعيا. فقد اعتدت مبكرا على عدم حصري في دائرة بنات قسمي المسماة بـ«الفرنسيات» ولا في زمرة البنات اللواتي كان بإمكاني التحدث إليهن بالعربية أحيانا –ولكنهن كنّ من منطقة بعيدة وكانت مرجعياتهن العائلية أو الإشارات إلى طفولتهن تبدو لي بعيدة جدا : فهن يأتين إما من القبائل أو من الأصنام ولم يكنّ يرين أسرهن إلا بعد أشهر، في حين كنت أنا محظوظة إذ كان والداي في قرية قريبة، وكان في مقدوري أن أخرج كل يوم سبت وأعود يوم الإثنين صباحا باكرا. بالمقارنة

مع مجموعتي، كنت أعتبر محظوظة، بينما مع أوروبيات قريتي اللواتي كنّ مثلي يقضين أيام الأحد مع أسرهنّ كانت اختلافاتنا تزداد اتساعا.

ومع ذلك، في هذا العالم المنقسم إلى جزءين، أكثر مما هو عليه مجتمع الخارج، أمكنني منذ السنة الثانية الظفر بصديقة حقيقية. وعلى عكس ذلك، أتذكر أنني في السنة التي سبقت تعرفي على ماق، سرعان ما مللت من رتابة أحاديث البنات العربيات -اللواتي كن يغبطن هندام وأقوال، وأحيانا مظهر الكفاف لدى الأوروبيات اللواتي كان جلهن «بنات معمرين صغار» اللواتي لم يكنّ يحسنّ إخفاء زينتهن تحت مئزرهن الأزرق النظامي. أحيانا كان الفشل يتسرب إلى داخلي جراء الغيرة التي تستشعرها الداخليات المسلمات حيال بنات الزمرة الأخرى. كانت تعاليقهن تذكرني بثرثرة القرويات في الحمام العربي اللواتي كانت أمي تنفر منهن : «لا مجال للثرثرة !» هكذا كانت أمي تنصحنا. هذه الأقوال تبدو لي أنها من قبيل نفس التفاهة.

في السنة الثانية، تغير كل شيء بالنسبة إليّ بفضل لقائي بماق والكتب التي كنا نلتهمها معا، خلال ساعات

الدراسة، بمجرد أن نفرغ من فروضنا. لا أعرف ما إذا كانت هي أم أنا، ولكن إحدانا لاحظت بأننا الوحيدتان اللتان تهرعان للحصول على هذا الكتاب أو ذاك، وأن هذا الكتاب هو تحديدا ما ترغب فيه الأخرى. هكذا بدت صداقتنا صداقة قارئتين شغوفتين، مع بروز التنافس بيننا إضافة إلى فضول متساو تقريبا، تذكيه نفس الشراهة للكتب.

يجب علي أن أقول كذلك بأن صداقتنا توطدت باعتقادي في السنة الثالثة بواسطة كتابين أو ثلاثة تناقشنا حولها طويلا. بالنسبة إلى كل واحدة منا، أصبحت هذه الكتب أدلة لقراءات مثالية : كان الأمر يتعلق خاصة –سخرية الأقدار لأن الحداثة في هذه المدينة الاستعمارية الصغيرة كانت تقريبا مجهولة– بمراسلات «جاك ريفيار» و«آلان فورنيي» التي ترتقي إلى بداية القرن ! تمّ تبادل هذه المراسلات بين مراهقين من السنة الأولى العليا كانا طالبين بباريس، قبل الحرب العالمية الأولى (حيث توفي آلان فورنيي بالبدلة العسكرية تاركا كتابه الجليل : مولن الكبير). لقد اكتشف هذان الشابان رامبو بفضل كلوديل الشاب ثم بيقي، فجيد، أي اكتشفا كل أدب تلك الفترة

-ماعدا السريالية التي كانت تأخذ في البروز. وبدون هذا اللقاء، كنت سأقتصر بطواعية على كتب تتماشى «وعمري»، أي كتب شبه مراهقة تحيا في العالم المغلق لهذه المدينة الداخلية وفي معيشة أوليائنا الضيقة. ها نحن إذن نتخلى عن كتب المغامرات أو التسلية العادية التي يفترض أنها كتب «تساوق سننا !» وبفضل طالبين باريسيين عمرهما ثماني عشرة سنة، بعد قرابة نصف قرن، نلج نحن تلميذات الإعدادية القاطنات في مدينة استعمارية، الشعر الكاثوليكي لكلوديل، وقريبا الكتب الهدامة التي يعود تاريخها إلى ما بين 1900 و1910 للسيد جيد (الذي علمنا بأنه زار فيما مضى مدينتنا !) والحال أن هؤلاء الكتّاب لم يكونوا مدرجين آنذاك في برامج زميلاتنا البكر اللواتي كنّ يحضرن عندنا البكالوريا... هذا التفصيل أورده كتمهيد كي أشدد على مدى صداقتي مع ماق التي أخرجتني من الضيق الفكري الذي كانت تقبع فيه أكبرنا سنا. لقد أدركت أنا وماق -على غرار جاك ريفيير وآلان فورنيي اللذين كانا بإمكانهما أن يكونا جدينا- بأن صداقتنا المبنية على الكتب وضعتنا على مبعدة من الأخريات. لاسيما وأن الأدب لم يكن أدب كبار الكلاسيكيين فحسب (التهمنا أولا دوستويفسكي وتولستوي وستاندال وبلزاك). بل

--الجديد الذي قلّما كان يحدثنا عنه أساتذتنا– إن كل أدب إنما هو أدب حيّ ويبدع في الحاضر. اكتشفنا أن المؤلفين لم يكونوا موتى من تلقاء أنفسهم، بل بكل بساطة يصبحون «كلاسيكيين» بعد وفاتهم بكثير.

بشيء من التأخر، كنا نشعر في المحصلة بأننا معاصرتان لهذين المراهقين اللذين لم يكونا يتحدثان في مراسلاتهما سوى عن الكتب. بالنسبة إلينا نحن الاثنتين معا، كانت مطالعة ما كنت أسميه بـ«الكتب الحقيقية» مصدر نشوة بل مصدر تحوّل.

أود أن أشير هاهنا إلى أن ماق هذه التي افتقدتها في وسط الطريق والتي تظل مع ذلك في حياتي، صديقتي الأولى -هي التي سبقتني في الشغف بالأدب، لقد جعلتني سخريتها اللاذعة جدا وكذا مظهرها الذكوري أخرج من عزلتي وتقوقعي. كنا نطالع. كانت كل واحدة تخرج كتابين أو ثلاثة ونتبادلها، وكانت أحاديثنا في الساحة تعوض تعويضا مفيدا حيويتي الجسمية التي تدفعني إلى الذهاب والقيام دون توقف بتسديد بعض الرميات في ميدان كرة السلة -وهذا المنشط قد غذى تنافسنا. أتذكر بأن حيوية ماق اللاذعة أحيانا كانت ترشدني وأن عقلي الساذج بطبعه (وهو ما كان يخيّب ظن أمي التي كانت ملاحظاتها بهذا الصدد مؤذية) قد أصبح أكثر يقظة وحدّة... ربما كانت تكبرني بسنة على الأكثر، ربما أيضا

لم أكن متعطشة إلا للمطالعة بكيفية غير معقولة، المطالعة دون توقف دون أن تكون لي أية مرجعية من مرجعيات العالم «الأوروبي» التي كانت هذه الكتب تحيل عليها.

لا، ليس هذا صحيحا تماما! كانت ماق تبدو لي في كثير من الأحيان كنسخة ثانية لي في مجال المخيال الذي يتسع بفضل تبادلنا الكتب وتعاليقنا المختصرة التي لم تكن متماثلة، بل كانت أحيانا متضادة حول هذه الأعمال...

لا أود أن أنسى أبدا شخص ماق، ولقد حان الوقت كي أتولى وصفها وقصها بما أنها كانت الشخص الأقرب مني في هذا الهياج الفكري الذي تقاسمناه.

التقيت بها بعد ذلك بباريس. ثم افتقدتها ثانية والتقيتها مجددا وكنت امرأة متزوجة تعيش على أطراف المدينة. دعوتها كما نفعل مع أقاربنا، وكنت من خلال ذلك أرغب في العثور على شيء من مراهقتنا التي عشناها في نشوة الكلمات. كان عمري هذه المرة ثلاثين سنة تقريبا. كان اللقاء معجزة في مترو باريس بمحطة سان ميشال، قبل أو بعد اضطرابات 1968... جاءت إلى غاية ضاحيتي. حكت لي وإن باختصار كيف غادرت هي ووالداها -وهما من أصول إيطالية- قريتهم التي تعيش على صيد الأسماك... بعد 1962، نزحوا إلى مدينة ليون التي راحت

تمتدحها. تعودت على حياتها الجديدة : لم نتحدث قط عن بلدنا هناك.

لم تبد أي أثر من آثار الألم ولا أية ضغينة حيال الذهاب القسري لأسرتها —أشارت بسرعة إلى قريتها «كاستقليون». كان أخوها موسيقي جاز. لم أتعرف على شيء آخر عنه ولا عن ذويها. ولئن كانت لم تبد أي مرارة أو حنين، فقد شعرت بأنها تفعل ذلك من باب العفة نحوها ونحوي أيضا حيث كانت تراني منفية حتى وإن كان والداي يعيشان هناك و إن كنت أعود إلى البلد كل صيف.

لم أرها ثانية : علما بأني ألفيت عندها نفس النوعية من الثقة. لقد كان اللقاء الأخير، بالنسبة إليّ، بمثابة انبعاث لمراهقتنا في الفترة الاستعمارية.

هل خلّفت حرب الجزائر —رغم كل شيء— غموضا بيننا ؟ بل حدودا غير مرئية، ولو كان لا بد من الحديث عنها، لتطلب الأمر ليالي برمتها كي تروي الواحدة للأخرى... هل كان في مقدور الحوار أن يتواصل ؟ أتذكر بأنه كان عليها أن تعود إلى ليون، وبأنها لا تحب باريس. فقد حدثتني عن ذلك فيما مضى لما كنت طالبة : تواصلت

صداقتنا آنذاك أياما معدودات وحتى خلال العديد من الليالي من المشي معا والثرثرة المتقدة كما في فترة الداخلية.

بيد أنه بعد لقاء 1968 هذا حيث بدت ماق مراوغة (ولكن لم أتفطن لذلك إلا بعد فوات الأوان)، ذهبت من جديد و، لا أدري لماذا، نسيت أن أطلب منها عنوانها بمدينة ليون.

لقد كانت، من خلال الكتب، الصديقة الأولى بامتياز. وكانت الأخت في الأدب إن كان الأدب أولا شغفا بالكلمات، ومطالعة، وبعد ذلك كتابة، كي نتشبع بنوره...

مع ماق المتواطئة معي، عرفت منذ سن الثالثة عشرة، فلتاتي الأولى رغم خشيتي من القسوة الأبوية واحترام «العقد» الضمني الذي أحسست بأنه من واجبي احترامه إزاء أبي.

منذ السنة الأولى، أمضى أبي ترخيصا يسمح لي بالخروج بمفردي يوم السبت على الساعة الرابعة والتوفر على نصف ساعة للذهاب إلى الحافلة التي تقطع قرى الساحل. في يوم الاثنين الموالي باكرا، أستقل الحافلة مرة أخرى للعودة إلى الإعدادية...

غير أنه في السنة الثانية أو الثالثة، استطاعت ماق الماكرة -التي أقامت تواطؤا حقيقيا مع أخيها والتي كانت تلتحق بقريتها في نفس الساعات تقريبا- أن تجرني إلى مغامرات صغيرة في مدينة البليدة.

– الأمر بسيط جدا، قالت لي، فيما يلي برنامج معقول : نخرج على الساعة الثانية ونذهب معا إلى قاعة السينما الكبرى التي لا تبعد كثيرا عن الإعدادية ! بعد ذلك تكون الساعة أقل من الرابعة : نتجول إلى غاية وسط المدينة قصد رؤية الناس عن قرب في ساحة الثورة و–أضافت بابتسامة مغرية– نزور أحسن محلات الحلويات !

هكذا إذن قمت برفقتها بأولى مغامراتي المفاجئة : كان لدي مصروفي الأسبوعي الذي سعيت إلى ادخاره طوال الأسبوع كي لا أصبح تابعة في الخارج لكرم المتواطئة معي. من هذه الخرجات السرية التي أصبحت منتظمة في السنة التالية، أحتفظ بذكرى عن قاعة سينما كبرى اسمها «الأمبير» التي كانت في الصبيحة تخلو من الناس. في هذه القاعة، شاهدت أفلام الوسترن الأولى التي لا تزال عالقة بذاكرتي، خاصة لأنه في البداية على الأقل كان قلبي يخفق لمجرد احتمال أن يفاجئني أبي أو أحد جواسيسه ! وكما ألاحظ، وأنا أسترجع هذه اللحظات، فإن السيناريوهات الجامحة إنما كانت تجري في رأس الفتاة التي كنتها وليس في الشاشة.

أما انفعالي الثاني فكان مسرحه محلّ الحلويات: فهاهنا أيضا كان عليّ ألا أبدو سخيفة في نظر ماق. في الأوقات الأولى، تولت دفع المبلغ المستحق بالنسبة إلينا. كانت تطالبني بأن ألبي جميع رغباتي المخفية (أذكر أنها كانت تقول بأنها غنية بفضل أخيها الذي كان يعزف، في سهرات الصيف، في الفرق الموسيقية.) أخيرا خلصت إلى الاعتراف برغبتي في تذوق... «البابا بالروم»! لم لا؟ وبسذاجة الأطفال، أضفت بأن رائحة الروم تجتذبني. هكذا في سن الثالثة عشرة رحت أنتهك نواهي القرآن الكريم! هزت كتفيها أو ربما استشهدت بقول من أقوال جيد (بالكاد شرعنا في ملامسة هذا العالم في مطالعاتنا المشتركة). هكذا إذن أصبحت أتعاطى كل يوم سبت البابا بالروم تحت أنظار ماق.

«يحيا الروم!» كانت تقول ساخرة، بعد أن جعلتني أخترق الشعائر الإسلامية. كنت أقول في قرارة نفسي بأن هذه الخطيئة الطفيفة ليست مخالفة قط لانتمائي الديني: بما أنني لم أكن أؤدي صلاتي خمس مرات في اليوم، فإن هذه الخروقات الغذائية تافهة... وهذا لا يفسد قط صدقي إزاء أبي.

في المحصلة، وأنا المسلمة السنية، ما كان يهمني أكثر هو أن أبقى «بنت الأب الحقيقية»، هذا الأب الذي كنت أعرف فظاظته جيدا. ومع ذلك، وبسبب ماق، الصديقة المتواطئة، الأخت في الأدب، كان عليّ أن أشعر بالذنب... المتمثل في الخضوع لرائحة الروم المسكرة ورؤية الشاشة تهزها الأفلام الأمريكية الصاخبة. هذا كل ما في الأمر !

صداقتي مع ماق ؟ أقدّر الآن صنيعها في فضاء الداخلية الضيق الموسوم بالميز الاستعماري، إذ كانت تنتشلني قليلا من قوقعتي وانطوائي على ذاتي الصغيرة !

5.
فريدة البعيدة

بعد العودة من عطلة الصيف الطويلة، لم نجد نحن الداخليات المسلمات، على خلاف الأوروبيات، ما نبوح به فيما يتصل بالغراميات النامية والمراسلات السرية والقبل المسروقة في الأماسي على الشاطئ –علما بأن الشواطئ بالنسبة إلينا محظورة علينا بشكل مزدوج، بما أنها مخصصة للأوروبيين، من أغناهم إلى أفقرهم، وكذلك لأن الرجال عندنا، إن افترضنا قبولهم «هناك»، فإنهم هم أنفسهم سيشعرون بأن ظهور بناتهم وزوجاتهم بلباس البحر بمثابة فظاظة وعدم لياقة !

في الداخلية، بالكاد نتخلص نحن البنات أو شبه المراهقات من الوشاح والحايك وكل هذا القناع، بحيث إن المئزر الأزرق المفروض الذي هو بالنسبة إلى الداخليات الأخريات بزّة متحملة بصعوبة، فإنه بالنسبة إلينا نحن

المسلمات يظل، على خلاف ذلك، أمارة واعدة على تخليص جسمنا البالغ من الحايك.

بالنسبة إلى هؤلاء الداخليات المرتديات المئزر —وحتى بالنسبة إلى اللواتي لا يخرجن أبدا، أحيانا لمدة فصل كامل (يوم الأحد، يؤخذن لاستنشاق هواء القرية القريبة)— فإن هذا الاعتقال أصبح أمارة أكيدة تقريبا بأنه بعد أربع أو خمس سنوات، بعد الحصول على الأهلية أو البكالوريا، لن يقوى الأب أو الأخ البكر على إجبارهن على الزواج من «أحد الأقارب»، بل سيحظين بالدراسة فيما بعد بالجامعة ثم بممارسة مهنة ما.

إنه الاستقلال أخيرا ! كنّ في سن الثالثة عشرة تقريبا، يتبادلن الحديث عن هذا المستقبل القريب الذي كان يحدث فيهن نشوة شبيهة بالنشوة التي يستشعرها المستكشفون الرحالة.

الآن، هؤلاء البنات، المعتقلات مؤقتا كداخليات، أقل اعتقالا مما هن عليه في البيت تحت رقابة حارس حريم متغطرس. صحيح أنهن يعانين من البقاء أسابيع برمتها بين جدران الإعدادية —لكن هل كن يعانين حقا ؟ كن يلتقين

هنا جميعا كراهبات المستقبل مضطرات للمكوث شهرين أو أكثر دون رؤية أوليائهن.

وكانت هذه أو تلك من البنات تورد بشيء من السخرية اللاذعة وأحيانا بتبصر مصحوب بغضب جم حيال المحظورات العائلية، ملاحظة مشوبة بالهزل المر :

– ماذا تظنين، تقول إحداهن (سمراء ذات عيون لامعة ولكنها ذات ذهنية حادة)، إن عطلة عيد ميلاد المسيح قريبة. أنا عندما أذهب إلى الأصنام سأبدل هذا السجن الواسع بسجن آخر أضيق. هذا كل ما في الأمر !

وها هي بنت أخرى أكبر سنا تضيف قائلة :

– لا بد أن أعتبر نفسي محظوظة إن تركوني أصل إلى البكالوريا !

والبنت الثالثة التي كفّت عن الكلام، كانت تبدو متفائلة : كان لديها جسم مكتنز وضحكة صاخبة. كان يحلو لها مقاسمتي ساعة الفسحة، حيث كنت أتدرب في ملعب كرة السلة. قالت مسعودة وهي تعترف :

– أنا حين تقترب عطلة عيد المسيح أو غيرها أشعر بأني محظوظة : فليس لي أب أو أخ بكر ! أمي الأرملة، رغم

ارتدائها الحايك، تعمل ممرضة... فهي تتشوق لأن أكبر حتى أساعدها في تربية الأطفال الصغار !

ثم انفجرت ضاحكة.

كنت أصغي إليهن بشيء من تأنيب الضمير. كنت أشعر بأني محظوظة. حدّثت أمي عن مسعودة مرة أو مرتين. اقترحت عليّ أن أدعوها للمجيء إلى البيت على متن الحافلة يوم الأحد. ولكن كان يتعين على أمها أن ترسل لها ترخيصا مكتوبا إلى الإعدادية. قالت صديقتي :

– الأمر معقد للغاية !

عاودت الاقتراح ملحة :

– هذا الترخيص متى سيصل ؟

ما عدا نحن اللواتي كنا نمثل أقلية من الداخليات العربيات بين الأوروبيات، كان ثمة عدد كبير من نصف الداخليات والخارجيات. بالنسبة إلى المسلمات اللواتي جلهن بنات بورجوازيين صغار بالمدينة -أي قرابة عشرين- اللواتي زاد عددهن أكثر قليلا فيما بعد، على الأقل في الأقسام الدنيا فإن ذهابهن وإيابهن اليومي كان يخلق لهن بعض المشاكل، بحيث كان بعضهن يغبطن طمأنينتنا من حيث «عدم الخروج» ! ذلك أن المسافة اليومية لجلّهن كانت مسطرة بحيث تجعلهن يتحاشين وسط المدينة، الذي كان محتلا من قبل العديد من الثكنات (بالفعل، كانت البليدة مدينة عسكرية هامة).

أتذكر بعض التلميذات من سني اللواتي كنّ يروين كيف، بسبب أخ متغطرس أو أب مرتاب، اضطررن

لمصاحبة وصيفة -أحيانا أخ أصغر لا يتصرف دائما بخشونة.

في كل صباح، تجتاز بعض هذه «الخارجيات» باب الإعدادية، وهن منشرحات ومبتسمات : بعد قبول الأولياء، يتجمعن في زمر تتكون من ثلاث أو أربع مراهقات... مع وصيفة واحدة ! أحيانا ينبثق في طريقهن -التي تمدّد لتحاشي الثكنات- حادث صغير يجعلهن يعدن على أعقابهن فجأة وهن يوشوشن أو يضحكن ضحكات مخنوقة. البعض الآخر، على العكس، يلتحقن بنا في الساحة ويخلدن إلى الصمت : لا شك أنهن بقين بالمرصاد على امتداد الشارع، وهن منقسمات إلى اثنتين أو ثلاث...

باختصار، في ذلكم العهد، أن تكون طالبة إعدادية مسلمة خارجية تنتمي إلى المدينة (بينما كلهن قد تحصلن على الترخيص الاستثنائي بمواصلة دراستهن إلى غاية شهادة الأهلية بل البكالوريا) معناه التعرض، على امتداد المسافة المؤدية إلى المدرسة، إلى مخاطر صغيرة بحيث كنّ يخشين من الاعتقال نهائيا ! ذلك أن أتفه استفزاز صادر عن شخص ما أمام الملأ قد يفضي إلى الثرثرة والهمز

واللمز في نفس اليوم بالمدينة العربية. لذا، راحت بعض الخارجيات يغبطننا نحن الداخليات، إذ يزعمن «بأننا نستطيع التركيز في سكينة على دروسنا فقط» !

وأنا استحضر مصير زميلاتي في تلكم الفترة، تلوح ذكرى قوية، ذكرى فتاة أكبر منا سنّا، كانت تتقدمنا بثلاثة أو أربعة أقسام.

كان اسمها فريدة. عندئذ كنت في السنة الثالثة من النظام الداخلي -كنت متعودة دون مخاطر كبرى على تعاطي بعض الحرية أيام السبت بفضل ماق- حين خلصت إلى ملاحظة تلميذة من المدينة كانت تكبرنا سنا، إذ كانت في قسم الفلسفة.

وصلت فريدة، المنتمية إلى النظام نصف الداخلي، إلى الإعدادية وهي مغطاة من رأسها إلى أخمص قدميها بالحايك الأبيض التقليدي. كان عمرها سبع عشرة سنة تقريبا. أراها ثانية وهي تدخل باكرا إلى الساحة، طويلة رشيقة، بسحنتها السمراء وشعرها الطويل المنسدل على

وركها على شكل جدائل. لاحظت عينيها المخمليتين وخاصة صمتها. قيل لي بأنها الابنة الوحيدة لضابط في الجيش الفرنسي، وربما بنت مقدم –رتبة استثنائية آنذاك بالنسبة إلى مسلم.

وبسبب سنها ولأنها كانت في قسم الفلسفة، فقلما كانت تنضم إلينا. ويبدو أنه في السنوات الأخرى، لما كان أبوها يعمل بداخل البلد، اضطرت إلى مواصلة دراستها عن طريق المراسلة.

كانت خارجيات مجموعتنا معجبات بها، رغم أنها كانت تؤثر الوحدة، أو بالأحرى الصداقة التي كانت أستاذة الفلسفة تبديها لها، وهي سيدة يقال إنها «جاءت من فرنسا». وبفضل هذه الأستاذة، قبل الأب بإرسال ابنته في هذه السنة إلى إعداديتنا.

كنا نشفق على إكراهات فريدة اليومية : كان عليها أن تقطع المدينة كلها تحت حايك من صوف (لم يكن حتى من الساتان أو الحرير، كأمي في القرية). كانت تتبنى طريقة القرويات في إخفاء الوجه، أي بالإبصار بعين واحدة –ليس تماما كأمي التي كانت تحمل على أنفها غلالة

شفافة، التي يعتقد أب فريدة القاسي بأنه من شأنها أن تبين عينيها الرائعتين ذات الأهداب الطويلة والنظرة اللامعة.

وحسب ما كانت تتناقله صديقاتنا، صيفا أو شتاء («أجل» كانت تلح خديجة، التي كانت تضحك دائما بمرارة من تقاليدنا) وحتى في خضم الحرارة، فإن فريدة كان عليها أن تحتفظ بجوارب صوفية في رجليها حتى لا يستشف الرجال الجالسون بالمقهى المتربصون بها رقة عرقوبيها.

– حقا ؟ قلت مندهشة حيال هذه الصرامة، ورحت أفكر في أمي التي وفقت في المدينة في عدم تغيير أي شيء مما يخص أناقتها بوصفها حضرية، رغم فظاظة الأب.

وهكذا، فإن والدي الذي كان يبدو لي إلى ذلك الحين، صارما جدا، اتضح أنه أكثر تحررا من والد فريدة، مع أن والدها كان ضابطا لدى الأوربيين.

– بالضرورة، علقت زميلة من بين أولئك اللواتي لا يلتحقن بأسرهن إلا في عيد ميلاد المسيح، ذلك أن هذا الأب باعتباره ضابطا قد أبقى ابنته تحت نظام الشريعة الإسلامية وصرامة الانضباط العسكري في الوقت نفسه !

- يبدو، أضافت زميلة أخرى ببعض الخبث، (وهي تتحدث هكذا عن هذه الفتاة البكر، دون أن تؤاخذها على ابتعادها عنا، شعرنا بدورنا بأننا أكثر اعتقالا)، أجل، واصلت الثرثارة وهي تتظاهر بمظهر الصديقة الحميمة لفريدة، يبدو أنه يتفقد شبح ابنته كل صباح حين تهمّ بالخروج ! أجل، قالت ملحة متقدة الخيال : صباحا ومساء !

لكم ظلت فريدة هذه غامضة بالنسبة إليّ ! تخيلتها في كثير من الأحيان تحت الحايك الصوفي، صيفا أو شتاء، تتجول عبر وسط المدينة، مثل قروية مقنعة أو في هيئة امرأة عمرها ستون سنة جراء هذا الحايك الذي ترتديه المسنات والذي يثقل طيفها.

لقد روي كذلك كيف كانت تؤثر، عند وصولها في الصباح الباكر، المرور بقاعات الانتظار حيث كانت البوابة تخصص لها زاوية كي تتخلص من هذا الحايك الذي يضاف إليه حذاء ثقيل وجوارب صوفية. ثم كان عليها أن تسوي شعرها.

في بيتها، يفترض أن تعنى بزينتها وحتى تغيير فستانها كل يوم -ولأنها كانت وحيدة أبيها كما كان التوضيح

بشأن ذلك، فقد فكان يكن لها حبا جما ويفتخر بنتائجها المدرسية، ولكنه يظل «عسكريا» رغم كونه «أهليا» قد وصل إلى أعلى المراتب في الجيش الفرنسي.

حين تظهر فريدة في الفناء، في الصباح، طويلة وجليلة، على وجهها الأسمر الذي يحاكي وجه مريم العذراء مظهر غريب وبعيد، كنا نحن أخواتها في الدين معجبات بها. بالكاد كنا نستطيع التحدث إليها. كانت تؤثر الالتحاق بصديقتها الأستاذة التي كنا نعتقد بأنها استطاعت أن تحملها على التغلب على تردد أبيها. فهذا الأب –من يدري– كان في مقدوره أن يقرر تزويجها بعد حصولها على البكالوريا.

خلال هذه السنة وحدها، ظلت بالنسبة إليّ مثل تجلّ رومانسي، كما لو أن ظل الأب الذي يراقبها دون توقف، أصبح فجأة تهديدا لنا أو على الأقل ذرة من التهديد لما سيأتي من الأيام! في هذه السنة، في قاعة الانتظار، كنت أتخيل فريدة أختا كبرى. كانت كل مساء، بعيدا عن الأنظار، تندس من جديد في الحايك كي تواجه الشارع متنكرة... كنت أقول في قرارة نفسي: كم تتعذب جراء هذا القناع المفروض!

على عكس ذلك، كنت بفضل تواطؤ ماق حرة ! كنا في يوم السبت نصعد هذا الشارع أمام الثكنات دون أن يتفطن أبي، الذي كنت أعرف أنه بالقرية، لإفلاتي المجاني الذي كنت أتعاطاه...

في الفترة نفسها، مع إشفاقي على فريدة (التي بالكاد تبادلت معها بعض الكلمات) كنت أشعر أنا المتمتعة بساعة من الحرية في الأسبوع بأني أؤدي الدور التافه لـ«غريبة»، وهذا بفضل ماق صديقتي الوحيدة الآتية من أجلي من عالم «الآخرين». هذه الصداقة التي كانت تكفيني كانت توهمني بأن أبي –على خلاف أب فريدة– رغم القساوة التي كان يتحلى بها أمام تلاميذه أو رغم صرامته الطبيعية، لم يتصرف كحارس متغطرس !

كانت فريدة بمثابة سلفنا إن صح التعبير في هذه الطريق الضيقة، التي تواجه المحظورات العريقة. كانت فريدة، التي كنت أتصورها تعاني معاناة شديدة يوميا، تتحرر من القماش وتسوي شعرها في ظلمة قاعة الانتظار، كي تظهر أمامنا نحن رفيقاتها الصغريات اللواتي كنّا نغبطها على صداقتها مع أستاذة الفلسفة.

حتى الداخليات المسلمات -اللواتي يتعذر عليهن الالتحاق بأسرهن بعد ثلاثة أشهر كاملة- كن يؤثرن اعتقال الداخلية على مصير فريدة التي كانت في نظرنا غير جديرة بأن تكون الوحيدة القادرة على اجتياز بوابة المؤسسة خلسة، وجسدها ملفوف في هذا الحايك القروي الذي كان يغمرها. يبدو أن المديرة قد أبدت تفهما كبيرا، ما جعل فريدة تستقبل في قاعة الانتظار بعناية. كان في مقدورها أن تستعمل خلوة وهبتها إياها البوابة. في هذه الخلوة، كانت تطوي الحايك وترتبه ثم تعاود الظهور في الفناء بعفوية وراحة مستعادتين، لتنضم بعد ذلك إلى الداخليات الأخريات قبل أن يرنّ الجرس.

هكذا كنت أتصور فريدة (لم أكن أعلم بأني سألتقي بها بعد عشرين سنة وهي امرأة متحررة تماما أكثر مني بأوروبا)، أجل كنت أراها كل صباح تطوي هذا الحايك الصوفي وتنزع جواربها المفروضة حتى في عز الصيف ! بعد ذلك تصفف شعرها وتتركه يطفو، ثم تعدل قامتها الجلية كي تدلف إلى الفناء، مبتسمة وهادئة. لم يكن ذلك لعبة تلعبها : كانت تستعيد تنفسا حقيقيا. فرحها يتعاظم

حين تتأهب للدخول إلى الدروس : الآن فهمت، والآن فهمتها !

كانت فريدة تعيش بنهم وكل لحظة تمر إلا وتتذوقها، ما يجعلها تستشعر انتصارا داخليا.

أجل، كانت فريدة، في كل يوم، تدخل إلى قاعة الدرس : من أجل التعلم والإصغاء والتأمل والإحساس بالتنافس حولها. كانت تلتقي بالأخريات بحيث تنسى التمهيد : الأب، عند الفجر، يفحص بل يكاد يشتم ثيابها وانسكاب الحايك على جسمها... إلى غاية مشيتها في الخارج ! حين تصل إلى الإعدادية وحيدة، من الباب الخلفي لقاعة الانتظار، كمنبوذة، ثم إلى ظلمة الخلوة، كانت هذه اللحظات الرمادية تخنقها بحيث تؤثر على تنفسها، ولكن بعد هذه اللحظات من الضيق، يمحى كل شيء ! فتظهر في القسم كما في مملكة وتجلس بين فتيات من سنها. كانت تتذوق هذا التنافس : وكغيرها، تصغي إلى الأسئلة وتقرأ وترفع إصبعها. كان الوقت قد تحول إلى عين جارية ! توالت السنوات بعد ذلك من أجل الدراسة والمعرفة، وكذلك من أجل التقدم الحر في الخارج، والجسد المكشوف ذات يوم !

في المساء، تعود إلى البيت : ومن جديد الأب، المنزل، المراقبة –وبعد ؟ ... كانت تتقدم. سيكون لها مستقبل خطوة خطوة ! ستكون منتصرة أو حية ليس إلا، تمشي طليقة. كل شيء سينفتح أمامها دونما نهاية...

هكذا تصورت إذن هذه الزميلة التي وددت الاقتراب منها آنذاك كأخت أو كصفية... ولكن بالكاد تمكنت أو تجرأت على الحديث معها.

نحن «البنات الصغريات» كنا فخورات بها. قيل لنا بأنها كافحت كثيرا ضد قانون الأب الذي سحبها من الإعدادية في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وبعد ذلك قامت بمقاومة سلبية ولربما (كنا نتصور ذلك دون أن نجرؤ أبدا على سؤالها) أضربت كذلك عن الطعام ! لقد ساعدها أخ أصغر كان يحضر لها الكتب خفية. قد قررت أن تصوم من باب المقاومة، خارج شهر الصيام، وقد عرّض ذلك صحتها للخطر، الأمر الذي جعل الأب يرضخ.

فيما يتعلق بالبقية بدت المعلومات غامضة : فبعد دروس بالمراسلة ورغم انقطاع دام بعض السنوات، قبل الأب الرقيب أخيرا بأن تعود ابنته إلى الإعدادية ولكن بناء

على شروط متعددة، من بينها ارتداء الحايك إلى غاية باب المؤسسة.

أحيانا حين تنضم إلينا في الفناء، صامتة، ننسى بأنه في الصباح اجتاز طيفها الغارق في القماش الأبيض البوابة، وأن جواربها الصوفية تسبغ عليها مظهر عاملة مثقلة. كان عليها أن تطويها آليا كي ترتديها ثانية في المساء قبل الخروج. حتى طريقتها في التحجب –بالإبقاء على عين واحدة تكاد لا ترى، كي تنير دربها وهي الشبح الأعور... لا شك أنها تقول في قرارة نفسها : هذا لا يهم. إن المرارة تتلاشى بما أنها الآن بيننا ومثلنا !

هذا القناع الشبحي كان يبدو بمثابة ضريبة غامضة يجب دفعها. حماسها في الصباح ونشاطها وإقبالها على التعلم جعلها تتجاوزها خلال دروس الفلسفة وكذا التاريخ والكيمياء. فما جاءت تنهل منه وتتشربه بنهم لن يتوقف، كانت متيقنة من ذلك : عن هذه السنة الأخيرة من دراساتها الثانوية كانت تحدث صديقتها الفرنسية التي لا تنسى أن تدعوها «أستاذة»، ولكن بمجرد الفراغ من الدروس، كانت تستشعر المتعة في مناداتها بلطف : «آني». كانت هذه المرة الأولى التي تنادي بهذه الطريقة

الحنونة أوروبية أي رومية كما يقول أبوها، وهو الذي لم يكن يعرف -أو يحترم- عن العالم الأوروبي الذي يخدمه ويخضع له سوى مسؤوليه ومن هم دونهم شأنا وأصحاب المراتب العليا الذين يحيون واضعين أيديهم على الجبهة ونظرتهم مصوبة إلى المدى البعيد، أي رجال ليس إلا -لأنه دون شك لم يقيّض له الاقتراب من امرأة من نسائهم باستثناء القيّمة على التنظيف الإسبانية أو بنت صغيرة من بنات الجيران الفرنسيين (بقلب خافق، يكون قد شعر بالعار، فبالكاد يكون تجرأ على الشغف بهما في صمت).

كانت فريدة تتخيل هذا كله في سريرها في المساء قبل أن يفسد النوم كل شيء. كانت سعيدة بدراستها، ولم تعد تشعر بالوحدة : كانت لها حليفة وأي حليفة : مديرة الإعدادية، السيدة المسنة التي كانت تبتسم لها وتقول لها بلطف بأنها ستساعدها. في نهاية السنة، هنّأتها لنجاحها في البكالوريا بدرجة «جيد».

ها هي فريدة... تفلت مني ! ستغادر الإعدادية وستبتعد عن البلد كي تدرس في مكان آخر... في باريس !

.6

في قاعة الأكل

لئن كنت أطلت الحديث عن فريدة هذه التي هي سلفنا إن صح القول –مع تطورها ذي الوجهين : الوجه الذي يرمز للانغلاق والوجه الذي يرمز للحرية التي ظفرت بها بفضل كفاح مرير– بينما لم تقاسمنا حياتنا الجماعية إلا قليلا، فلأن ذكراها قد أجّجت الانغلاق الجزئي الذي مثلته الداخلية بالنسبة إلينا.

وهكذا انبعثت بعض مشاهد قاعة الأكل : تلك المشاهد التي تميزت بانقسامنا إلى طائفتين –لاسيما فيما يتعلق بوجباتنا ومحظوراتنا الغذائية.

في هذه الفترة، وحتى في إعدادية جمهورية تزعم «اللائكية»، كان الغداء، في يوم من أيام الأسبوع –في أغلب الأحيان بمناسبة عيد من الأعياد المسيحية– يحتفي بالحدث بتقديم طبق خاص. بالتالي، كانت وجبة الغداء

تحتوي على لحم الخنزير (كرنب مفروم مع لحم الخنزير، أو طبق آخر باللحم مع قطع من كتف أو فخذ الخنزير المملحة أو المجففة، لحم خنزير مطبوخ... الخ).

ما إن نصل إلى باب قاعة الأكل حتى تسري إشاعة سريعا في الصفوف مؤداها أن المسلمات يجب عليهن الجلوس «في الطاولات المخصصة للمسلمات»، وهذا من باب احترام المحظورات. حينئذ نتجمع في ثلاث أو أربع طاولات، ما يمكنني من الالتقاء بأخواتي في الدين.بما أنني في أغلب الأحيان أجلس قرب ماق ونواصل الحديث حول مطالعاتنا طوال الوجبات.

حتى فريدة لا أراها معنية هاهنا. لا شك أنها التحقت بصديقتها الأستاذة التي يمكنها أن تتناول الغداء معها.

لئن كانت الذكرى قد ارتفعت فجأة بالنسبة إليّ في هذا الفضاء الصاخب، فإن الأصداء ترن تحت الأسقف العالية -تقريبا كما في المحطة حيث يغمركم الحشد بضجيجه- فلأن التقسيم الاستعماري بين عالمين (أوروبي وإسلامي) يتفاقم أكثر فأكثر.

ثمة ذكرى لا تزال حية، حيث تظهر المديرة في مقدمة الركح، تلكم المديرة التي كنا نسميها منذ السادسة ولكن

باحترام «العاشرة وعشر». هذا الاسم المستعار الطائش الذي كنا نطلقه على مشيتها لم يكن ينسينا كونها «شيوعية» وكنا نحن التلميذات المسلمات نعتقد عن حق بأنها في مقدورها أن تتحلى إزاءنا باللطف.

هذا المشهد المحدد يرتقي إلى سنتي الخامسة أو الرابعة. حينذاك كان عمري ثلاث عشرة سنة على الأكثر، وقد لاحظت زميلاتي المسلمات بأني أفضل ساعة الفسحة أن ألعب بمفردي في أحد ملعبي كرة السلة أو الانغماس في أحد الكتب التي كنت أتبادلها مع ماق. بحيث لا ألتقي بأخواتي في الدين في قاعة الأكل إلا خلال تجمعنا حول ثلاث أو أربع طاولات حين يقدم لحم الخنزير إلى الأوروبيات.

هذه المرة إذن، وبسبب الوجبة الخاصة التي خصصت لنا نحن المسلمات، استولى علينا استياء جم. ولم أتفطن لذلك إلا عندما أثارت زميلة انتباهي ورأت بأنه من حقنا الاحتجاج:

– قطعة من فخذ الخنزير أو كرنب مخلل ونقانق إضافة إلى ما يرافق ذلك... هذا لا يمكنه أن يساوي ما يقدم لنا!

نظرت إلى المحتجة. عند كل غداء، أشعر بالرغبة في الفراغ سريعا منه.

– ماذا علينا أن نطلب ؟

(«حوار تافه !» فكرت في ذلك بلا مبالاة).

ألحت الزميلة : يجب علينا أن نطالب بطبق آخر !

– في كل مرة تقدم لنا بيضتان وعصيدة. في حين أن للفرنسيات الحق في اللحم !

كتف الخنزير والكرنب المملح والنقانق كلها لحم. علينا بالمطالبة بما يعادل ذلك ! قالت زميلة أخرى.

سرت أصوات الاحتجاج على طاولاتنا المخصصة «للأهالي». أطلق شعار سريعا : الإضراب ! لا يجب تناول الوجبة ثم عدم النهوض، وعندما تذهب الأوروبيات سنرى ما ينبغي فعله !

حسنا ! أنتظر كما الأخريات. تعاظم الغضب بعد الوشوشات. هل يتعين صياغة بداية استراتيجية ؟

يبدو لي أني لست في الطليعة. يحصل أن آتي إلى قاعة الأكل وبجيبي كتاب. في الغالب، أنصرف الأولى، وبيدي فاكهة، متشوقة إلى لقاء ماق أو للانعزال. وفضلا عن هذا

أحس أنني محظوظة لكوني أعود إلى المنزل كل أسبوع وكانت والدتي تضيف مختلف أنواع الحلوى، أضعها في درج طاولة الدراسة.

لكن، وقد تقرر الإضراب، لا بد من اقتفاء الأخريات !

يبدو لي أن مسعودة (التي صعدت فيما بعد إلى الجبل بوصفها ممرضة واستشهدت) هي التي نشطت هذا الإضراب. ذكرتنا بأن عدة مطالب سبق أن عرضت على الناظرة، وأننا بتنظيم هذا الإضراب ما علينا إلا أن نطلب —صححت : نطالب— بمحاورة المديرة شخصيا !

هكذا إذن رفضنا جميعا —نحن الداخليات المسلمات— الأطباق وبقينا صامتات. أمام المراقبة المندهشة، أعيدت الأطباق كما هي إلى المطبخ. ترى هل مسعودة هي التي نظمت أيضا المقاومة السلبية ؟ اتخذ القرار : عدم النهوض من الطاولة وانتظار المديرة !

استمر الصخب وكأن شيئا لم يكن. حولي سرت بعض الهمسات وكأن صاحباتها يتزودن بالشجاعة :

– ننتظر المديرة نفسها حتى تحدثنا وتتلقى مطالبنا !

– لنبق جالسات حتى وإن ذهبت الأخريات.

سألت إحدى الزميلات :

– وحين تحضر المديرة ؟

– لا بد لنا من ناطق يتحدث باسمنا ! اقترحت زميلة أخرى فجأة.

حينئذ اقترحت بعضهن اسمي. تظاهرت بالاندهاش :

– أن نطلب هكذا بشكل رسمي طبقا من لحم بدل لحم الخنزير يبدو لي أمرا «تافها !»

ولكن المسألة مسألة مبدأ.

لا شك أنني بدوت مترددة في نظر زميلاتي اللواتي شرحن لي بأن المديرة تقدر –هذا معروف ولكن ليس من قبلي– «جوائز الامتياز» التي تحصلت عليها في السنوات السابقة. لم أجد مهربا. لم تكن لي الشجاعة للاعتراف بأن قناعتي قد تخونني... ولكن هذا قد يعد قلة تضامن. سكتّ إذن وقبلت بالأمر الواقع مستكينة.

ها نحن صائمات نطالب بحضور «العاشرة وعشر» وها أنا أستعد لأداء دور المتحدثة.

التالي علمني أنه من أجل الاضطلاع بهذه المسؤولية، ليست القناعة هي الحاسمة دائما، عندما تجد نفسك

مضطرا للتحدث نيابة عن الآخرين أو حتى بالنيابة عن الجميع فإن ذلك يحدو بك، منذ الوهلة الأولى تقريبا، إلى إبداء حدّة تقنعك أنت نفسك في المقام الأول.

تواصل بروتوكول الأكل بشكل ثابت –جلبة عادية، أصداء وأصوات متعددة ترن تحت الأسقف العالية، تغيير الأطباق، علما بأن أطباقنا عادت من حيث أتت كما هي، وصول الفواكه– ودائما صمتنا المشترك.

هذه المرة، انتصبت مسعودة لترفض مسبقا سلال الفواكه –بحيث فجأة راحت المراقبات يحمن حول طاولاتنا، واستبد بنا القلق دون إظهاره. لقد أمسينا بكماوات

صرخت مسعودة عاليا :

– نريد حضور المديرة !

بعد صمت، أضافت :

– لا داعي لإحضار الناظرة، ثم خلصت بجلال : لا نتحدث إلا مع المديرة !

يذكرني هذا بكتاب أبي حول الثورة الفرنسية -الذي ظل تسليتي الوحيدة بالقرية، وأنا في سن الحادية عشرة، فلم أكن أقوى على القيلولة وكنت أقرأه وأعيد قراءته...

قلت في نفسي: «أجل لقد تبنت مسعودة لهجة ميرابو عند تدشينه الجلسات العامة حين رفض الفصل بين الأنظمة الثلاثة».

ابتعدت المراقبة من شدة الفزع. همست في أذني مسعودة بأنها المؤهلة لتقديم مطالبنا. ردت قائلة:

- لا. أنت ستتحدثين بهدوء وستصغي إليك!

أخذ الصمت يخيم وسط الطاولات المجاورة. بدت المراقبة قلقة. اثنتان منهن تتحدثان بصوت خافت، حائرتين. قالت مسعودة اليقظة:

- الثالثة قد ذهبت لتحضر «العاشرة وعشر». الحارسات الأخريات لا يتجرأن على مطالبة الداخليات الأخريات بالخروج. سترين إنه فأل خير: سترضخ المديرة!

لقد احتفظت ذاكرتي بذكرى دقيقة حول هذا التمرد الصغير. أرى المديرة ذات الطيف الجاف، تقترب مرتدية الأسود كالعادة بسبب حداد خاص فيما يبدو.

تقدمت متصلبة تماما، ثم راحت تلاحظ عن قرب عودة أطباقنا كما هي. عادت مصحوبة بالناظرة –التي بدت منقبضة لأنها دون شك اعترفت بأن مطالبنا هذه سبق أن قدمت لها غير مرة ولكنها لم تعبأ بها. عبرت، إذن، السيدة المديرة كل المطعم الذي خيم عليه الصمت المطبق فجأة، حتى وصلت إلينا بخطى آلية.

نهضنا –نحن المسلمات كما الأوروبيات– بطبيعة الحال.

بحركة واحدة، وهي تدنو منا –طاولات المضربات– أمرتنا بالجلوس.

جلست كل البنات وانتظرن.

«كما في المسرح»، قلت لنفسي، غير أني لاحظت وجه المديرة المنقبض.

– ماذا تردن ؟ ماذا تطلبن يا آنساتي ؟ قالت ذلك بشدة.

كان عليّ أن أنهض وأرتجل في جملتين مطلبنا. لم أحضر أي شيء. لخصت الواقع بكل ما أوتيت من حنكة. كانت السيدة ذات اللباس الأسود تنظر إلي بدل أن تسمعني.

يجب عليّ أن أكون متحدثة جديرة بمسعودة والأخريات : لا بد أن ينطوي خطابي على أكبر قناعة ممكنة، أنا المراهقة التي لم يسبق لها أن تناولت الكلمة علانية.

إنها تتأملني وتصغي إليّ، هذه السيدة التي كان عليّ أن أبدي لها توقيري (شرح لي أبي الوضع الجائر الذي هو عليه عدد من المعلمين، «حتى عندهم زمن بيتان».)

أسمع صوتها المندهش والحذر في الوقت عينه :

– وفي نظرك يا آنسة، قالت ذلك وهي تحاول أن تحول خلافنا هذا جميعا إلى حوار معزول بينها وبيني...

بعد لحظة من الصمت، واصلت وهي تنظر إليّ :

– نعم، في نظرك يا آنسة ؟ ... (وأضافت لقب أبي وكأنها تظهر لي تقديرا خاصا أو تمنّي نفسها بهدنة بيننا.)

أشعر بهذا الضغط الخفي. أنا بالنسبة إليها تلميذة نجيبة، وليس «لسان حال». غير أني تصلبت :

– نعم، قالت مكررة (وأضافت من جديد اسمي تقريبا برقة) ماذا تقترحن... للسيدة الناظرة كطبق تعويضي لكن أنتن المسلمات ؟

أنهت جملتها بلهجة بشوشة ملتفتة جزئيا نحو الناظرة. هذه الأخيرة التي كانت تصوب عينيها الباردتين إليّ، ظلت هادئة الأعصاب.

تفاجأت. ولم أدر ما الأطباق الواجب اقتراحها. في تلكم الفترة، لم أكن أولي العناية لما آكل : كنت أسد الرمق سريعا والفاكهة في يدي، ثم أغادر الطاولة كي أجري في الملعب أو ألتقي بماق لنتناقش.

والحال، لا بد عليّ أن أجيب. لاسيما وأن الزميلات على الطاولتين أو الثلاث المجاورة كن ينتظرن مني جوابا مناسبا ووجيها. لا وبل صارما، ثم راحت جميع الأطباق المألوفة في أيام الأعياد تجول في رأسي : لن يتعلق الأمر بالحلويات، ولا لحم الخنزير، ولا الكسكسي أو لحم الضأن المحمر، فهم لا يحسنون إعداده مقارنة بنا في أعيادنا بالبيت. هيا إذن سريعا، بماذا أجيب ؟ نسينا أن نحدد هذه النقطة من استراتيجيتنا !

المديرة تنتظر. علما بأنها لم تنصب لي فخا...

ها هو «لسان الحال» الذي اختير مجبرا على الارتجال. تزاحمت في ظرف ثانية صور طبقين أو ثلاثة التي تعد في «الحفلات» والمقدمة في داخليتنا بمناسبات استثنائية.

فجأة وجدتها ! اقترحت بلهجة تنم عن الانتصار وبصوت قوي :

– أنا لا أعرف.

تصنعت التردد ثم قلت بما يشبه الفرح :

- مثلا بإمكانكم أن تقدموا لنا «فول أو فون»، هذا الطبق المسمى «فول أو فون» هو طبق استثنائي. فهو يظهر مرة أو مرتين في السنة ولا شك أنه ذو قيمة استثنائية كذلك مثل كعك الميلاد.

استولى الغثيان على المديرة –التي سبق لنظام فيشي أن اضطهدها. أخذت تتفحصني مندهشة، لم تتقبل اقتراحي الذي اعتبرته شاذا. تمتمت ثم رددت مستغربة وقد خيّب ظنها غروري الذي تجلى في الاقتراح :

– «فول أو فون» !

بعد أن مرت لحظة المفاجأة بدت زميلاتي مسرورات أيما سرور : إنه الطبق الأكثر ندرة مع اللحم والفطر والجبن، إذن هو في الآن نفسه طبق ساخن وفاكهة خارقة للعادة... ورحن يرددن بلهجة أقل حدة :

– نعم... نعم «فول أو فون»، «فول أو فون» !

سرى اسم الطبق على مستوى الطاولات الأخرى.

يبدو أني قدمت أمام المديرة اقتراحا خارقا للقدسيات !

كررت المديرة الكلمة بصوت خافت ثم بدت مرهقة للغاية وخائبة بسبب اقتراحي المغرور، التفتت صوب الناظرة التي اغتالتني بنظرتها. بقيت واقفة مندهشة لردة فعل «العاشرة وعشر» التي التفتت وابتعدت وهي تتمتم دون أن تهدأ :

– «فول أو فون»، «فول أو فون»...

لا بدّ لي أن أعترف بأن هذا هو جهد الخيال الوحيد الذي بذلته في مجال الطبخ : وفضلا عن هذا فأنا عاجزة عن استحضار ما إذا كان دور «لسان الحال» الذي اضطلعت به إيجابيا. لقد أصرت رفيقاتي، مثلي، على طبق أطلقن عليه اسم «طبق العيد». ترى هل استظهرن رضاهن حيال جوابي العفوي؟ بالكاد أتذكر ذلك، كما نسيت نوع طبق التعويض الذي قبلناه في الأخير.

بفضل ربي، لم أضطر للتدخل كـ«لسان حال» في مسائل كانت تبدو لي رمزية.

في السنوات التالية، حين أدت حركية شهر رمضان (الخاضع للتقويم القمري) إلى ظهور شهر الصيام هذا في الفترة المدرسية، كنا نصوم إذن نحن المسلمات، في النهار، مع اختلافنا على الدروس. عند العشاء، الذي يصادف الإفطار، يقدّم لنا طبق الغداء...

خلال هذا الشهر، على العكس، نجتمع في نفس المرقد. ثم نستيقظ وقت السحور: في الليل، ننزل مرتديات المنامات وقمصان الحمام في أروقة الداخلية المظلمة إلى غاية قاعة الأكل -كنا آنذاك قرابة عشرين، ثم في السنوات التالية أكثر فأكثر بوصول داخليات أخريات أصغر... بعد تناولنا الكسكسي -بالخضر فالسكريات- حتى نستطيع «الصمود» خلال دروس الصباح، ثم نصعد ثانية ونحن يقظات وناسيات المرقد والإعدادية، ونبقى في أغلب

الأحيان إلى غاية الفجر ونحن نغني أغاني قديمة ونستذكر المدينة والقرية أو الجدة، كل واحدة بطريقتها...

كان النهوض في الصباح بعد ساعة أو ساعتين من النوم صعبا للغاية. علما بأنه بفضل شهر الصيام هذا تعرفت بشكل أكثر حميمية إلى بعض صديقاتي بالداخلية.

ومنذ ذلكم الحين، لم يحصل أي حادث بخصوص الوجبة الغذائية مع الإدارة.

.7
عالم الجدّة من الأم

كانت والدة أمي أرملة متكبرة تتبختر في منزلها الجميل بشرشال، وسط بورجوازيات المدينة العتيقة —في أغلب الأحيان تتقمص دور المستشارة لهؤلاء السيدات اللواتي كنّ يعرفن أنها فضلت الانفصال عن زوجها الأخير (جدي الذي لم أعرفه قط) كي تسيّر بنفسها ممتلكاتها، وهي التي كنت أسمعها في فصل الخريف، وأنا صغيرة جدا، تناقش بصوت جهور بلغة غير مفهومة، في إحدى غرف الطابق السفلي، أحد مزارعيها القادمين من الهضاب كي يقدّر محصول التين والزيتون... إلخ. كانت سيدة البيت تخاطب هذا الفلاح المعمم الرأس بشاش ملوّن باللغة البربرية (وقد قدمت له الخادمات من قبل، وجبة طعامنا لذلك اليوم، في احترام).

كنا نحن الأطفال، آنذاك، نخشى هذه السيدة التي لم نرها تبتسم أبدا، فهي ذات مظهر قاس وكأنها في حداد على الدوام. بالنسبة إلينا، كانت قبل كل شيء «مامّاني»، تصوب عينيها السوداوين المخيفتين نحونا كالعصفور.

أتذكرها في طفولتي، قبل الذهاب إلى الداخلية. كانت آنذاك تتردد على بيتنا بالقرية، يحدوها الحرص على تسوية مشاكلها القضائية لدى محامي المدينة المجاورة –على الأقل لدى أولئك الذين كانوا يعالجون القضايا التي تتعلق بالشريعة الإسلامية.

عندما كانت تقيم بيننا أياما معدودات، كنت حين لا أجد دماي أدرك لأول وهلة بأنها استولت عليها عنوة لتدسها في حقيبتها لتقدمها لابنة ابنها الوحيد، إذ كانت تعتقد أنها الوحيدة الجديرة بهذه اللعب.

حينئذ أتوجه صوب أمي شاكية مصابي، وكانت أمي تستجديني حاثة إياي على التزام الصمت وتفهّم جدتي: كانت تذكرني بأن ابنة خالي، وهي أصغر مني، يتيمة الأم، كي أمتنع عن السخط أمام الظلم السافر. هذه الجدة القاسية وقد كان عمري عشر سنوات أو أكثر قليلا، جذبتني، فجأة خلال إحدى زياراتها، تحت ضوء المصباح وراحت تفحص

عينيّ. جمدت عينها في نظرتي التي لم تنخفض أمامها، ثم التفتت نحو أمي التي دللتها بوصفها آخر العنقود، «المزوزية»، كما كان يقال (كانت الإشاعة قد انتشرت لدى العائلة) بعد هذا الفحص الذي سلطته عليّ، خلصت إلى القول بما يشبه الندم :

– أجل إن عيونها لكبيرة !

لم تقل ذلك بلهجة تنمّ عن المديح، وهي تشعر بأني أبذل قصارى جهدي حتى لا أواجهها وأتحداها.

أمي التي كانت خلفي شعرت بتنامي ميزان القوى بين السيدة المسنة المتعودة منذ مدة على إصدار الأوامر وأنا «المتمنعة ربما» أو «الفتاة الواجب مراقبتها لاحقا»، كأنها بفراستها هذه أدركت بأني سأكون ذات طبيعة عصية عن التصنيف.

في المحصلة، كانت تبدي شيئا من الخشية التي كانت تشهد عليها هذه المراقِبة أو تلك في الداخلية، فيما بعد الضجيج الذي عهدنا القيام به في نهاية كل فصل نحن الداخليات لما ارتجلنا، بعد ذلك بكثير، رقصة الوداع : رفقة نفس الصديقتين أو ثلاث، كنت حريصة جدا على تعزيز شهرتنا كمنشطات لهذه الفوضى المستشرية.

لا زلت أحتفظ في ذاكرتي بالطاقة المرحة لساقيّ حين أقفز على الطاولات في قاعة الدرس. «أنتن تنفّسن عن مكبوتاتكن إذن !»، هكذا كانت المراقبات يقلن لنا شاكيات منزعجات أو متفهمات. ثم يتركننا مستكينات، نواصل هذه الحفلة الصاخبة، نغني ونرتجل رقصات شبيهة برقصات الهنود في ساعة متأخرة من الليل، بينما تصعد جل التلميذات الأخريات إلى المراقد بطواعية.

فجأة أستحضر عبارة مسعودة الساخرة اللاذعة. لا أزال أسمع صوتها عند نهاية الحفل الصاخب :

– لَمِ تفكر الفرنسيات في التنفيس عن مكبوتاتهن ما دامت عطلتهن عطلة حقيقية ؟

ابتسمت. من قبل، كنت سألتها :

– ونحن ؟

– نحن ؟ ردت قائلة. لا شيء يتغير بالنسبة إلينا طوال السنة مع الأسف ! فنحن مسجونات كداخليات طوال السنة الدراسية، ثم في الصيف نعتقل كأمهاتنا. لا شيء يتغير بالنسبة لنا طوال السنة للأسف !

وحين رددت تلك الإجابة أمامي فيما بعد، اندفعت في ضحك قوي، يكاد يكون رجوليا.

أخيرا، صعدنا إلى المرقد، دائما الأخيرات، ولم أتجرأ على أن أقول لها إن الصيف بالنسبة إليّ في مدينة الوالدين العتيقة، كان موسم حفلات النساء موسوما بالاجتماعات المرحة للحضريات اللواتي كنّ يتنافسن من خلال زينتهن وحليهن والجوق الموسيقي عند أرجلهن. أجل، كان الصيف

ينقضي آنذاك في الرقصات والغناء كما في حكايات ألف ليلة وليلة...

كنت أود أن أصف لها منزل جدتي بشرفاته العالية التي تطل على منازل أخرى كنا نرى من خلالها الميناء القديم في الأفق. كنت آوي إليه وحيدة أيام الصيف ساعة غروب الشمس كي أحلم.

من هذه الزيجات الكثيرة، التي تتم دائما في الصيف، أحتفظ بذكريات متشابكة متداخلة مغايرة لأغاني النساء الجماعية. ثمة صور غريبة داكنة تلوح في ذهني : من بينها ابنة عمي هذه الباكية الناحبة غداة ليلة زفافها، وكنت أنا ذات العشر سنوات أو الإحدى عشرة سنة، أرثي وأتألم لحالها، علما بأني كنت محزونة لأني لم أفقه شيئا —وكأن كل ليلة زفاف، المحتفى بها بزخم من طرف الجميع، تتطلب تضحية غريبة مفروضة على العروس التي تتحول بفضل حليها وزينتها إلى معبودة، ولكن وجهها المدعوك في الصباح الموالي، يجعل منها إيفيجينيا في الإسلام.

في الصباح، بعد ليلة الزفاف، ترتجل الموسيقيات، بواسطة آلات القرع، إيقاعا خفيفا مرحا. ورغم عيون العروس المعبودة التي ما تزال محمرة جراء البكاء، ارتفع

صوت النساء بلازمة التبريك –ما عداي أنا التي كنت أود أن أبكي مع هذه العروس المحزونة. في هذه الأثناء، كانت أمي تهمس لي :

– هيا، لا تحزني، هذا لا يليق !

أضافت امرأة أخرى :

– هذا نذير شؤم !

عندئذ، تنبري فتيات هن صديقات العروس، يهمسن في أذنها عبارات تحثها على الصبر، غير أن واحدة منهن أخذت في البكاء بدورها في صمت.

– إنها أختها الوسطى : تبكي فراقهما. شرحت لي أمي ذلك.

كنت صامتة، قلبي منقبض وغير مرتاحة لهذا المزيج من الدموع والأغاني المتصلة المدعومة بالطبل، إيقاعها يتزايد، ما جعل إحدى المدعوات، وهي في الغالب امرأة مسنة ناضجة مكتنزة، تنتصب أمام الموسيقيات وتتحرك بوقاحة.

إن هذه الذكريات المتشابكة عن عطلة الصيف في مدينتنا القديمة، كنت أرسمها لمسعودة كي أستحضر من

أجلها العالم النسائي المسيّج، ولكنه ذو صور ملونة متباينة : صيف كانت تتعاقب فيه الزيجات، من شرفة إلى أخرى، وحيث أصوات الفرح تطغى على النحيب المخنوق جزئيا لهذه أو تلك...

تنهدت مسعودة قائلة :

– أنا وأمي نعيش في قرية ! باستثناء الحمّام، وعندما نكتفي في الواقع بالنظر من نوافذنا إلى الأوروبيين وهم يرقصون في الساحة، فليس لدينا تسلية أخرى !

أجبت بقولي :

– عند جدتي، يمكن لعطلتنا أن تكون مرحة ومتنوعة : البورجوازيات، المحجبات بالطبع، يكثرن من تبادل الزيارات.

لماذا لم أكن أستطيع أن أقول لمسعودة كم كان يطاردني وجه العروس الشابة المكدر ؟ فلطالما سعيت إلى طرد المشهد من ذاكرتي في الليل بالمرقد، أحيانا كنت أرى من جديد الدموع تنفخ وتشوه وجه عذراء الأمس (كان عليّ أن أكون ضمن الموكب الصاخب الذي رافقها حسب الأعراف) : كانت جبهتها، أمس، تلمع لمعانا، وكان

غبار الذهب ينبعث شرارات من شعرها وأهدابها... ومع ذلك، في اليوم الموالي، ظهرت حزينة جدا ! حاولت أن أفهم طبيعة آثار هذه الهزيمة الخفية أو هذه المأساة التي أبطلت رونق الأمس...

فجأة تعذر عليها الإفصاح عن هذه الخيبة أو بالأحرى هذا الحزن اللاهث، بحيث إن البروتوكول الدقيق والحاذق الذي نظمته سيدات من كل الأعمار، ليلة أمس، الذي زيّنها كعروس أسطورية انبعثت من حكايات الشرق، قد تلاشى أمامنا منذ الفجر. لم يكن ثمة تبريك ولا آهات تصاحب هذا الانهيار ! لقد لاحت أمامي خيبة قاسية كما لدى العروس الشابة ليوم، عذراء الأمس.

جرى ذلك (ذكراي تأخذ في الدقة) عند جيران جدتي : على وجه العروس قرأت بشكل غير دقيق الخيبة البينة، وحلم عذراء اغتصب في ليلة واحدة –لا شك أنه تمزق مبرم.

قد يحصل حتى في قلب العرس، غداة ليلة الزفاف، أن تبكي العروس المحتفى بها، بكاء يضاهي بكاء الأطفال.

بعد ذلك بكثير –لأن هذه الأعراس وفولكلورها الذي ترعاه الجدات وكأن الأمر يتعلق بالتخفيف من خيبة الليلة

الأولى، تكررت في طفولتي– لم أقو على نسيان قريبة شابة ذات جمال أصيل. لم يمح وجهها الحزين الصامت من ذاكرتي. لقد أثّر فيّ أنا المراهقة التي تأبى الأسرار المهموسة والاعترافات المتمتمة، أي كل هذا التواطؤ الذي ألفيته مهينا.

عمّ كنت أبحث يا ترى؟ أو بالأحرى ماذا كنت أتجنب؟ كنت إذن أتجنب خيبة البعض، بينما كان الوئام السري واللامع وحب أبي لأمي يطمئنني منذ البداية، فلا شيء من عالمي القريب كان يهيئني لخيبة النساء التي كانت تتجلى خلال جل الأعراس ولكن ما تبقّى من جمال شرقي كان يحاول التخفيف منها، كما فولكلور الطقوس والملابس.

لم أعد أحتفظ من هذه الأعراس إلا بالكنز الصوتي الذي تنطوي عليه التراتيل الممزقة ووخز الشكاوى –إرث من الفرح والحزن في الوقت ذاته، لفّ سذاجة عمري فمراهقتي الحالمة المأهولة ببطلات مسرحيات كلوديل وروايات جيرودو في الآن عينه.

8.
جاكلين... في المرقد...

أتذكر، وإن من بعيد جدا، تطور مراهقتي الأولى في هذه الفترة التي كان عمري فيها لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة.

الكتب التي طالعت؟ بل أقول الكتب التي التهمت وتصفحت بحمّى وكأني أستجيب لنداء بعيد، صفحات مطوية أو مقطعة مخفاة، تحت غطاء السرير، ومصباح كهربائي بيدي. يمكنني قياس توسع رؤية هذه الداخلية التي هي صورتي الأخرى المضاعفة، خطوة خطوة أو بالأحرى صفحة تلو الأخرى، انطلاقا من الطفلة ذات الإحدى عشرة سنة، «الطفلة الرزينة العاقلة» التي كانت تشعر بنظرة الأب المصوبة إليها، هذا الأب ذو الخطاب المفعم بالذكريات حول نفسه –وهو الفخور بأصله من

حيث كونه «نجل الفقير» وكذلك بالطبقة الرعوية لأسرة زوجته.

لماذا عند ولوجي المتردد للمراهقة الهشة جدا، ولكن غير الواعية بهذه الهشاشة، نعم لماذا أحسست بأني على الهامش إلى جانب فرنسيات من سني، وهن اللواتي كنت أحاذيهن بالداخلية، لاسيما جاكلين، جارتي في المرقد ؟

في كل مساء، عند مجيء الخريف، كانت تتحدث بإطناب عن غرامياتها الأولى وهي مفعمة بالحرية التي تمتعت بها خلال عطلتها على شاطئ البحر. كانت تسميها «مداعبات»، ولكنني لم أجرؤ على أن أطلب منها تفاصيل حول هذا المشهد أو ذاك. كانت تصف عالما ذا طبائع غريبة جدا تحت أنظار أمها الشابة أو أخ متغطرس. كان سريرها محاذيا لسريري، وكنت مائلة نحوها أصغي إليها باندهاش أخفاه لحسن الحظ ظلام المرقد. قالت جاكلين :

– المداعبة... تريدين أن تعرفي حقا هذا الشيء ؟

وراحت تبحث في ذكرياتها الصيفية : نسيم البحر، فوانيس كشك الموسيقى التي ضعف بريقها، أمها التي نسيت نفسها مع صديقاتها في حوار السيدات.

– إذن، همس صوت جاكلين المرتعش، وهي تنحرف ساحبة إياي، أنا الطفلة مثلها، إلى حريتها المتشردة في الأيام الخوالي. إذن تريدين أن تعرفي بالضبط ما هي المداعبة ؟ حسنا...

كانت تصف دون أن تصف. كانت تحياها من جديد بشيء من التهييج، بينما كان صوتها الهامس قرب سريري يرسم بداية مشهد :

– الفتى...

(قلت في نفسي : لماذا هذه الكلمة : «الفتى» بل رجل شابّ حقا دون شك. وكأني من شدة حرصي على أن تبقى جاكلين صديقتي يتعين عليّ الامتناع عن الحكم عليها لكونها فرنسية –تقول نساؤنا : «إن الفرنسيات في ديارهن لا يتحلين بالعفة !» وتنبري هذه القريبات في الإشفاق على هؤلاء الأجنبيات، بدل الإشفاق على حالهن !).

في هذه الأثناء، كانت أذني ممدودة نحو جاكلين، وقد سمعتها تذكر شذرات من ذكرياتها :

– يأخذ الفتى يدك ثم تصعد أصابعه إلى غاية ثقب المرفق ! بعد ذلك يلصق صوته بأذنك ويقول لك برقة فائقة : «قبلة ! ... قبلة صغيرة !» حينئذ إن كنا وحيدين فلا بأس، نعم يقبلني ويضمني و...

– وبعد ؟ قلت غير مصدومة بموقف جاكلين السلبي، بل تحفظا أمام هذه السلوكيات التي لن تكون من سلوكياتنا أبدا !

صوت آخر ردّ بداخلي : «أنت معجبة بجاكلين وأناقتها وحركاتها اللطيفة !».

– أجل، لقد قبلني... طويلا ! قالت يحدوها الحنين.

لم ألتمس تفاصيل أخرى. فتر فضولي : لقد مسرحت جاكلين مشهدا مضللا جدا بحيث يخيل للمرء أنه حصل في كوكب آخر !

لن أحدّث أمي عن هذا الأمر، وبخاصة أبي. لأن كلمة شرف في هذه الحال، عندنا، تصل سريعا. والحال إنني شعرت –وبعزم فولاذي– بأني عصية عن المساس. استجمعت في نفسي هذا «الشرف». فكرت في الأمر باللغة العربية (ربما قصد التماس العذر لجارتي التي لا

تتكلمها... هي التي قد تجد هذه الكلمة المنمقة باللغة الفرنسية، ملائمة فقط لتكون في مسرحية من مسرحيات كورناي) !

قلت وقد هالني انقياد جاكلين واستهتارها في المشهد المستذكر : هذا غير معقول، وفضلا عن هذا تبدو فخورة بما أقدمت عليه ! أما أنا فقد بقيت صامدة في التشبث بقيمنا. بل سأذهب حتى إلى الإشفاق على هذه الصديقة : فأن تترك جسدها يعبث به ذراع رجل غريب أمر يبدو لي حيوانيا... والطهارة يا آنسة ؟ والعهد المبرم –وإن بشكل غير صريح– مع الأب ؟

لحسن الحظ، لن يكون أبي هنا أبدا في هذا المرقد، ولن يسمع ولن يحكم على جاكلين !

لو جاء أبي ذات يوم ليفاجئني في ساحة الداخلية، فسيراني طوال الفسحة أقفز وكرة السلة بيدي. سأرمي الكرة من وسط الميدان وسأنجح في إسكانها السلة مرات ومرات !

ولكن لنتصور طيفه غير المرئي في هذه الداخلية وهو يتسلل بين سرير جاكلين وسريري : في مقدوره أن يسمع بدوره اعترافات المراهقة الأوروبية. ورغم هذا، سيقرأ

في قلبي، وسيحفظ ثقته بي. إنه يعرفني «صادقة ووفية» ولكن وفية لأي شيء : وفية له وهو الأب الحارس الرقيب والأب المتشدد ؟ كلا إنه الأب الذي منحني حريتي بشكل حازم ومبرم !

غير أني خلصت إلى الإصغاء –أنا المراهقة– لاعترافات جاكلين الصغيرة في المرقد : بدت لي حريتها عبارة عن وقاحة وخرق بل مغامرة حقيقية ! يمكنني بعد قليل أن أحوّلها إلى بطلة رواية غربية أي «من عندهم»، هي التي كنت، خلال النهار، ألاحظها من بعيد، في الفناء أو المطعم بين صويحباتها الأوربيات، بينما كنت أحب أن أظل وحيدة، رفقة كتاب، أو ألتحق بالجماعة الصغيرة «للمسلمات»، حيث كان يسود الفصل حتى في الداخلية.

رغم مئزرها الأزرق زرقة البحر، المفروض على الجميع، فهي ترتدي في الأسفل المرئي من جسدها أجمل الألبسة : تحتفظ بمظهر السيدة الصغيرة، لا تبتسم ولكنها تظهر الثقة بالنفس وراحة المرأة ! أشعر بالإعجاب نحوها. هكذا نعمل على إخفاء حميميتنا واعترافاتنا في المرقد.

لا شك أنها على وعي بأني أصغي إليها كما لو من ضفاف أخرى. لن أفشي أسرارها أبدا لا لأبي ولا حتى

لأمي. أما بنات عمي المقيمات في الضيعة القريبة من مدينتنا شرشال، فقد لمّحت لهن إلى المقصود من «المداعبة» حسب جاكلين. غير أنهن لم يبدين الاندهاش. في المحصلة، لم أعلمهن شيئا فيما يبدو.

فحسب ما أسرّت به لهن -دون اعتباره محظورا- صديقتهن الفرنسية، فإن بنت الدركي، وهي بنت طويلة عمرها ثماني عشرة سنة، لا تتحدث عن نفسها بل عن أختها الأجمل والتي تعيش في العاصمة حرة... إذن...

بيد أني كففت عن الاستماع : تدخلت أكبر بنات عمي، والتي ستتزوج عن قريب : إنها محظوظة جدا -حظها لا يقدر بثمن في مجتمعنا- لتعرفها مسبقا على زوجها بما أنه ابن عمها. أما هي فتغبط بالأحرى الفرنسيات.

توقفت عن استذكار جاكلين. أشعر بأني لو تركت نفسي تنقاد لوصف مفاجأتي بالمرقد واعترافات جاكلين، فإني سأبدو حتى في نظر بنت عمي، التي تنتظر بفارغ الصبر ليلة زفافها، «فتاة بريئة».

هناك جارة أخرى، عابرة سبيل في هذه القرية والتي تقيم بالعاصمة، قدمت حكما لاذعا :

– الفرنسيات ؟ كلهن فاجرات !

أطلقت الصفة هذه باللغة العربية : بدت لي الكلمة أكثر قبحا من مقابلها الفرنسي الذي همست لي به قريبة في مثل سنّي، مكانها. صدمني ذلك : فجاكلين صديقتي، أحس بأني مجروحة. أشير برأسي أن لا : لن أقول لهن أي شيء عن الداخلية، من باب الوفاء لجاكلين، ولن أستحضر اعترافاتها. وبصنيعي هذا، سأنساها بدوري نسيانا مبرما.

لماذا يتميز في ذاكرتي، بعد وقت طويل، صوت وأناقة المراهقة المسماة جاكلين عن هذه الزمرة من «الفرنسيات» ؟ هي من قريتي، ولكنها لا تعود مثلي إلى القرية يوم السبت على متن الحافلة.

منزلها –كان أبوها دون شك معمرا صغيرا– يقع في وسط هذه البلدة التي لا تبعد كثيرا عن عمارتنا المخصصة للمعلمين. لم ألج منزلها كما لم تلج هي الأخرى منزلنا. لا ريب في أنني بمجرد العودة إلى القرية حيث أجد الفضاء العائلي، أستعيد بشكل غريزي «صفي»، صف مجموعتي أي «الأهالي»...

هكذا إذن ظل التقسيم الاستعماري مستمرا : عالم منقسم إلى قسمين كل واحد منهما غريب عن الآخر كبرتقالة لم تقشر بعد وتقطع كيفما اتفق بضربة واحدة دون سبب ! يحسن في هذه الحال استبعاد الأجزاء فالفاكهة المقطعة على هذا النحو منذورة للرمي !

لا أراني إذن –لا في سن الثانية عشرة ولا الثالثة عشرة ولا حتى بعد ذلك– أجتاز العتبة العائلية لإحدى زميلاتي الأوروبيات، حتى وإن كانت الهمسات المتبادلة فيما بيننا مع جاكلين الجميلة تستمر إلى ساعة متأخرة من الليل.

.9
الجسد المتحرك

الملعب بخاصة. هناك، وأنا بمفردي، تحت الشمس، مرتدية التبان الرياضي وأحيانا التنورة. أقفز وأنطلق. على هذا الملعب، تغمرني حريتي جسدا وروحا مثل شلال غير مرئي لا ينضب.

يقع ملعب كرة السلة داخل الإعدادية في أحد الفناءات الثلاثة. في الساعة التي تنتهي فيها دروس النهار، في الساعة الرابعة إذن، بينما تتأهب الخارجيات ونصف الداخليات للالتحاق بأسرهن في المدينة مساء، سواء راجلات أو ممتطيات الدراجات أو على متن السيارات —يظل هذا الفضاء المغلق في متناول الداخليات ليس إلا.

هذا الفناء مسيّج ولكن ليس تماما — فمن جهة واحدة على الأقل، يطل على المنازل العالية الخاصة على امتداد شارع ضيّق. في السنوات الأولى بالإعدادية، كان الفناء

يمثل بالنسبة إليّ فضاء حرية بدا لي شاسعا. ذلك أنه، بين سنّ السادسة عشرة والسابعة عشرة، كان هذا الملعب المرتجل في متناولي.

بالكاد كنت أذهب للحصول على لمجتي (خبز وفاكهة وقطعة شكولاتة). أحيانا جراء قلقي يحصل لي أن أعزف عنها. لم أكن أرتدي التبان، اللهم إلا إذا سبق درس الجمباز ساعة الفسحة. كنت إذن أتشوق لاحتلال هذا المكان الخالي. أحيانا كنت أتقاسمه مع صديقة.

في هذه الحال، أحتجز سلة ونصف الملعب. وكانت المراهقة الأخرى تفعل الشيء نفسه. عند دنو النهاية، نتبادل الكرة راكضات وكأننا قررنا تسخين العضلات من أجل مقابلة وشيكة.

كنت أصوغ متعتي في الغالب بمفردي وكان كبريائي (بما أنه في فريق لاعبات كرة السلة، لم أكن أتصور نفسي إلا مهاجمة) يقوم على إنجاح رمياتي بدقة وقوة انطلاقا من وسط الميدان.

هكذا ألفيتني أجري و«أراوغ» من جهة، ومن جهة أخرى أتخيل اللاعبة الخصم وهي تنوّع الحيل ضد الخصم المفترض. بعد نصف دائرة أولى، وأنا منحنية ذاهبة آتية من

جهة إلى أخرى، يتلاشى الجهد الأخير في انبثاق مفاجئ لجسد صوب السماء، في استرخاء الرجلين، والوركين، مصوبة الذراعين نحو السماء التي أضحت فجأة رحبة وهكذا قيّض لقوة العضلات المضاعفة أن ترسل الكرة بعنف شديد، ولكن ليس بالدقة الفعالة دائما : تدخل الكرة إلى السلة أو على العكس تجانبها بقليل.

في هذه الحالة أو تلك، أعيد الكرّة دون توقف، مقدرة نجاحاتي وإخفاقاتي. هكذا كان عليّ أن ألعب جميع الأدوار : الخصم الذي يسعى إلى مواجهتي حين أراوغ، ويضايقني إن اقتضى الأمر، ولكنني أحتال، أتقهقر منحنية دائما ومقدرة مسافة متعرجة ومستعيدة الكرة بيدي اليمنى أو اليسرى (وإن كنت لست بالعسراء). المهم أن أحسن التصويبة أحيانا بالتقدم في شكل نصف دوائر قصيرة ومتعاقبة. كان عليّ أن أنجح في ارتجال –عيني تقدر المسافة التي تفصلني عن السلة– الانطلاقة المحررة ! في ظرف ثانية، بينما تنطلق الأرجل عاليا، وتتصلب ركبتاي بطاقة أشد، بفعل قوة الذراعين وحدهما –اللذين يمكن اعتبارهما فجأة أجنحة ملائكة أو شيطان قد فرّ من غابة بعيدة– قلت في ظرف ثانية أو ثانيتين، تتجه معاصمكم

أو أياديكم صوب السماء بالدعاء... تلقون الكرة صوب عالم آخر، ويحسن بكم مراقبة الخصم قبالتكم، وكأنه حصن منيع ! وفي كل حين، كم هو جيد وكم هو ماكر أن ترصدوا بطرف العين، خصم الدفاع قبالتكم، كحصن منيع أو عنيف : عليكم أن تتنبؤوا بهفوته، بالقفز عاليا، بحيث تكاد تبلغ أيديكم مستوى السلة، هدف كل التطلعات.

بعد ذلك، يجب عليّ أن أتنفس الصعداء وأستعيد تنفسا منتظما، وأن أشرب كأس ماء. ثم أعود لمواصلة اللعب بهدوء في مستهل الأمر ثم بإيقاع أشد، في هذه الأثناء تنتهي ساعة الفسحة : فالجرس يدعونا جميعا إلى الاصطفاف أمام الأقسام.

في أغلب الأحيان، أصل دائما الأخيرة منهكة. ولا بد لي من بعض الدقائق كي أتغلب على تعبي. أقوم بذلك سرا، لأن إحدى المراقبات تعودت على أن تلاحظ عليّ كوني أبذل جهدا جما وبأن ساعتي الدراسة لا تكفيان لفروض الغد. غير أن المراقبة الأخرى تبتسم لي ابتسامة مشوبة ببعض اللوم.

خلال الدراسة المسائية، أنهي فروضي بسرعة –أحيانا قبل االنهاية– على الأقل في الأوقات الأولى، آخذ توليفاتي الموسيقية وأتوجه للغرفة في خضم وحشة «قاعة الحفلات»، وهنا يكون الحماس ذا طبيعة أخرى : أصابعي التي يجب أن تلين وظهري الذي يجب أن يستقيم، وبداية حلم غير مأمون، لهنيهات في العزف.

لكن ويا للأسف، فإن هذا التعلم، كما رأينا، لم يعمر، إما بسبب القلق أو دون شك لانعدام الاستعداد الفطري.

قد يحصل أن تبعث ذكرى بغتة انطلاقا من شيء تيمي. شيء؟ كلا، الأمر هنا يتعلق بقماش أو ثوب خفيف! فستان، ولكن ليس أي فستان، فستان مقوّر مكشوف الرقبة والكتفين مع قميص فضفاض -هذا الصدار الذي يغطي كتفيّ العاريين!

الكتفان العاريان، لم هذا التفصيل؟

ارتداء فستان مع ظهر وكتفين مكشوفين -ولكن ليس في الخارج... حين تتقدمين في الشارع دون حايك ودون وشاح على الشعر، ودون أن تغطي الجسم كله ما عدا العينين، فإن ذلك يعني بالنسبة «إليهم» السير عارية! والحال إن هذا الفستان يكشف نهائيا وإلى الأبد الظهر والكتفين، والخياطة تزعم أنه «فستان جريء بعض

الشيء»، وكأن الفستان هو الذي يجرؤ وليس صاحبته التي ترتديه دون حياء أو عفة !

كم كان عمرك في هذه الذكرى –لنقل– النسوية جدا ؟ هذه الصفة «عارية» تطفو أمامي أنا (هذه الأنا المسكونة بأصوات مزعجة)، وشيئا فشيئا تحتك بجسمي : كتفاي العاريان إذن، في أي ظرف وفي أي سنّ ؟ حركي ذاكرتك، اجعليها تتنفس ! أنسيتِ ؟

ومع ذلك، يتعلق الأمر بجسدك وإن بعد عقود من الزمن (وكأن الذاكرة النسائية كلها كانت بحاجة للالتصاق بجسد مصنوع لا من خشب بل من لحم وعظم وجلد ! وحتى وإن كان منذورا للشيخوخة فهو الآن يتحرك ويعيش !).

بعد عقود خلت، لا زلت أشعر بتصلب الكتّان وانزلاق الطية (من الحرير أو الساتان). أرى لون الأزهار الحمراء والبنفسجية في خلفية سوداء لهذا الشيء –فستان وقميص فضفاض معدل– قد خيط وفق تعليمات دقيقة قدمتها أنت للخياطة التي قررت أمك أن تدفع لها أجرها، من باب تشريفك بدفعها هذه المصاريف، من أجلك أنت التي تشكين من كون أمك لا «تحبك بأمومة» كما تقولين :

فصلت هذه الجملة الفرنسية في الحكاية التي رويتها لماق، صديقتك التي أخفت اندهاشها : لأول مرة لم تؤلبا روسو على ديدرو وبلزاك على استندال، وكلوديل على من إذن... أنت بدأت بالحديث عن جيرودو، وأما ماق فكانت تضحك من أذواقك الأثيرة. أما أنت فأجبت بقولك في مقدورها أن تختار كلوديل، ولكن وقبل كل شيء هل كانت تفهمه دون أن تكون كاثوليكية مطبقة للطقوس، ولم لا يكون جيد الذي جاء، على الأقل، مارّا «بديارنا» ووصل إلى غاية بسكرة ؟ عندئذ التزمت ماق الصمت وكأنها تقول : «جيد آه لو كنت تعلمين حقا من أجل من ولماذا... ».

ها هي المناظرات المستمرة قد عادت بيني وبين ماق ! ذلك أنك أصررت على أن تصغي لها، عند العودة الخريفية، «فستانك الأول الحقيقي»، الفستان الذي أهدتك إياه أمك الصيف الماضي وكأن لسان حالها يقول : «كوني أنيقة، يحق لك ذلك ! ».

لقد فحصت أنت وأمك قطع قماش نادرة لدى أحد التجار اليهود أو العرب في الشارع التجاري العتيق بالبليدة، كل منكما تجس الحرير أو التفتة.

هل كنت ترغبين لأول وهلة في قماش... جذاب قليلا؟ لا ليس بالتحديد! صوبت إصبعك نحو ساتان مرن ذي أزهار حمراء وبنفسجية في خلفية سوداء. إنه جذاب بعض الشيء؟ ترددت أمام نظرة أمك المندهشة، ولكنك -رويت ذلك لماق- سرعان ما رأيت الفستان جاهزا: كتفاك عاريان وظهرك نصف مكشوف مع قميص فضفاض يوضع في الخارج حتى تظهري «عفيفة».

- ليس في الخارج فحسب يا بنيتي! نصحت أمي قائلة بلطف. فحتى في أعراسنا بين النساء قد تصدمين جلهن!

- ولكنهن جميعا مكشوفات الرقبة والكتفين، في أعراسكن!

إزاء احتجاجك، شرحت لك أمك بأن النساء، بعد زواجهن، وخاصة بعد أن يصبحن أمهات مرضعات، بإمكانهن الظهور وقحات: لاسيما وأن ذلك يجري بين النساء. ولكن أنت، وعمرك لا يتجاوز أربع عشرة سنة، كانت تحكم عليك بـ«الوقحة».

لم أعد أسمع. رفضت ولوج هذا المنطق، منطق السيدات المسنات اللواتي يشكلن محكمة ضد بناتهن أو بنات صديقاتهن!

كانت ماق تصغي إلى حكايتي هادئة. قلت :

– قبلت أمي في الأخير باختياري : بالطبع سأرتدي في الخارج قميصا فضفاضا يغطي الذراعين والكتفين !

أنت فخورة بانتصارك النهائي على أمك. أما ماق فهي تسخر من أناقتك وغنجك. وترد –في ساحة الإعدادية، حين تهم كل واحدة منهن بسرد عطلتها الصيفية للأخرى :

– هذه التفاصيل دعيها لصديقتك جاكلين التي تزعمين أنك معجبة بجمالها وزينتها !

إنها تسخر مما تسميه «تناقضاتي».

أدارت ظهرها معربة عن قلقها إزاء ما تراه عندي من قبيل التفاهة. أحرك كتفيّ. هذا صحيح : اشترت لي أمي أخيرا هذا القماش الأسود، ولم الخجل من هذا الأمر ؟ فلا يمكننا العيش دائما بالمئزر الأزرق المفروض على الداخليات !

تمّ الاحتفاء بالعديد من الزيجات الصيف الفارط، في مدينة شرشال العتيقة، وقد تمنيت أن أرقص أنا أيضا في حفلات النساء. وقد كانت فراستي في محلها : كان فستاني ذاك فستانا حقيقيا يليق بالرقص !

بعد ذلك بكثير، عاد كل شيء : اختيار القماش ثم بعد العودة إلى شقة القرية وفتح فهرس كبير، صوبت إصبعي نحو نموذج :

– هذا بالضبط الفستان الذي تخيلت !

– الظهر والكتفان عاريان ! قالت أمي مذعورة.

اكتشفت فجأة كم تغيرت : أنا الآن فتاة شابة ولست طفلة كبيرة.

– أجل هذا النموذج ! الظهر والكتفان عاريان ولم لا ؟ العرس يجري بين النساء... وأنت ترين بأن هناك قميصا فضفاضا !

استسلمت أمي للأمر الواقع وهي تقول :

– عديني بأنك ستحتفظين بالقميص في الشارع! أبوك...

– أبي لا يأتي إلى وسط النساء في عرس ابنة العم، أليس كذلك؟

سكتت أمي طويلا وقد لاحظت تهيجي الجديد. إنها لا تعرف بأني أحب منذ مدة قصيرة الرقص بمفردي بين أربعة حيطان على إيقاعات مختلفة: رقصة أرتجلها لا لأشاهد نفسي أو لأعجب بها، بل فقط لأحس بالدفق الصوتي يسري في أخمص قدمي ثم على امتداد ساقيّ حتى يغمر جسمي إلى غاية بلوغ السرعة القصوى للموسيقى. أنا أحلم بصورتي الشخصية، أحلم وأنا نائمة عارية بين أغطية السرير، أغني داخل رأسي: في حفلة أمام عشرة أزواج بل مائة زوج من العيون لسيدات مسنات ورجال وحيوانات. سأنسى كل شيء ماعدا هذه الموجة التي تتسلل ببطء أو بشدة عبر أصابع الرجلين إلى غاية كليتيّ وظهري وكتفيّ! نعم حتى وأنا عارية بين أغطية السرير، في ليالي الصيف، دون موسيقى، أمرّن جسمي على الترنح...

خلال هذا الوقت الذي استغرقه حلمي، ظلت أمي تلاحظني ساكتة، فأبتسم لها وأطمئنها:

– أعدك يا مّا : لن أظهر أمام أبي عارية الكتفين بهذا الفستان ! لن يرى شيئا !

– ولا في الخارج، أليس كذلك ؟

– و لا خارجا (أعانقها)، ولا في الشارع !

وفجأة اعتذرت أمي من خشيتها وقد اعتراها الخجل وهي تمطط شفتيها كطفلة صغيرة. في الأخير انصاعت للأمر.

في اليوم الموالي، ذهبنا عند الخياطة بقصد تجريب الثوب عدة مرات. قمت بتجريبه خميسين متتاليين. أخيرا ها هو الفستان جاهز.

كان ذلك في منتصف شهر جوان. كان عليّ أن أنتظر أسبوعين آخرين قبل الذهاب إلى شرشال. تم الإعلان عن أربعة أعراس بين الأقارب والأصهار، وكذا عن ختانين أو ثلاثة.

قررت :

– لن أذهب إلا لحضور عرس واحد من أعراسكم !

وبعد بضعة أيام، عندما أعدت أمي الحقائب، ثم التقت العائلة لدى والدتها.

كنت آنذاك على جهل بطبيعة آخر صيف هناك. قالت أمي :

– هيا يا بنيتي كفي عن نزواتك !

أخيرا قبلت بأن تراني في هيئة فتاة شابة. ولا شك أنها منشغلة بالتعاليق المستقبلية التي ستصدر عن صديقاتها، بيد أني لا أعبأ بها.

– سأختار الحفل الذي سأرتدي فيه هذا الفستان. أما عن أعراسكم وحفلاتكم التي تدوم ثلاثة أيام وأحيانا سبعة أيام، أتظنين بأني سأتحمل كل هذا ؟

أتظاهر بالغباء. قد أكون كذلك بعض الشيء. على حدة، أقول في قرارة نفسي بأني أهفو إلى التبختر بهذا الفستان ذي الكتفين والظهر المكشوفين : «فستان فتاة حقيقي». أجل لقد قررت أن أنتصب ولو مرة واحدة وسط حلقة المدعوات –فجأة تصاعدت ذكرى من ذكريات الطفولة : أنا الطفلة الصغيرة بين حلقة النساء، جالسة عند رجليّ أمي الجميلة جدا : ظل نظري مصوبا هناك على عتبة الباب الكبير المشرّع على «المتلصصات» المحجبات، ولكنهن غير مدعوات، واللواتي كان من حقهن مراقبة الحفل : وهن مجهولات الهوية حيث أنهنّ لم

يكنّ يشاهدن سوى بعين واحدة كل سيدة جالسة بزينتها الجديدة وحاملة لكل حليّها والعروس المتجمدة كصنم، بينما هؤلاء المحجبات الواقفات عند الباب والمقنعات، كن يفحصن كل شيء: جمال العروس وزينة كل واحدة من المدعوات، وما إذا كان الجوق الموسيقي كاملا إلخ... قبل أن يرسلن تعاليقهن إلى جميع منازل المدينة ابتداء من اليوم الموالي.

هؤلاء الجاسوسات سيرينني إذن في هيئة فتاة شابة، قررت دون سابق إنذار (ولتذهب الأعراف المنافقة إلى الجحيم) أن تنتصب بغتة بهذا الفستان الأسود ذي الأزهار الحمراء والبنفسجية كي ترتجل رقصة قديمة متفاخرة، أثقلها بعض التردد، ثم بعد تسلل الإيقاع المهتز للطبل في نفسي، رغبت في الالتفاف حول نفسي بينما الإيقاع لم يكن متسارعا، حيث كانت الموسيقيات يتحكمن فيه، سأرقص أمام جميع النساء كما يحصل لي في الغالب في سريري وأحيانا في أحلامي...

في البدء، أرقص ببطء مثل الطاووس، ثم بخفة وحركات مفككة مثل رقصة عالمة، لأختمها مع اهتزاز كتفيّ، وأنا أبسط ذراعيّ العاريين على وشك الاستلقاء على الأرض،

مع ذلك أستعيد بعض الارتفاع، أترنح تحت الميلان الفاتر لكامل جسدي، وفجأة يبدو التقبب البطيء والكتوم لثدييّ المقلوبين باتجاه السماء، وهذا التثاقل، هذا الغثيان، هذا التعري، الانقباضات المنكمشة والممتدة لهذا الجسد الأنثوي الذي راح يولد، للعذراء الصامتة، للنار الموقدة، للزهرة التي لم تتفتح بعد...نعم، بفضل ذلك الفستان الأسود المبرقش بالأحمر وشبه البنفسجي، يحدث أن يُنسى جمعُ النساء الناضجات، والأمهات القلقات من رؤية بناتهن المراهقات يتحررن مبكرا، في ظرف دقيقة واحدة أو ساعة بالتمام، خوفهن المفاجئ (الأمهات) من عين الحسد، التخوف من الذَكر الأول الذي سيشتمّ ثم يطفئ، يخنق، يرغب في أن يسحق تحته هذا الجسد المنفتل كجسد الإلهة ديانا. هذا ما حدث بعد تلك النظرة المشرقة من شباب ذي عنفوان، ما زال يجهل التغيرات الواجبة التي سيتعرض لها.

حين تنهكني رقصتي الأولى أمام هذا الجمهور المكون من سيدات مسنات، ألتحق بمربع الفتيات الشابات اللواتي فاجأهن تحوّلي المباغت والفريد إلى راقصة عالمة.

– أكنت ترقصين هكذا في الداخلية ؟ سألتني ابنة عم بعيدة وهي تتطلع إلى معرفة حياتي بالداخلية، التي بدت لها لا كمعتقل بل كعالم من المحرمات المسكوت عنها.

– أحيانا. وفي الغالب عند دنو العطل : نحن ثلاث أو أربع بنات نرقص على الطاولات مثل شيطانات جموحة.

قلت في نفسي : «لا شيء سوى الأناقة التي وددت لأول مرة أن أجعل هذا الجسد الناضج يعبر عنها».

عند الدخول المدرسي التالي، قالت لي السيدة بلازي بلهجة تنمّ عن المفاجأة البينة :

– في هذه العطلة (كانت الوحيدة التي تناديني باسمي) زاد طولك بعشرة سنتمترات على الأقل !

بعد هذا، أخذت أحبذ الأعراس التقليدية من أجل الرقص ليس إلا. أعترف بذلك : أصبحت أرقص من تلقاء نفسي دون أن أنتظر دعوة أحد. في صلب حلقة المدعوات -أحيانا بمناسبة عرس بسيط بالقرية حيث النساء مقرفصات- ما إن ترتفع موسيقى حية ومتنافرة في آن، حتى أشعر فجأة باستيلاء الإيقاع عليّ -إيقاع إفريقي وليس عربيا أو «تقليديا»، ما يسمح للنساء من كل الأعمار بتحريك أجسامهن تحريكا خفيفا شامخات الرأس، نظراتهن تائهة في حلم ناعس، بينما ترسم أرجلهن خطوات منتظمة ذابلة.

أنا أبغض هذا الخمول الذي يبدو وكأنه يلجمهن. بمجرد انبجاس الإيقاع، يمكن لهؤلاء النساء المعتقلات في أغلب الأحيان، المنهكات من قبل أبنائهن، أن ينفسن عن مكبوتاتهن في خضم المرح العارم : ولكن كلا ! يبدو أن

ثمة قاعدة العفة التي تحول دون ذلك، بينما هن لا يزلن بينهن، بعيدا عن أنظار الرجال.

ولكن أنا لا أرقص إلا لنفسي : عندما أنهض –تعامل السيدات المسنات الفتيات الشابات البالغات حديثا بحذر– نعم، عندما أنهض فلأن الإيقاع قد تسلل داخل جسمي كله –لا أبقى مقرفصة أبدا مثل الأخريات : أظل واقفة أو على ركبتيّ أو جاثمة على كرسي عال، ما يسمح لرجلي بأن تعيّن النغمة وأن تبقى في صلة بدرجة سرعة الغناء التي تمتاز بالأهمية في هذه الاجتماعات، حيث رنين الطبل وهيجان الدربوكة والمقطع الموسيقي المزق للمغنية ذات الصوت الأغن، الأجش أحيانا، حيث لا يمكنه أن يحجب، حتى بواسطة العبارات الحامضة لأغنية حب مصرية، حنينها الذي لا يشفى.

بمجرد أن أقف، أنسى جمهور النساء الجاثمات عند رجلي : أرقص بسرعة وعصبية، وأشعر بأني بحاجة إلى فضاء لا متناه. لا أروم إظهار أوراكي ولا رقبتي، وإنما كتفي في بعض الأحيان. ذلك لئن كان الإيقاع يستولي عليّ مرورا بأخمص قدمي، فإن ركبتيّ هما اللتان يغمرهما ثم أوراكي وخاصة كتفي في خاتمة المطاف.

وفوق هذا، فإن ما أكرهه أكثر هو رقصة البطن !

إن ما أطمح إليه هو رقصة صيادة، وإن أمكن صيادة ظبي لأتجنبهن جميعا وجمودهنّ.

رجلاي ترسمان الإيقاع، أنحني جزئيا ثم أتسلل بين الراقصات الأخريات الجليلات. لا أود أن أرقص بمفردي أمام الآخرين، لأن الرقصة النبيلة ليست فرجة بل هي تأمل إلى حدّ الارتجاف !

أحب الرقص كي أشعر بأني بعيدة عن هذا المكان، وأن أتوارى عن أنظار هؤلاء السيدات اللواتي يعتقدن بأني شرارة، بينما خطاي تقودني وأنا مغمضة العينين صوب الظلام دائما، صوب مكان آخر... نعم أن أكون شرارة ! أعاود الجلوس والإيقاع لا يزال يرعد جسمي إلى الحد الذي يمكنني أن أتحول إلى جنية آيلة إلى الذوبان !

في هذه الفترة من الطفولة نفسها، بالقرية حيث كانت أمي تذهب أحيانا إلى أعراس الريف، حصل أن تركتها تذهب بمفردها : وذلك حتى أرقص وحيدة أمام مرايا الغرفة الثلاثة الهائلة.

كان جسمي متلاشيا وفرحا في آن واحد وكأنه منثور في ليل أحلامي. كنت راقصة غير مرئية، سوى لنفسي، بحيث بعد سنوات، حين تستولي عليّ بغتة كآبة دون أن أعي سبب ذلك، أنتظر أمي الغائبة عن البيت، كي أتمكن من الرقص (حينئذ لا يهم الإيقاع، فأية موسيقى، حتى الغربية، كانت تكفي) : كنت أرقص كي أرى انعكاس صورتي في المرايا، ولشدة انقيادي للأنغام المتقطعة –التي تبدأ بطيئة قليلا، ثم متسارعة لتصبح محمومة فهائجة، لم أعد أرى قدامي، سوى وجهي الباكي، وكأن الرقصة لم تكن سوى ذريعة، وكأن الجسم قد حاول التكاثر ليطرد من داخله السبب الغامض لكل عناء.

ترى هل هي ارتعادات الجدة –التي شاخت، وهي الملازمة لسريرها هناك بشرشال– التي تلاحقني ؟ وهل هو

ما تبقى منها فيّ ؟ فرح، هيجان استغرقا وقتا طويلا قبل أن يهدآ وينطفئا كي يسمحا لهذا الجسم الواثب بأن يلقي بأسلحته ذات يوم ؟ ليس بسبب هزيمة كما فعل الجد، كلا بل بدافع الاستراحة والحلم والبحث الذي يفضي به إلى الغفران –إرث منذور لي أنا المغبونة المحرومة من الميراث مع أنني كنت أتلقى تلك الطاقة الكامنة التي لا غبار عليها.

وأنا أتذكر بعض هذه الرقصات المنفردة التي من شأنها أن تعلمني التغلب على أحزاني الأولى، أراني أضع حدا للاضطراب التشنجي للجسم بواسطة بكاء رقيق، وأنا أدنو من وجهي المضخم على خزانة الأكاجو اللامعة في غرفة الوالدين.

أجل أتذكر : عندما كنت مراهقة، كنت في رقصتي المنفردة (وقد كنت أعتقد في ذلك الزمن، أن أسراري الصغيرة كانت ثقيلة جدا) أرتمي في ارتداد الإيقاع راقصة حتى أتخيل بأن السرعة قد خنقتني، ثم وقد التصق وجهي بإحدى المرايا أراني أبكي، وجهي مسطح ومشوه في قصدير المرايا الكبرى التي كانت تبهرني عندما كنت طفلة صغيرة.

.10
الأوبريت

في هذه السنة، بعد أن قضيت الصيف مع الأسرة في مليانة، أراني أولا أستعيد الحياة في القرية التي أثقل كاهلها سرّ ما : وأنا غارقة في مطالعاتي ومتشوقة للعودة إلى الداخلية، كنت أفكر في ماق التي سأتجرأ على أن أروي لها خوفي الطفولي –وهذا عندما كان عليّ أن أطوف بأختي الصغيرة وهي في مركبتها (كان على أختي هذه أن تستنشق الهواء النقي لهذه المدينة من أجل صحتها). كان همي أن أتحاشى اقتراب مدرس مسلم شاب مني كان يعرف أبي الذي شرح أمامي لهذا الزميل سبب مجيئنا إلى هذه المدينة حيث نسكن عند بعض الأصدقاء.

كنت أتمنى أن أعترف لماق بالقلق الذي اعتراني في هذه الحديقة العمومية، التي أحسست فيها بالانزعاج لما علمت بأني محل بحث، ما جعل هذا التجول يتحول إلى

قلق بل إلى تعذيب. وماق -قلت في نفسي- حتى وهي تسخر مني، ستفهم أنه عند رؤية أبي لهذه المناورات من لدن المدرس الشاب سيغضب ويتسبب في معركة...

قد تقول ماق بابتسامتها الماكرة : «في المحصلة، فيم كان يهددك ؟ ولم أنت خائفة : من أجلك أم من أجل أبيك ؟» .

لا، قررت في نفسي أن ما يمكن أن أرويه لماق هو بالأحرى قراري الشروع في كتابة يومياتي، وهذا لكي أفهم ما هي الكتب، من بين التي أطالع بغير نظام، التي تعلمني -تعلمني ماذا ؟ الحياة ؟ كلا... إنها جميعا أو جلها تعلمني كيف أتصور وأتخيل حياة «الآخرين» ! عندما أعود إلى الداخلية، سنتحدث عن هذا. هل كنت بحاجة إلى أحلامي التي كانت تغذيها المطالعة كي أقضي على ثنائية العالمين حيث كنت أعيش : الاعتقال الذي كنا نحياه يوميا أمي وأختي وأنا بالقرية وكذلك دفء الحياة النسائية بشرشال، هذا الدفء الذي كنت أعرف أنه لن يكون لي بعد ذلك ؟

«بعد ذلك، بأي معنى ؟» .

لم أكن أنظر إلى أبعد من البكالوريا. لقد أشار أبي إلى «دراساتي بالجامعة» مرة أو مرتين. كان ابن خالتي الطالب في الطب، حين يأتي إلى بيتنا، يحكي لنا بأن ثلاث أو أربع شابات مسلمات على الأقل كن يدرسن الطب، ويحضرن مسابقة العمل الخارجي في الطب. وعندما يعود ابن الخالة هذا إلى العاصمة الجزائر، كانت أمي تقول إن أختها الكبرى يجب أن تكف عن البحث في شرشال عن كنتها المستقبلية. فحسب المقاييس التقليدية، لا شك أن الجمال كان له اعتبار، ولكن مقاييس التربية والرقة وغيرها هي التي كانت السيدات المسنات يبحثن عنها لدى المراهقات خلال أعراس الصيف.

– لا، قالت أمي مبتسمة، فهذا الشاب لطيف وجاد ولكنني أشعر بأنه سيرغب في اختيار خطيبته بنفسه!

ثم تغط في الحلم... أختها البكر التي تعدها بالأحرى أمّا ثانية –عشرون سنة على الأقل تفصلهما– قد تستاء لذلك، لأن كل سيدة مسنة تتشبث بالامتياز الذي تخوله لها منزلتها بحسبانها أمّا: حق اختيار كنتها بنفسها.

– الأهم –قالت أمي– أن يكون سعيدا!

لست متأكدة من أنها ستذهب إلى حد بلورة هذا النوع من الحجج أمامنا. دون شك قد فاجأت، سهوا، هذا النوع من الحديث بين أمي وبنات أختها خلال اجتماعات لدى جدتي. وهكذا تحضرني شذرات من هذه الأحاديث المتعلقة بالزواج : في هذا العالم الذي يضج بالنساء، الشابات والصغريات، ولكنهن جميعا مسجونات، لا يراهن عالم الشارع ولا الأوروبيون، يستولي الخوف فجأة لأن ابنهن أو حفيدهن سيربط علاقات أو حتى يتزوج بغربيات، قلما ينحدرن من المستعمرة، فهن في الغالب «فرنسيات من فرنسا» أو أوروبيات يلتقون بهن خلال أسفار بعيدة وهي حالات طالما كنا نصادفها منذئذ :

– إن شباننا الأكثر موهبة، المنذورين لأن يكونوا أطباء أو محامين أو أساتذة، يعودون إلى بيت الأم بمعية أول أجنبية يلتقون بها ! وقد فتنتهم باستعمال أسلحة الإغراء الأكثر جرأة، وقد تكون حتى الأكثر ريبة !

أمي التي كانت تؤدي دور الأخت البكر لابن أختها الذي كان بالإمكان أن يكون أخاها الأصغر، راحت تشاكسه : كانت تقول في نفسها : ربما هو الآتي من

العاصمة لزيارتنا، والذي هو محل تقدير الأب «لجديته» سيلتقي بطالبة من «عندنا» متحررة ؟

ولكن سيخيب ظن أم ابن الخالة هذا بدورها. في المحصلة، «ألا يكون من الأفضل لهؤلاء الشبان أن يختاروا بأنفسهم ؟» واصلت قائلة هي التي، وقد كنت متأكدة من ذلك، لم تكن تفكر في أن تمنح امتياز اختيار رفيقة المستقبل فيما بعد إلا للذكور، بدل أن يترك أمر تزويجهم لأمهم أو عمتهم أو أختهم الكبرى. «بحيث يتمكنون بدورهم من... » (لم تكمل جملتها، فقد ساورها هاجس : في النهاية، هي مدينة للحظ وحده أن حظيت بزوج تعلق بها بتلك الدرجة).

تستحضر ذاكرتي الأقوال التي تلفظت بها أمام بنات أختها. رغم مشيتها التي تحاكي مشية المرأة الشابة، وحتى وإن كانت لها مع جاراتها الأوروبيات أحاديث بالفرنسية، فإنها تطلق العنان لأفكارها مع النساء العربيات، لأن ذلك يجعلها تحس بمدى محاولة مجتمعنا التطور أو على العكس، إقامة أسوار جديدة.

كانت أمي التي أفاجئ خطاباتها تجعلني فجأة أحس وكأنها أختي البكر. غير أنني لم أستطع مع ذلك أن أفاتحها،

الصيف الفارط بمليانة، في تهيجي الطفولي أمام ذلكم الذي أسميته بـ«المزعج»، ولا أن أشير إلى قلقي وأنا أستعيد هدوء القرية، كنت أنتظر العودة إلى الداخلية.

في بداية تلك السنة، كنت أتأهب لبلوغ خمس عشرة سنة. إن هذه السنة تتجلى في ذهني وذاكرتي من خلال أعياد نهاية السنة الدراسية في جوان، الموسومة بحدث استثنائي : بين ثانوية الفتيان وإعداديتنا الخاصة بالبنات، إثر تحالف ما (كنت سأقول مؤامرة) انبجست فكرة إنتاج مشترك لأوبريت بمشاركة مراهقين من إعداديتنا وثانوية الفتيان في الأدوار الفردية كما في تشكيل الجوقة.

هذه الخطة التي بلورها في نظري أساتذة الموسيقى في المؤسستين، قد ألهبت سريعا مدينة البليدة، حيث أقام الرسام فرومنتان في القرن الماضي وعبرها أندري جيد قبل عقود من الزمن.

جرى الحديث عن برنامج الحفل هذا منذ منتصف السنة. وهكذا علمت بوجود أوبريت عنوانها «أجراس

كورنفيل» التي أحرزت على نجاح عالمي منذ إنتاجها في... 1877 ! انتشر عنوانها بسرعة .بمجرد عودتنا من عطلة الشتاء : في الثلاثي الأخير، أدينا نحن البنات والبنين هذا العمل المشهور جدا حسب ما يقال.

سعى كل أستاذ من أساتذة الموسيقى إلى اختيار المغنين الهواة، ثم تواصلت التمارين طوال الثلاثي الأخير. اخترت لأكون من بين جوقة القرويات.

منذ البداية، فاجأني وصدمني الجانب الفولكلوري للكلمات والسذاجة الهزيلة -أو السذاجة المصطنعة- للحبكة التي ألفيتها بسيطة. غير أن المجموع تم إنقاذه بفضل موسيقى جريئة ونشطة للغاية.

كان جلنا في السنة الثانية ثانوي، في مأمن من الاقتراب المقلق لدورتي البكالوريا. منذ بداية التمارين، تحول اندهاشي إلى ذهول : كان جهلي بالموسيقى من القوة بحيث لم أتساءل أبدا حول الفرق بين الأوبيرا والأوبريت. أراني من جديد أسمع، وابتسامة الإشفاق على شفتيّ، ثنائيات مطربين مشهورين : قروية -كما كان واردا في الكتاب-كانت تهدل «ديكي الرومي...» لعشيقها الراعي الذي كان يرد عليها بصوت دافئ وعميق بقوله :

«خرفاني». وأنا أشارك في الجوقة، أدركت أن موضوعا تافها كهذا سيجند إمكانات صوتية وإخراجا ذا أهمية غير متناسبة، ما جعلني مشدوهة...

غير أن هذه الحصص المتوقع أن تمتد وتتواصل عدة أسابيع، قلبت عادات الداخلية رأسا على عقب. مع العلم أن اختيار المكان، سواء بالنسبة إلى التمارين أو العرض الأول، المقرر في آخر سبت من السنة الدراسية، قد انصب على الفناء الخلفي لإعداديتنا، وهو أوسع من فناء الثانوية، التي تتمتع بفناء ممتاز ولكنه ضيق.

لئن كنت عاودت الحديث عن حفل آخر السنة، فلأن لقاءات العمل المتعاقبة في عدة ظهيرات كانت بالنسبة إلينا نحن الداخليات المسلمات مصدر انقلاب حقيقي: استولى على بعضنا تهيج غريب، ونحن ننتظر الحدث. لقد سمعت جاكلين غير مرة وهي تصف لي في المرقد حفلات الصيف الراقصة في قريتها على شاطئ البحر، مع المداعبات والعلاقات الأولى التي تحدث بين البنات والفتيان تحت أنظار الأولياء الذين كانوا يراقبونهم عن قرب إن قليلا أو كثيرا، ها هي الحرية غير المتصورة —ولكن كلمة «حرية» مبالغ فيها دون شك، فلنقل بالأحرى هذا «الاختلاط»

المدهش- ينتشر ليحتوينا نحن أيضا : طالبات الإعدادية وتلاميذ الثانوية المسلمين بالمدينة.

كنا قد شكلنا مجموعتين : عشر بنات عمرهن ما بين أربع عشرة سنة أو ست عشرة سنة كن ملتصقات في شكل حلقة مذعورة، وغير بعيد عنهن عدد مماثل من الفتيان من نفس السن، سواء من الداخليين أو الخارجيين.

منذ التمرينات الأولى في فناء إعداديتنا، بدت بعض زميلاتنا متهيجات : ظهرت نصف الداخليات، في حين كن يصلن يوميا غارقات في معاطفهن مع صرامة بادية عليهن، أكثر جرأة لكونهن فجأة بعيدات عن مراقبة الوالدين، بل عن عيون رجال الشارع الذين يتعرفون عليهن رغم الحايك الذي يلفهن. ولكن أن يتحركن، بأجسامهن الحرة أمام تلاميذ الثانوية المسلمين... فيا لها من مغامرة !

في الإعدادية أصبح الفناء حيث كانت تجري التمرينات، كل خميس وسبت، فضاء يراقبه أساتذة الغناء. وسرعان ما بدا لي أن الأقلية المسلمة للجنسين تائهة وسط الحشد الصغير الذي طفا عليه، خلال عدة ساعات، هذا اللحن

أو ذاك من آلة الكمنجة أو هذه اللازمة الصادرة عن الجوقة التي يرددها مطربان أو ثلاثة.

في الواقع، لم يكن المراهقون العرب من الجنسين ليحلموا بمثل هذا الانقطاع للرقابة العريقة. أحاول هاهنا أن أعيد بناء الكل، بينما أنا، وكنت الأكثر شراسة، كنت منشغلة بالبحث إلى أي مدى يختلف كتاب «أجراس كورنفيل» هذا عن سمو الأوبيرا، الأمر الذي يتطلب الميزة نفسها في تضخم الأصوات و تفخيمها و تموجها...

نعم، وأنا أمية حقيقية، تعلمت جوهر الأوبريت حتى وإن كانت «أجراس كورنفيل» تلك في المحصلة، لا تبلور سوى قضية ريفية تافهة! بقيت هناك بدافع الخجل أو بدافع الحسّ الجمعي بين أخواتي في الدين. في خضم ذلك، نسيت تقريبا أنه كان بإمكاني وأنا جزء من المجموعة الصوتية، أن أبتعد نابذة حضور هؤلاء التلاميذ المسلمين الذين اعترى بعضهم الانفعال لدنوّهم من عصيّات متمنعات إلى غاية تلك اللحظة.

أوقف هاهنا هذه الحكاية التافهة والبالية كي أدخل شخصا من صنع الخيال ولم لا... أجل لنسلط الضوء الكاشف على فتاة أخرى من سني أو تكبرني بسنة، وهي زميلة تنتمي إلى مجموعة نصف الداخليات.

أبتدع لها اسما —وليكن اسم مغوية رجال شرقية، مثل منيرة (بمعنى «الراغبة»)... ستظل منيرة الظل الأسود صديقة مزيفة بالنسبة إليّ، حاولت بعد زمن طويل أن تكون خصمي.

أتساءل : ألا يكون المجتمع النسائي المنذور للانغلاق محكوما أولا من داخل الانقسامات الحادة بسبب الخصومة بين سجينات متماثلات ؟ ... أم أن الحلم يتلاشى هنا : الحب الأبوي الذي يهبكم منزلة «ابنة الأب» المرغوب فيه، ومنزلة «البنت المحبوبة» على غرار ما حصل في

ثقافتنا الإسلامية حيث لم يكن للرسول سوى بنات (أربع بنات، وكل واحدة كانت بنتا استثنائية. البنت الوحيدة التي عاشت بعد وفاته، المحرومة من الميراث الأبوي، عانت من ذلك أيما معاناة، ما أفضى إلى وفاتها. أكاد أسمعها تتنهد بصوت خافت : «لا مكان لي مع الأسف في منزل أبي !».

ما هو الدور الذي تتأهب منيرة هذه لأدائه في غرفة انتظار حياتي ولم ترغب في الدنو مني، أنا المنعزلة، وعن قرب جدا ؟

ها هي في أحد التمارين، وسط مجموعة من الإعداديات قبالة مربع من تلاميذ الثانوية لمجموعتنا... أتذكر فناء الإعدادية الذي هوى عليه مساء صيفي طويل. بدا لي هذا اليوم الصيفي طويلا للغاية : دفعنا اضطراب خفي إلى أن ننظر إلى بعضنا من بعيد نحن الشبيبة المتكونة من الجنسين التي شاءت مصادفة التحضيرات لهذا الحفل أن يتعرف بعضنا إلى البعض الآخر. وكأن نسيما خفيفا للحرية قد غشي جو أجراس كورنفيل الغريبة عن عالمنا.

أرى منيرة تنتقل وكأنها سيدة العمل. تنتقل من هذه المجموعة إلى تلك كعون اتصال بين أولئك الذين لم

يتجرأوا بعد على الاجتماع، أو ببساطة لم يتجاوزوا الفصل الجنسي العريق حتى في عقر دارنا نحن المقبلين على امتحان البكالوريا.

كيف يمكن تحديد دور منيرة هذه يا ترى ؟ ميزتها أنها جريئة وتعدم الخجل. نحن قرابة ثلاث داخليات مسلمات اخترنا لنكون ضمن الجوقة. منيرة لا تبرحنا وكأن طاقة غريبة تحدوها، وكأنها قررت وضع سيناريو ما : إلى حد الآن لم ألاحظ سوى ذهابها وإيابها، أي كونها غير مستقرة في مكان. تقترب من الفتيان ثم تعود نحونا ونحوي...

الآن أفهم أنه في هذا الجو المفعم بالأغاني المستعادة والمكررة من بعيد، بينما هؤلاء العرب الشبان ينظرون حولهم قلقين دون أن يدروا ما إذا كانوا ممثلين صامتين أو متلصصين، هناك نية سيئة تسكنها : في كنف القصة الهزيلة للأوبريت –المغناة تحت أنوار الركح– تعمل على نسج وفك «قصة» ثانية لها، ولكن في الظل...

«حبكة تافهة ومحدودة !» قلت في نفسي بهذا الصدد، أنا المتكبرة.

وهكذا بالفعل، كان ذهابها وإيابها بين المجموعات التي لا تجرؤ على الاقتراب والتخاطب، إيذانا بدور المؤامرة الذي قررت أداءه، ولكن لأي مشروع ؟

جمالها هو مصدر ثقتها، هذا الجمال الذي كان قائما على القيمة سائد في تلكم الفترة : رغم قصر قامتها كانت تزعم بأنها مزودة بجسم «استثنائي» لا لشيء إلا لأنها الوحيدة من بين خمس أخواتها التي تحظى بسحنة فاتحة كأنها شقراء حقيقية بشعر كستنائي. في الفترة الاستعمارية بالفعل، كانت كل امرأة أهلية شقراء في مقدورها أن تظهر بمظهر الأوروبية لأول وهلة، تظفر بنجاح الخروج في مجموعتها، ما يذكي رغبة المستعمَر في أن يشعر، على الأقل من حيث المظهر الجسماني، بأنه ينتمي إلى زمرة الغالب.

(كان لسيداتنا المسنات، وأحيانا الخطّابات، ذوق أضمن : لما كان عليهن الحكم على جمال فتاة عذراء، كن يقلن بقصد المديح : «إن لها سرا»، والعبارة هذه تعني أن العذراء لها في ملامحها جمال «سري» سيصاحبها ما حييت).

كانت منيرة إذن في نظر أبيها أجمل بناته، لأنها الوحيدة التي ليست بسمراء. وعلى غرار فريدة، كانت تأتي إلى

الإعدادية ملفوفة في الحايك الأبيض، غير أننا لم نكن نبدي بصددها قسوة مبالغا فيها، شبيهة بقسوة أب فريدة.

منذ بداية التمارين، كان تهيج منيرة مغايرا لارتباك هؤلاء وأولئك. ترى هل كانت هي الأخرى تشعر كما فريدة في الماضي بأنها ضحية قساوة أبيها ؟ أجل، بسببه اضطرت إلى رفض اجتياز امتحان الانتقاء من أجل الجوقة. مع أنها كانت هناك : شاهدة ومستعدة، ولكن لأي شيء ؟

– سألاحظ، قالت، وسأساعدكن !

لم نكن نعلم فيم ستساعدنا. قلت في نفسي : إنها فضولية، ليس إلا. ألا تكون عبارة عن رأي عام من أجل التعليق على العمل الجاري لدى أمها وربما صديقاتها البورجوازيات اللواتي لا يسعفهن الحظ في التمتع بالفرجة ؟

تعاقبت حصص العمل المشترك في فناء الإعدادية منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع عندما شعرت منيرة، وقد اجتازت بعزم البوابة، بأنها في راحة تامة في جو الفرح المنتشر الذي كان يغشانا نحن البنات والفتيان، المنساقين نحو الإغواءات التي كان الاختلاط الجديد يهبنا إياها.

ثمة ظهيرة بارزة في ذكراي : منيرة تطير كالفراشة من مكان إلى آخر، تدنو مني، ثم تتجه صوب مجموعة أخرى. طالبات الإعدادية العربيات غير بعيدات عن تلاميذ الثانوية العرب وكأنهم متجمدون بعضهم حيال بعض. منيرة وحدها تزعم أنها تعرف الجميع، وهذا صحيح إلى حد ما، بما أنها من المدينة فإن أسر بعض الثانويين لها صلات مع والديها. تتحدث مع البعض ثم تعود إلينا نحن البنات، فإلى الأخريات -الأوروبيات، تمتدح المطربة النجمة- باختصار، إنها تضطلع بمهمتها. ونكاد ندرجها ضمن زمرة المسؤولين القائمين على الإدارة الموسيقية.

الاستراحات خلال هذه الحصص مطردة وأحيانا طويلة جدا. ولما كانت منيرة واثقة من نفسها، فقد اضطلعت بدور الشاهد والمستشارة للبعض والصفية بالنسبة إلى

البعض الآخر. أتابعها بنظرتي وأنا على حدة نافرة. فجأة اقتربت لتقول لي :

– أترين هذه المجموعة من الفتيان من بين المغنين، أولئك الذين هم قبالتنا ؟

في الجوقة، كنا نتمرن دائما منفصلين فيما يبدو.

– نعم، وبعد ؟

ابتسمت بعين متقدة.

كان من الواضح لي بأنها قد قررت أن تنسج حبكة أخرى على هامش تلك التي يجب أن نؤديها لتشريف حارسة الديك الرومي والمغني البدين الساهر على خرفانه !

قلت في نفسي : ونحن مراهقو «الدرجة الثانية» بين أبناء البورجوازيين الفرنسيين، ماذا جئنا نفعل في صلب حكاية القرويين المرسومين بشكل ساخر، والمؤداة من قبل عشر بنات وعشرة فتيان، جزء منهم أهالي مهانون، بحيث لأول مرة وبدعوى الأوبريت، بدت المسألة الاستعمارية وكأنها ستخف حدتها ؟

في قرارة نفسي، أسميت منيرة «الراغبة» وهي التي تغدو وتروح بجرأة ووقاحة بيننا.

ألاحظ كذلك :

لنفترض أن منيرة هي وحدها الواعية بهذه الاستراحة الاستثنائية وهذا العرض الآتي والفاصل الذي سيحدث على الخشبة –التي أمست فجأة مكانا جديدا حياديا متروكا للموسيقى، يمحو بغتة الفصل بين جنسي هذه الشبيبة المسلمة، بيد أن مثل هذا التحول هل يمكن أن يحصل في هذه المدينة التي تعج بالثكنات ؟ ... ألا يمكن لبعض الرغبات الكامنة الخاصة بكل زمرة أن تنبجس ؟

ألن تصبح منيرة بدورها مؤلفة «قصة» أخرى –تربط هذه الأخيرة وهؤلاء الفتيان وهؤلاء البنات المرسلين عن طريق الخطأ تقريبا إلى هذه الأوبريت، هذا النوع الغريب جدا على محظوراتنا وفولكلورنا وأغانينا العريقة وعلينا جميعا من الجنسين، نحن الذين نسعى إلى التحرر ولكن من خلال هذه الموسيقى من الدرجة الثانية، المستوردة من «عاصمتهم» ؟

وها هي منيرتنا تحديدا تقترب مني كما الناشط بلا فائدة. أحس بشكل غامض بأنها تتأمل في أمر ما –كما في لعبة الشطرنج أو السباقات ؟ أقول في قرارة نفسي : من باب الفضول ؟ كلاّ. على سبيل التسلية أو اللامبالاة ؟

أقرر الدخول مؤقتا في لعبتها... منيرة «الراغبة» فيم ترغب على وجه التحديد؟

أبتسم لها. أنتظر. ها هي تدنو.

– أتعرفين –قالت لي بصوت عذب– بأنه من بين الثانويين المسلمين الذين تحدثت إليهم –تواصل بلهجة تود أن تكون متواطئة– هناك من هم خارجيون: أعرف أسرهم... أسر من الأعيان!

– وبعد؟

فجأة رحت أتسلى. ترى ماذا تدبر؟ في أغلب الأحيان، أميل إلى الانسحاب...

انتهى التمرين، على الأقل بالنسبة إلى الجوقة. ثمة شيء من التسيب استولى على المجموعات. أضافت بشكل حاد وإن بابتسامة:

– أترين مربع فتياننا، قالت ذلك وكأن الأمر يتعلق بانتماء سياسي.

نظرت إليّ مليا ثم دعتني إلى ملاحظة مجموعة الثانويين، وهمست:

– قولي لي بصراحة، أي شاب من هؤلاء يعجبك أكثر ؟ على الأقل من حيث المظهر الخارجي...

هكذا إذن تتصرف كوسيطة ! أقول وقد استبد بي دفق من البهجة والطيش : «لم لا ألعب ؟» وكأن ذكرى غامضة لكلام المرقد المتبادل مع جاكلين قد صعد من نسياني بعد سنتين.

أدير رأسي وأنظر علانية إلى مجموعة أربعة أو خمسة ثانويين «عرب» : أحدهم، وهو طويل ونحيف، وأسمر حتى لا أقول أسود، بدا لي ذا «مظهر جذاب».

– ثمة شاب أجد أنه... ذو ميزة ! قلت بلهجة عفوية.

ذلك لأنني، لأول مرة في حياتي، يطلب مني «الحكم» على جسد شخص، وقمت بذلك بتلقائية –أصدرت حكمي، رباه، كمن يحرر محضرا ! ولكن ها هو بداخلي، في الوقت نفسه، دون شك بسبب جرأتي في التلفظ به جهارا (كنت مستعدة لاعتبار صراحتي وقاحة) ها هي ذي تسري للتو بداخلي بداية انفعال.

وأنا مستغربة من جرأتي (راح جزء مني، أظنه الجزء المتعلق بالصرامة الأبوية، يعاتبني على الفور) فهمت

حينها، بأنني أقع تحت تأثير وسامة الولد –بينما ظل نظري جانبا يكتشف طيف التلميذ المجهول وحركاته ولون بشرته البالغ السمرة.

سمعت منيرة تضحك : إنها تبتسم وتسخر... مني بالطبع ! كما منه أيضا : تنطق باسمه وتضيف بأنه من «الجنوب»، وربما من واحة بعيدة نسيت اسمها –ولكن في ذاكرتي يظل هذا الشاب تحت اسمه المستعار الذي وهبته إياه : «الصحراوي».

تفاجأت منيرة للحكم الذي أصدرته وبدت خائبة وكأنها جاءت حقا للتآمر وباختيارها الشخصي : من المحتمل أنها كانت تريد، بوصفها بورجوازية صغيرة، امتداح أحد التلاميذ الخارجيين من مدينتها، بالإشارة دون شك إلى حالة الفتى الأسرية، وهو تفصيل لم أعبأ به قط.

أنظر إليها ببرودة :

– طرحت عليّ سؤالا، التفتّ ونظرت : أكرر ذلك، لا يوجد سوى هذا الطالب الثانوي الذي يبدو لي أن له «شيئا مميزا» ! قلت لك هذا، ختمت بشيء من الرعونة

كي أخفي اهتمامي المفاجئ والحقيقي على الأقل على الصعيد الجمالي.

ذلك أنني اكتشفت، في لعبة الأقنعة هذه، أن الفتى أعجبني وشرعت في تسميته بـ«الصحراوي». إلى غاية تلكم اللحظة، كنت أحسبني لا مبالية بما يمكن تسميته بـ«الجمال الجسدي». لا بد لي أن أخفي هذا التأثر وألجمه ثم أقضي عليه، حينما أكون وحيدة مع نفسي.

أمام منيرة –لأني أعتزم التحلي بالحيطة (إنه أول اضطراب يحصل لي أمام الجنس الآخر)، أبدي ارتخاء وقحا بعض الشيء. وهي طريقة من الطرق التي أريد من خلالها التأكيد على سيطرتي على الأمور :

– لم أنت مندهشة ؟ قلت لها برزانة. أجمل الرجال في نظري هم التوارق وشعوب غرب افريقيا. أناقة وطيف طويل، يا عزيزتي منيرة !

ورحت بدوري ألعب، واضعة نفسي في مستواها. أدليت بعموميات حول الرجال، بلهجة تنم عن اللامبالاة كشخص من شخوص رواية اجتماعية.

تبدو منزعجة، إنها على علم بسذاجتي وواثقة في الغالب ودون نوايا سيئة. ولكنها لا تعرف بأني اكتشفت بفضلها شرخا في نفسي أثر فيّ، وبأنه يتعين عليّ أن ألعب بدوري وأن أظهر باردة ولا مبالية مثلها.

هكذا بسبب هذا التكلف، لاحظت بأن شابا مجهولا جذبني، والأدهى، دون أن أكلمه. أعرف بأني حين أكون بمفردي سأعاتب نفسي وبأن ظل أبي سيأتي ليقدم لي حججا «دامغة» .

منيرة مهتاجة. تلتفت نحو مجموعة البنات المسلمات وتعلن دون حرج :

ها هي أحسن تلميذة ! في نظركن من هو الفتى الذي يعجبها أكثر ؟

منيرة ترفع صوتها عاليا إلى حد البذاءة، قلت في نفسي مصدومة. أتصلب.

تواصل بإصرار :

– هل تعرفن مَن مِن الثانويين تفضل ؟

ثم تذكر، وكأنها مستاءة، اسم الفتى مصحوبا بهذا الحكم الذي فجأة أعلى من شأنه في نظري :

– هو ليس حتى بتلميذ نجيب، لا... بل هو «سوقي !»

فجأة، هذا اللفظ الروائي «سوقي» ولنقل «فتى سيّئ» جعله أكثر جاذبية في نظري... تواصل :

– الأكثر «استهتارا» ! وتكرر كلمة «سوقي»

لو كانت ماق هنا –قلت في نفسي– لتذكرنا معا أرتور رامبو الذي رمى بكل شيء : باريس وكتّابها والمجد الأدبي كي يصبح «سوقيا» وملعونا على أرض الجزيرة العربية !

لا أعرف متى تم الشروع في رسم دسيسة في الأيام التالية. ترى هل إفشاء الأسرار الذي ارتكبته منيرة هو الذي تناهى إلى مسامع ثانويي الحصة السابقة ؟

خلال حصة تمرين جديدة، لاحظت أن من بين الفتيان الذين كانوا يغنون قبالتي، التفت الصحراوي عدة مرات إلى جهتي. غير أني بقيت هادئة. في هذه الأثناء، آخذني صوت الأب على «سلوكي الأرعن». ظللت بعيدة عن منيرة. غنينا ثم نزلنا جميعا من الخشبة.

أنا هادئة، لا أؤدي أي دور. منيرة قد اختفت. على الخشبة، مغنون آخرون يتمرنون. الجو مرح : ارتخاء جماعي حقيقي. حولي، يجري الحديث عن العرض الأول الآتي.

أنزوي في ركن قصد التأمل في هذه التجربة الموسيقية التي تقترب من النهاية. فجأة أرى أمامي، وأنا في خضم

الضوء، الصحراوي مترددا. قد أكون نسيته؟ وقد لا يكون الأمر كذلك.بما أنني تعرفت عليه بينما لا يزال واقفا في الظلمة.

منيرة غائبة عن الديكور. ولكنني أفكر فيها، ذلك أني أسمع -والصحراوي لا يزال مترددا- صوتا أو صوتين بين زملائه يهمسان له بالعربية تشجيعات من قبيل: «هيا هيا!».

قلت في نفسي بسخرية خفيفة: «هيا، ها هي كوميديا ذلك اليوم تعود من جديد!».

إثر ذلك، تقدم الشاب بحذر. أمرتني نظرة داخلية شديدة بأن أتوخى الحيطة. قلت: «سبق لي أن لاحظت ذلك: للفتى مظهر لافت للنظر!».

تجمد في مكانه. فجأة، لاح بريق من التعقل في نفسي: إنه دون شك صوت أبي الذي يحرسني («يجب ألا يعرف إلى أي مدى يعجبك!»). هذا الصوت من فولاذ: إنه تحذير قاس! أبدو حيادية وباردة تقريبا.

لا يزال يبدو مترددا. هذا الترنح الذي يرسمه طيفه، في رمشة عين، يجعلني أكتشف خوفه من رفضي أو بالأحرى

حتى حيثيات هذا الرفض إن أعربت عنه لا بدافع الغنج بل من باب التصلب. استولت عليّ هذه الخاطرة بينما لا تزال نظرتي تترصد، بدقة وسرعة البرق، أي حركة من حركاته وكأنني أتأهب فيما بعد لرسمه والتهامه والاحتفاظ به لنفسي في سحره الفاحش.

بيد أنني فضولية. أود أن أعرف ما يريده مني وكيف سيلتمسه. شيئا فشيئا رحت ألج هذه اللعبة —وإن من بعيد.

في هذه الأثناء، خلفي، على الخشبة، كانت المطربة حارسة الديك الرومي تغني بأنغام جميلة لحنها الأساسي، وقد تشكل حولي وحول الصحراوي جمهور صغير. اقترب بعض من أصدقائه. ومن الواضح أنهم شجعوه سابقا : ها أنا أشاهد نتيجة «التلفون العربي» الذي سعى منذ البارحة عن طريق منيرة وغيرها من الزملاء إلى حث الصحراوي على أن يعرض عليّ طلبه —لكن أي طلب ؟

لنسمّ هذا الصحراوي الشاب بِعلي، كما البطل علي، حين طلب يد فاطمة بنت الرسول. «ليس أقل من ذلك» قلت في نفسي، لم لا نرنو إلى ما هو أعلى من أجل هذا المشهد الذي أريده موسوما برومانسيتي. بالتأكيد أني محرجة من هذا الوضع العلني، شبه المسرحي، على مرأى

ومسمع «ذوينا»، فتيات وفتيان عرب من المؤسستين. لهذا ألتفت دون تواضع، نحو الشخصيات الأكثر مجدا والأكثر نقاء. إذا كانوا على هذه العظمة، فأنا بالتأكيد، لا أقارن نفسي بهم، أرغب فقط في أن يحمونا.

تتالت هذه الأفكار برأسي، في بضعة ثوان، لأتجنب الضعف وأنا أشاهد ذلك الولد يتقدم بخطى تكاد تكون محسوبة. هكذا أسميته علي، إذ إن اسمي هو فاطمة، «ابنة أبيها».

خيالي يجري ويجري بينما توقف الفتى قبالتي.

أجل، إن عليّا هذا المنحدر من واحة بعيدة ذا الوجه النحيف الجميل جدا في نظري، والذي اعترفت بصدده، بجرأة وشيء من الاستفزاز، بأنه «يعجبني»، إن عليّا هذا الذي يعجبني دائما، المدفوع والمشجع من قبل أصدقائه الذين لا أراهم، يتقدم خطوات معدودات نحوي ثم يتجرأ أن يطلب مني بصوت عال وبالفرنسية بالطبع :

– هل يمكنني أن أقترح عليك القيام بنزهة برفقتي ؟

على الجانب، ظلت أضواء الخشبة فاقعة. لم ينته التمرين. خلفنا، أفترض أن منيرة وبعض الداخليات يلاحظنني كما

عليا الذي يخفي خجله، ولكنه في الوقت عينه يلعب دورا أو يلعبه جزئيا، إذ راح هو الآخر يرغب في هذا الهروب بما أنه وفّق أخيرا في الإفصاح عن تمنياته علانية.

كانت زميلاتي يتساءلن : هل سأتجرأ على الرد بالإيجاب ؟ أنا التي كنت أمثل -بعملي و نتائجي- «الطرف» الآخر، أي المؤسسة ؟

رغم وعيي بعناية الآخرين، وتعجبي لوجودي هاهنا وجها لوجه مع علي -بعد أن صرحت بصوت عال بأنه يعجبني واعترفت بوسامته، أحسست وكأني أنفصل عنه- أشعر بدوري أنني معرضة أمام هذا الجمهور.

يجب عليّ أن أرفع هذا التحدي -قلت في نفسي- بما أن هذا التحدي ليس صادرا عنه (كنت قد أتصوره فتى ذا قلب صاف تحديدا لأنه «سوقي» كما كانت تقول منيرة...).

هل ذاكرتي هي التي تعاود الاستحضار ؟ هل أعاود، رغما عني، استحضار قصة خيالية بعد زمن طويل، وهذه القصة ألا تكون ببساطة حكاية الإغواء الأول ؟ أعترف بأنه إن كان ثمة إغواء، لا أعلم نحو ماذا يجتذبني...

التحدي الذي استبد بي، ألم يكن ذلك الذي توهمت العثور عليه في نصوص جيد الأولى، التي التهمتها السنة الماضية : تحدّ طرحته لنفسي، ودعوة لـ«فعل مجاني»، إذن لخرق جنسي وأكثر من ذلك. لا، لم يكن فعلي سوى تبجح وفعل صغير للكشف والإفصاح عن رغبة ولكن فيم ؟

أنا نفسي لا أعرف، ولكن هذا الاكتشاف الحاد جدا كان –أجرؤ على قوله– مشوبا بالبراءة : وأنا أحكم عليه قائلة : «إن له مظهرا جذابا» أصدرت هذا التقييم وكأنه بديهية.

بيد أن المشهد متواصل :

سمعته إذن يدلي بطلبه جامدا وهو على بعد خطوات معدودة مني، حيث كنت في هذه اللحظة وسط الأضواء (في الخلف كان مسلاط المنصة يطالني بصورة جانبية)، وحتى إن كان طلبه قد صاغه دقائق من قبل، فأنا بحاجة إلى الاستماع له ثانية، لا من أجل المتعة بل لأعرف جيدا صوته هو الذي كان قبالتي، وأنا لم أسمعه في الحقيقة إلا في المرة الثانية، صوته فقط، رعشته الخفيفة، التي كانت تنمّ عن ماذا ؟ أبتسم داخليا وكأني قد تواطأت معه، أو كأخت، اللهم إلا إذا تعلق الأمر برقصة حب أو بافانية (رقصة) بين اثنين وأن أصخب وأعنف وأشد سر سينبثق فيما بعد ؟

أجل، أود الاستماع ثانية للدعوة مع الخشية الخجولة التي تنطوي عليها، لأن المتلصصين هنا، فالإخوان بالمرصاد، وأما الخصم الأساس، أي تلك التي تنسج نسيجها -تعتقد أنه نسيج عنكبوت كي تسجنني فيه، وها يتبين أنه نسيج جيد وصلب ودافئ ومعطر، قد يكون غطاء حب طفولي- أما منيرة فقد اختفت.

وها أنا أحلم بهذا الإغواء الأول الذي أثاره هذا «الصحراوي»، أنا «المغتابة» المزعومة، الساذجة في الواقع، الحالمة بالحب أو الحب الملعون والحب الغنائي، وتمزق القلب وعضات الشفاه والامتلاك المؤجل والطهارة كذلك، والرغبة الممدودة كالقوس، ولكن فيما بعد بكثير، إلا إذا فعل النسيان فعلته —وأعرف منذ البداية بأنه سائر وأن الصحراوي، صحراويّ سيعود إلى قفاره وأنا إلى كلماتي الخاوية وحاجتي التي قد تكون «حاجتي إليه» وتحدّي المرفوع للزمن الذي يحطم، والذي لم يستطع أن يحطم لا هذه الأمسية ولا هذا الطلب وهذا الهروب الموهوب، ولا هذين المراهقين وجها لوجه رغم الحشد الصغير من الفضوليين، والضجيج التافه للأوبرا البخسة مع غزلية قروية وهذين البطلين الورقيين، أنا التي استثرت كل شيء ثم نسيت بما في ذلك هذا الشاب الذي هو على وشك الاختفاء —لا لن ينسى، فقد تأكدت من هذا منذ ذلكم الحين، وبقلبي حزن جاثم وحنين.

قد يكون كرر الطلب بصوت خافت، مخافة رفض قد يفجعه :

– هل يمكنني أن أقترح عليك نزهة برفقتي ؟

أرفع رأسي نحوه (قد يكون اقترب خطوة أخرى نحوي)، أجبت بأهدابي أن نعم، في صمت. لا أبتسم : أقبل الطلب وعلى مرأى الجميع بلا عقاب.

لا بدافع الغنج. رغم أن هذا هو لقائي الأول مع شاب وجها لوجه، فإني منخرطة في كل ما سيحدث : السير جنبا إلى جنب في الخارج إلى غاية الأفق، الابتعاد عن المدينة قبل أن يجن الليل، بينما ثنائي المغنين للأوبريت على الخشبة، خلفنا لم يكن بالنسبة إلينا سوى إيعاز.

فكرت بنهم : «سيكون الليل لنا وحدنا، والصمت...».

هذه الصورة الأخيرة، هل قرأها في نظرتي المرفوعة نحوه ؟

لم أبتسم.

– لم لا ؟ أجبت أخيرا.

ودون أن أنظر إلى منيرة أو الآخرين، أراني أتجه، والشاب إلى جانبي، صوب بوابة هذا الفناء المشرع وأجتاز العتبة رفقة فارسي.

في الخارج، المدينة في انتظارنا قبل غروب الشمس.

احتفظت بذكرى هذه النزهة في الشارع الذي يعبر المدينة، التي قادتنا إلى غاية المحطة فإلى ما بعدها. سلكنا نفس المسلك الذي كنت أقطعه فيما مضى وحيدة وفي أغلب الأحيان، وكان عمري آنذاك إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، حتى أصل إلى محطة الحافلة.

اليوم ألج خمس عشرة سنة وأتقدم إلى جانب علي وأنا أتظاهر بمظهر مراهقة غربية واثقة من نفسها. بمجرد مغادرتنا الإعدادية، نسينا الآخرين.

أشعر بالفخر وأنا أمشي هكذا إلى جانب رجل شاب: ظننت في لحظة ما أنني قبلت الطلب من باب تحدي الآخرين، ولكن كلا، كان ذلك من أجل المتعة، متعة الذهاب بعيدا إلى جانبه.

بعد صمت (دون حرج فيما أظن) انطلق الحوار. كنت حريصة على أن أظهر بأني لست مذعورة، وحقا لم أكن كذلك. تبادلنا أشياء تافهة أو تحدثنا بجدية أكبر، فيما أعتقد، ذلك أنه في اللحظات التي تلت، خارج «الخطيب» السري الذي سيكون لي بعد سنتين، قبالة أي رجل شاب من ثقافتي، أود بروح الجدية أن أفتح وأواصل حوارا لاسيما على الصعيد الفكري : دون تكلف ولا نية مسبقة.

بعد انقضاء فصل الجنسين العريق، تجمد الكلام الأصيل في صلب مجتمعنا. «هذا ليس لنا !»، قلت في نفسي هذه المرة.

خاصة مع علي هذا الذي لم أعد أتبينه جيدا جراء الظلمة التي أخذت تنبسط حولنا، ما جعلني أتخلص من كل حرج. لم أكن بحاجة إلى أن أراقب نفسي. كنت سعيدة بوجودي معه. لم يكن أخا ولا ابن عمّ. كنت أتمنى لو كان قريبا لي لشد ما كنت أثق به بعفوية. حدثني عن مدينته بالجنوب. هل أسبغت عليه سريعا جمال الأجنبي داخل مجتمعنا الأهلي ؟

عند وصولنا إلى المحطة واصلنا السير بعيدا. كان الليل يسدل ستائره. واصلنا حديثنا : لم أحتفظ بشيء من كلامنا، ماعدا ذكرى الثقة التي انبسطت حولنا، بل أجرؤ على الحديث عن الانغماس الذي تجلى في كلامنا. نعم أتذكر هذه المتعة وسكينتي.

كان في مقدوري أن أمشي بلا نهاية إلى جواره. لم أكن أفكر في شيء آخر : لا في احتكاك اليدين ولا في شد ذراعه.

كنت أشعر بالسكينة صحبته. لقد انتصرت جرأتي في فناء الإعدادية قبالة جمهور زملائي من الجنسين.

لما رأينا اشتداد الليل، هل أنا من رأيته أوّلا، أم هو، أم نحن الاثنين معا ؟ رجعنا على أعقابنا إلى غاية باب الإعدادية، ونحن نواصل حديثنا وكأننا لا زلنا نسير في عز النهار.

أتذكر وصولنا إلى باب الداخلية : كانت الأماكن خالية، كان حشد التلاميذ والأساتذة وجميع من صعدوا على الخشبة، قد تلاشى.

ظلت البوابة مفتوحة جزئيا. في العمق، كنا نشاهد بعض الأضواء ولكنها صادرة من المراقد في الطابق الأول ليس إلا.

لم أحس بمرور الوقت : هل مرد ذلك إلى أني استعذبت هذا السير، سير زوج من الشبان، ساعة الغروب ثم في الليل ؟ لم أحتفظ بشيء دقيق عن آخر كلامنا الذي امتاز بعفويته بل ببراءته...

بيد أني إن كنت أستحضر هذا الأنس بين مراهقين مسلمين، في هذه السهرة من سهرات صيف 1951، فإن ما بقي راسخا حيا هو لحظة الوداع.

استبد بي الخوف لما لاحظت، وأنا في الظلام، بأن جمهور السهرة قد اندثر كما في الحلم.

يجب عليّ أن أعود. قلت لعلي إلى اللقاء. لم أمد له يدي ولم أدن منه.

ثم خشيت فجأة أن أجد أبواب المراقد في الطابق العلوي مغلقة.

ترى ما هي الكلمات الدقيقة التي تلفظت بها وأنا أودعه ؟

أحاول التغلب على قلقي، وكأن الليل قد هوى دفعة واحدة علينا. همست وقد أدرت ظهري للشاب :

– أتمنى أن تكون الأبواب في الأعلى مفتوحة !

إثر ذلك، أظهر رفيق هذا الهروب –الذي قد يبدو في نظره مغامرة غير مجدية– الجرأة الوحيدة لهذه الأمسية : هل كان ذلك جراء رغبة حقيقية أو –لم لا– كي يكون ثمة شيء ما يرويه لأصدقائه الذين هم في انتظاره ؟ أدرك دون شك أن لا شيء إلى حد الآن قد حصل بيننا وأمام هذا «اللا شيء» تجرأ.

بينما كنت ألتفت من جديد نحو نوافذ المرقد في الأعلى، جذبني من يدي، وبينما لم أعد قبالته، سمعته يطلب مني برقة :

– على الأقل اعطيني قبلة !

لست متأكدة من كلماته الدقيقة ومن دعوته التي عبر عنها بصوته، أجل بالفرنسية، ومع هذه الخاتمة :

«اعطيني قبلة» –قلت في نفسي على مسافة منه، وأنا بين التسلي والعطف، بعد كل هذه العقود من الزمن، إنه أسلوب كان يمكن أن يكون لبطل من العصور الوسطى.

أما أنا العفيفة، ظلت ردة فعلي، في ذكراي، مبالغا فيها بشكل سخيف.

لقد تجرأ أن يهمس لي أنا التي شعرت بفخر جم حيال جرأتي أمام الجميع وأقمت في حوار من الصداقة معه : «اعطيني قبلة» ! ويحاول –بالكاد– أن يأخذ يدي ليجذبني إليه ! لئن كنت أستحضر هذه الجرأة من قبله فلأني عاودت استحضار القبلة بدقة : حين لمس يدي لثوان معدودات، سرت في نفسي ريح الرفض والمفاجأة المهينة.

دفعت يده وكأنها ستوسم بالنار والحديد. فكلمة «قبلة» التي سمعت، تلقيتها كإهانة أو شتيمة. كدت أقول : تدنيسا –رمز ردة فعلي العنيفة التي بدت قاسية : أراني أجري وأجتاز الفناء الصغير الغارق في الظلام، ألج مذعورة الردهة الأولى وأصعد الأدراج دون أن أستعيد أنفاسي، وطوال هذا الفرار، كنت أؤاخذ نفسي : «هذا بسببي ! بسببي... !». عندما وصلت إلى المرقد، التحقت بسريري وتجردت من ثيابي وقلبي يخفق... في السرير المجاور، كانت جاكلين قد استسلمت للنوم.

انكفأت على نفسي بين الأغطية وقد استولى عليّ الندم : ترى هل لمس الشاب جسمي لمسا خفيفا، وهل

يمكن لجسمي هذا أن يزعم بأنه لم يلطخ وبقي طاهرا ؟ إلى غاية عزّ الليل لم أقو على إغماض العين، متسائلة بجدية (وسخافة) عمّا إذا لم أسمح لهذا الفتى –لأنه اجتذبني وهو ما لم أكن نسيته– جراء طلبه «الجريء» بأن لا يحترمني !

نمت أخيرا من شدة الإعياء، وأنا لا أزال نهب ندم متواصل.

منذ اليوم الموالي، ندمت بشدة على هذا التحدي غير المجدي الذي انسقت إليه بسبب منيرة. أظنني تقوقعت على نفسي بعد أن حركت أكتافي لأول إيحاء صادر عن هذه الزميلة أو تلك. هل استطعت أن أخنق ندمي، وهل وددت نسيان ما كنت أعتبره «خطأ» ؟ لم أعد أتذكر ذلك.

كملاحظة هامشية لهذه المغامرة أو شبه المغامرة التافهة في الواقع، ولكن صداها تواصل واستشرى فيّ خلال هذا الصيف الذي بلغت فيه خمس عشرة سنة -أنا المراهقة المسلمة ذات الذهن المجبول بآثار الكتب، بيد أن روحها بقيت تحت تأثير محظورات تربيتي- بعد أكثر من عقدين، ها هي مصادفة لقاء قد انتشلت من النسيان هذا المشهد.

أراني وأنا في الأربعين من العمر، أسافر في الطائرة من الجزائر إلى باريس. الطائرة مملوءة. وما إن ركبنا حتى حيتني سيدة من سني تعرفت عليها. هي من المدينة حيث عشت سنوات الإعدادية. سأسميها نادية.

تبادلنا بعض الكلمات. هي برفقة جماعة من الأصدقاء.

وأنا أسافر وحدي، ألفيت نفسي جالسة خلفها وإن ببعض الصفوف. وأنا أتأهب للجلوس، لاحظت معها

فتاة ذات جمال أخاذ. قلت لنفسي بشيء من المتعة : «إنها أجمل شابة في الطائرة !».

نسيت بعد ذلك المسافرين الآخرين، كنت غارقة خلال ساعتين من السفر في المطالعة. فجأة وقفت أمامي مبتسمة، هذه الفتاة التي خاطبتني بخجل :

– أريد أن أقول لك سيدتي...

ترددت محتفظة بابتسامتها. نظرت إليها وأنا معجبة بها. خلصت إلى القول :

– نادية التي تعرفين أخبرتني من تكونين ! ...

توقفت ثم أضافت محمرة الخدين :

– أريد أن أقول لك : أبي –طبيب في مدينتنا بالجنوب–، أبي الذي تعرف إليك أيام الثانوية فيما أظن، كثيرا ما يحدثني عنك !

احتفظت بالكلمات «مدينة بالجنوب». وسرعان ما لاح من أعماق ذاكرتي أو بالأحرى من نسياني اسم الثانوي الشاب «السوقي»، ولكن ليست كلمة «سوقي» هي التي صعدت إلى شفتيّ، لا إنه الاسم المستعار الذي أطلقته عليه، «الصحراوي» : تقاسمت رفقته أول هروب،

إنه الفتى الذي جعلني طلبه « (قبلة) » نهب اضطراب جم طوال ليلة برمتها، صاحبه ندم مماثل.

نسيت اسمه، لم تذكره ابنته، ولكنها أحدثت فيّ فرحة كرامة وعزة نفس، أو بالأحرى بعثت في نفسي تأثرا قد تلاشى : «هكذا إذن، ولأول مرة، لا شيء يفنى، ولا شيء ينسى بين مخلوقين، بعد عشرين سنة خلت، قلت في نفسي. ترى، هل هذا هو الحب الحقيقي، والانجذاب الذي يستمر أم هو ليس سوى ذكرى متقدة لجرأة مشتركة ؟».

استمر الغليان فيّ على متن هذه الطائرة المتوجهة من الجزائر إلى باريس، المملوءة بسياح ومهاجرين عائدين بعد انقضاء عطلتهم.

ظلت الفتاة منحنية نحوي، أنا صاحبة الأربعين سنة التي ردّت البسمة لبنت «الصحراوي» بعد أن تغلبت على التأثر الناجم عن هذه الذكرى.

– اسمعي، قلت لها بلهجة هادئة، أتعرفين ما ستقولين لأبيك وأمك من قِبلي ؟

انتظرت مترددة، وهي لا تزال شبه منحنية نحوي :

– قولي لهما –واصلت– بأنه حتى قبل أن تأتي لتحدثيني، كنت قد لاحظت أنك أجمل مسافرة ضمن هذا الحشد !

احمر وجهها، وعادت إلى مكانها. اعتراني ذهول مطول. قلت دون كآبة : «كان بإمكان تلك "المداعبة" البريئة أن تصبح أجمل قصة حب لي !».

.11
لحن ناي

الكتاب الذي كنت أطالعه آنذاك على متن هذه الطائرة ترجمة لأعمال جلال الدين الرومي، المتصوف من كونيا، المعاصر، في آسيا الصغرى، «لفرانسوا داسيز» بإيطاليا والأندلسي ابن عربي الذي يقال إنه التقى به بدمشق. هذا الكتاب الذي عنوانه «المثنوي» أو «مثنوي معنوي» ذائع الصيت منذ مدة طويلة عند مسلمي الغرب والمشرق.

يقول لنا جلال الدين الرومي في أعماله الشعرية هذه إن «أول شيء خلقه الله هو ريشة القصب»، ثم صوّر قوله هذا بقصة لا تكف عن التأثير فيّ. لنلخصها ها هنا، فهي تبرر العنوان الذي فرض عليّ من أجل عبور مراهقتي: «تمزيق المحجوب أو المستور»، مشاهد في شكل شذرات طويلة أو قصيرة لماض ينحني نحوي في شكل ظل منحن -مثل بنت «الصحراوي» فيما مضى، التي ظننت أني

نسيتها، أجل مثل هذه المراهقة الجميلة جمال لحن ناي، وكطيف منحن في سماء ذاكرتي.

لنقتف آثار هذا الصوفي : يروي لنا جلال الدين الرومي أنه ذات يوم، أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكشف لصهره علي رضي الله عنه أسرارا منعه من الكشف عنها لأي كان. كان فكر علي منشغلا جدا، ما جعله لا يقوى على الاحتفاظ بأسراره في قلبه. اضطرب علي ففرّ إلى الريف على مشارف المدينة. سار طويلا عبر الصحراء قلقا ثم توقف أمام بئر. صلّى وتردد. بيده رفع غطاء مثابة البئر، وبحركة واحدة انحنى يائسا أو ربما وجد كيف يتخلص دون خيانة العهد المقطوع : أدخل رأسه عبر فتحة البئر الذي كان ماؤه يلمع في القاع بعيدا جدا عن أعينه !

فجأة استولت عليه نشوة صوفية لكونه مستودعا وعبئا، روحا وجسدا مسكونين بهذه الأسرار، همس وغنى لا يخاطب سوى الماء الملتمع في قاع البئر يحيطه صمت الأرض كالماس، تخفف، هتف بها في صمت البئر الغامض مخلّصا نفسه من جميع الأسرار التي أودعها عنده الرسول صلى الله عليه وسلم.

إثر هذا النقل التحرري، سقطت قطرة ريق مثل لؤلؤة أو حبة بذور، في قاع الماء الغارق في الظلام.

يروى أنه بعد أيام قليلة بدأت قصبة في الانبثاق من هذا الماء المخفي، وراحت تنمو يوما بعد يوم. مرّ راع من هنا فقطع بسكين هذه القصبة العالية والمنتصبة جدا. وعلى غرار أي بدوي من بدو الصحراء العربية، يكفيه أن يصنع ثقوبا كي يعزف على الناي، في حين تتحلق الخرفان حوله.

جذب صوت هذا الناي، ذو الصفاء السحري تقريبا، الرجال والحيوانات القريبة. كما اجتذب المسافرين العابرين، بدوًا وأجانب : كانوا يبكون من المتعة والحنين -من الوحش. حتى الجِمال، بدل أن تتبع قوافلها، بركت حول عازف الناي ورفضت السير في عناد.

تناهى هذا الحدث إلى علم ناس المدينة والرسول نفسه. استدعى محمد الراعي. وحين انبرى يعزف، سرت النشوة في نفوس العابرين أيضا.

بعد برهة من الصمت، شرح محمد بلطف :

– هذه الألحان هي تعليق على الأسرار التي استودعتها عليا !

وأضاف :

– لا يمكن أن يتمتع بهذا النغم الصادر عن الناي إلا من كان قلبه طاهرا !

ثم خلص إلى القول :

– الإيمان كله متعة ووجد !

بعد التذكير بمراهقتي البعيدة، ثمة مشهد يبعث فيّ التأثير والاضطراب، إنه مشهد العازف على الناي بالمدينة المنورة، كما في مقدور الرسام بييرو دو لا فرانسيسكا أن يحييه بريشته : أرى في فضاء رحب وجه زوج فاطمة المثقل بأسرار صوفية سلمت له، قد سلمها بدوره للماء (أراد عمه وصهره أن يودعها في ذاكرة أكثر فتوة وأن يختم عليها في قلب أقرب وريث، ربما لأنه شعر بدنو موته —قد يكون ذلك حصل قبل خطبة الوداع عند عودته إلى مكة).

أجل، أنا المتفرجة على المشهد، أربعة عشر قرنا بعد ذلك، لم أحتفظ منه إلا بوجه علي في الصحراء الخاوية، صورة مكبرة لذلك الوجه، الذي يروي في عتمة البئر الذي احتفظ بغطائه مرفوعا عند الحافة.

قبل انبجاس القصبة وانتصابها سريعا من الماء، قبل أن يأتي الراعي مع قطيعه من الجمال أو مجيء الغزلان المذعورة، أرى وما زلت أرى وجه علي اللامع فوق البئر المظلم وهو يسرّ في شكل كلمات مرتلة كآيات القرآن الكريم، بكلام الرسول المقدس المنزل والذي أراد تدوينه حين أحس بدنو وفاته...

كلام في شكل قطرات تحولت، في قاع الماء، بفضل ظل الأرض المحروسة وصمتها.

إنها المرحلة الأخيرة ولكن في شكل عدّ تنازلي : لنعاود الصعود إلى هذا النقل المقلق. ننطلق من الراعي المتواضع الذي يتوقف مصادفة، ولنعد بناء مجرى التحول في الاتجاه المعاكس : فتى مجهول وهو ينفخ في قصبة منبثقة من بئر يحول إلى موسيقى أغرقت وحققت في الوقت ذاته، وصية الرسول السرية لوريثه الأقرب !

ها هو هذا الكلام المنبثق والمسلّم سريا يأخذ في الانتشار إلى ما لا نهاية ! في حيرة النبي الشديدة إلى علي : خوف إنساني، إنساني جدا من طرف النبي الذي أحسّ باقتراب وفاته.

في الواقع، منذ هذه الفترة أخذ دراويش جلال الدين الرومي يدورون دون توقف في أصقاع العالم، حتى في أقصاها !

أما أنا، فأريد أن أعيّن اللحظة الأكثر اختفاء والأكثر وحدة : علي وهو أمام ثقل هذا الكلام المؤثر. الحالة الأولى –حالة النشوة الصوفية–، كما يقول الرومي بصدد علي الشاب الذي أصبح فجأة هشا، وهو الذي كان يعد «أسد الإسلام» منذ البداية.

التاريخ لا يخبرنا ما إذا كان ابن عم الرسول، بعد أن سكب الكلمة المقدسة في الماء الصامت، المثقل، عاد أدراجه إلى المدينة وقد خف روعه وارتاح... ربما رواة آخرون يخلصون، ولكن في عجلة، إلى أنه من خلال تخلي علي عن إرث الأسرار، وهو الأمين، ولكنه ذو قابلية للضعف بالنظر إلى كونه صاحب السر، نعم، بعض «السياسيين» أو المفسرين سوف يرون في هذا الإيداع الصوفي، في ماء البئر، لكلام الرسول، الكلام الذي تحول إلى موسيقى الناي، عند وفاة الرسول، ولهذا كله لم يتم اختيار علي ليكون خليفة للمسلمين إلا بعد أبي بكر، عمر، ثم عثمان، إذن بعد تتابع أحداث عدة.

صوت الناي هو وحده الباقي : راع مجهول بإمكانه أن يندرج، دون علم منه، وبخاصة دون أن يفخر، في انتقال كلام نهائي إلى موسيقى سماوية صادرة في جلال عن الناي، أتفه القصب.

وبينما هو يصدر دون كلل موسيقاه للملائكة، أعود إلى حياتي المتواضعة : إلى أي انتقال أو تحول نذرت في هذا الحجاب الواجب تمزيقه، كما أردت صياغته ؟

.12
صيف الجدات...

حينئذ عاد إلى ذهني كل شيء : كل ما يتعلق بذلكم الصيف حيث كان عمري خمس عشرة سنة، أم أنا مخطئة في التواريخ ؟ لا يهم : أكتفي باقتفاء إيقاع ذكرياتي التي تنزل كالشلالات من السماء في سيول ملونة ومتباينة. لا يتعلق الأمر إذن بسيرة ذاتية، أي بسرد كرونولوجي وفعلا ليس هناك تسلسل زمني منظم بعد هذا !

لم الكتابة والعيش ثانية في شكل ومضات، لبلوغ أي قطيعة، أي إقلاع أو أي سقوط ؟ أي خلاصة هشة مدفوعة صوب الأفق في شكل وثبات مفاجئة في صلب زوبعة تهز وتقلب كل مصير حتى الأكثر تواضعا والمنسي أحيانا من قبل الذي يتعين عليه عبوره ؟

تبنت ذاكرتي المتمنعة فجأة نظرة مائلة، إن صح القول، كي تبعث من جديد بعض الأيام أو أسبوعا أو أسبوعين

حيث تصاغ نقلة لا أراها بعد. ترى هل حصل وأنا أعبر مراهقة رزينة جدا –في نظر البعض– أن تم ذلك كما لو أن الاضطرابات الصاخبة والغامضة التي لم أودعها يومياتي آنذاك قد أدت بي إلى أن أدفع ثمنها غاليا : لم أكن أبصرني رغم نظري الذي كان موجها إلى داخلي ؟

كنت إذن معتمة لنفسي خلال هذه المرحلة الأخيرة حتى وإن كنت قد انتصبت «عارية» ومكشوفة في مرايا العالم.

ذاكرة الجسد، كبشرة ثانية ولكن داخلية، تظل متربصة، عمياء ولكنها عنيدة. وكأن آثار الطفولة واضطرابات المراهقة، في هذه الأسابيع أو الشهور من التأرجح، قد غطتها فجأة الصورة المضاعفة أو المفككة للجدة (من الأم) التي كنت أتأملها منبهرة برقصتها الوثنية، وهي الساعية إلى علاج داء لا أعرف كنهه، المحاطة بموسيقيات مقرفصات عند رجلها...

ترافقها تلك الموسيقى القادمة من أعماق إفريقيا الضاربة في أعماق الزمن، حقا من ذلك الإجهاد المتوحش، الذي كان يمكن في كل حين أن يفلت من السيطرة، حقا من هيجان الجدة ذلك، الذي كان إيقاع الطبل يكبحه فيما مضى إلى غاية سقوطها -لم يكن ذلك المشهد المفاجئ بفعل هزيمة أو غفوة، بل بفعل دعة تامة، وكانت أحيانا

تستسلم بينما جسدها المشلول، الثائر كان يبدو متأهبا للطيران. أجل، أنا سليلة هذه الجدة، مقتفية أثرها روحا وجسدا، بما أن التمرد طويل جدا ولا يروم التوقف رغم كل الشموس والأيام الآتية.

أدرك الآن بأني وريثتها بطريقتي الفوضوية ودون الاستفادة مثلها من أوركسترا من النساء المقرفصات عند رجلها —ما عدا أني أحثهن على الوقوف والاستقامة كي يضربن بأعقابهن مثلي وأن يعطرنني بالياسمين والبخور وأن يباركن جبهتي بأيديهن الموشومة !

سأطلب منهن أن يحطن بي وأن يحاصرنني إن اقتضى الأمر، وأن يسهرن عليّ إن نمت، وأن يتشبثن بي بسترتهن المهدبة وشعرهن المفكك ثم جميع عطور الجزيرة العربية، وأن يرتجلن أدعية كي أظل منتصبة وتبركا كي أحمي نفسي من نفسي، وأن يرتجلن كل التعاويذ حتى المارقة كي لا أركض إلى مكان ما —أي مكان ؟ سيغنين دون كلل. أجل، يتعين عليهن أن يبعدنني عن الهاوية والأعاصير وفقدان التوازن المباغت، وأن يبقينني سجينة، وأثمل عند الضرورة من قرعهن الطبل ليل نهار دون انقطاع : حينئذ، تنزل من

السماء أجزاء كاملة من سنفونية بارتوك في شكل شلالات وثلوج الأوراس الأزلية وسرعة فرس القرون الماضية...

في النهاية، في خضم الصمت الذي سيلطخني، سأستعيد جذوري! وعلى بساط أملس، قبالة الشمس الغاربة، سأجلس.



III.

تلك التي تجري صوب البحر

أوَما عجبت لواقعٍ في طائر؟

ابن حمديس الصقلي– شاعر عربي–
(447–527 هجري / 1055–1133 ميلادي)


https://telegram.me/maktabatbaghdad

.1

في القرية مرة أخرى

أوقف سرد مراهقتي لأن شكا مفاجئا يؤرقني : متى ومن خلال أي قطيعة أو لبس، وربما حتى قلق أو أي يقظة غامضة، بل أي وحدة لذيذة أو ساهية، أي باب ضيق أخيرا نخرج من فجر الحياة هذا وضوئه الذي قد نعده ضوء حلم من الأحلام ؟

السنتان الأخيرتان من حياتي في الداخلية تظلان معلقتين (قد أعود إليهما من خلال ومضة ضرورية أو بمناسبة ذكرى من الذكريات)، قبل أن ترحل أسرتي كي تقيم بالعاصمة التي أمست مدينتي «الحقيقية»، مدينة سنة واحدة -الجزائر التي هيَ على وشك الاهتياج، مشرعة قبالة السماء والبحر، ستظل بالنسبة إليّ تلك المدينة المنحنية ذات عيون متعددة جاحظة ليل نهار، ولكن على ماذا ؟ . . . كان يطلق عليها اسم مستعار : البهجة، الجزائر السلطانة

التي سيستولي عليها الدوار قريبا. أود، أنا التي سأعيش بعد ذلك في باريس وتونس والدار البيضاء (المغرب)، أن أستيقظ كل يوم في العاصمة المتروكة لهمومها قبل أن أعود إليها خلال استقلال البلاد.

هذه الحكاية لن تؤدي بي إلى غاية سنوات العاصفة هذه. إذ ستتعثر قبل حدوث هذه الحكاية المضطربة الحالكة، حكاية الجميع، أيا كان المعسكر المختار من قبل هؤلاء أو أولئك. بيد أن سرد «حكايتي الصغيرة» سيصطدم بيوم من أيام خريف 1953...

هل يجب عليّ، أنا الراغبة في الاقتراب من هذه الدوامة، داخل غرفة انتظار مراهقتي الحالمة، أن ألخص دنوي من سن الكهولة بالتذكير البسيط بمطالعاتي، حتى وإن لم تستطع هذه الأخيرة تخليصي من همس نساء القبيلة وشبكة أصواتهن الناطقة بالعربية (أو البربرية في ضيعات الجبل)، الهامسة أو الممزقة خلف كل نافذة...

لما كنت قارئة العديد من الروايات والأشعار والأخبار باللغة الفرنسية –لغتي الصامتة–، فإنه بفضل هذا الهروب في المحصلة (كنت أواصل القراءة ليلا في المرقد، وذلك حتى لما كنت في الرابعة عشر والخامسة عشر، ومصباح

الجيب تحت الغطاء)، أجل، بفضل هذا الشغف بالمطالعة، تعمقت شيئا فشيئا سيرورة نضجي.

ومع ذلك أقول : لا !

لا أعتقد ذلك، لأني أحاول أو أرغب في إخفاء... إخفاء ماذا ؟

رسائل الحب الأولى التي استلمتها.

«أحقا رسائل حب ؟» كتبت، ولكنك تشكين : «رسائل حب، حقا ؟» هذه النوافذ التي من خلالها تتسلل المغامرة ونفس الحرية غير المدرك ؟ لم لا ؟

لقد عزمت وقررت : اخترت أن أروي هذا الانتقال، انتقال «البنت الصغيرة» التي كبرت بفضل الكتب ومن أجلها، بينما لا يكاد جسمها يستقر في مكان، ولكن هذا لا يزال وهما وتخيلا –قد نقلته لك نساء مجهولات أو منسيات، ولم لا تكون جدات قريبات جدا، مقرفصات على بساط من الشرق أو حصيرتهن المصنوعة من القنب ؟

فجأة أراهن : ظلال قبالتي، هادئات ينظرن إليّ أحيانا بابتسامة، وأحيانا مع الأسف بنظرة مفعمة بالريبة –راحة أيديهن على خدودهن، يرتلن أو يتظاهرن بذلك ليوهمن

أنفسهن بأنهن حارساتي وحصوني. أمامهن، سأخترع، من باب اللعب، عشاقا متيمين وأبناء عم خجولين مرتعدين، كي يهبني أحدهم رقة وكلمات مداعبة وصمتا مفعما بالليل...

ومع ذلك لا !

أخفي ماذا ؟

رسائل الحب الأولى التي تلقيتها.

تعترفين : «رسائل حب». هل هي حقا رسائل حب ؟

أن تروي هذا البين بين، بالتوارك أو بتوقيعه (حتى وإن لجأت إلى بندير الجدة) وأن تضعي نفسك، بالتناوب، على هذه الرجل أو تلك، وكأنك برغبتك في الرقص هذه (في الردي، في الانطلاق، في الركض، في الهروب، في الإسراع إلى أقصى حد، إلى اللانهاية غير المرئية، غير المسموعة، والانفجار هناك) تشعرين بأن الجسم الذي يأخذ في الكبر هو الذي لا يقوى على الاستقرار هناك في ظلمة شقة القرية، من شدة تأمله غير المتناهي، كما في الطفولة الأولى، «الآخرون»، أي أولئك الذين ينتمون إلى الطائفة الأخرى، الذين يرقصون، يحتفلون، وأحيانا يظهرون في مواكب كاثوليكية كنت تحكمين عليها بأنها شاذة وسيطة (نسبة إلى القرون الوسطى) ووثنية

حين يحملون بمظاهر جامدة أصنام المصلوب وأمه ذات العينين المرفوعتين، ثم حين يأتي المساء، ينبري مجتمعهم الصغير المتحلق حول كشك القرية -تحت أعينك الملتصقة بالزجاج في غرفة الوالدين بالطابق الأول- ليرقص في شكل أزواج متعانقين، ويتحرك ولا يكف عن الإعجاب بنفسه تحت الأضواء الكاشفة، تاركا العديد من العيون المتلصصة، والأهالي الوسخين المجردين من أراضي أجدادهم يتأملونهم، نظرات شبقية ورغبات متوحشة حيال حفلة «الآخرين» التي كانت تتواصل على إيقاع الأكورديون.

في ذلكم العهد، لم يكن يوجد سوى هذه العروض بالقرية، وكان هؤلاء «الآخرون» يدورون تحت أنظار هؤلاء الذكور من أهلنا ذوي الثياب الرثة المنبهرين بالرقصات التي كانت تجعل الأزواج الأوروبيين يترنحون -علما بأن هؤلاء الأزواج كانوا يجتذبونني أنا أيضا، أنا الطفلة الصغيرة الملتصقة بزجاج النوافذ وقد راعتني كذلك النظرات اللامعة لـ«ذوينا»، هؤلاء القرويين الممنوعين من التقدم تحت الأضواء الباهرة، كقطعان من الثعالب بالمرصاد الذين كنت أتصور بريق عيونهم رغم العتمة،

هؤلاء القرويين الذين لن يأتوا أبدا مع نسائهم أو بناتهم ولا حتى فرضا أنهم رغبوا في ذلك، أمهم العجوز لتأتي بدورها لتشاهد، وتؤمن قبل أن تموت، بتلك الأخلاق التي كانوا يغبطون أصحابها، والتي ستلعنها العجوز، مستنكرة وضعهم كمشاهدين، وستدرك قبيل أن تموت، أنها لم تقم سوى بإنجاب راغبي شبق هؤلاء الناس الذين «لا حشمة لهم ولا حياء»، وسوف يدفع الإغراء الماما التي سيقت إلى هناك، إلى التخيل أن هؤلاء الأزواج الأجانب، المتعانقين بهذا الشكل للرقص، سينتهي بهم المطاف وأمام الملأ، إلى المضاجعة.

وأنا أعود إلى هذه الأيام الأخيرة من فصل الربيع في القرية، أتذكر هؤلاء المتفرجين المتربصين في الظل حول الكشك. أتخيل نساءهم وراءهم، هؤلاء النساء اللواتي كنت ألتقي بهن عندما أذهب إلى الحمام مع أمي. كنت أخشى عينهن المتفحصة الشبيهة بعين طير جارح: هكذا كانت تعاودن الظهور تجتذبهن، مثلي –ولكن من الجهة الأخرى للكشك– هذه الرقصات العامة بين الأوروبيين...

أما أنا، في وضع الملاحظة المنبهرة بهؤلاء العمال المتلصصين الحاسدين، كنت أحدس أحيانا تهديدهم الحاد للأزواج الراقصين دون كلل، وأحيانا اشتهاءهم : بحيث تسللت بداخلي شبقيتهم الذكورية التي لم يلاحظها أي راقص أو راقصة هناك تحت الأضواء. بدا لي أنا بدوري، وأنا ألقي بنفس النظرات اللامعة الشبيهة بنظرات هؤلاء العمال الجامدين كما هو الشأن في كواليس مسرح، أني أفاجئ بريق اللحم العاري لأكتاف الراقصات الأكثر دورانا تحت الأضواء أسفل الجوق القروي.

بيد أني لم أعد تلك الطفلة بالقرية.

.2
الرسالة الممزقة

الرسالة الممزقة : نحن لا زلنا في القرية في أيام جويلية 1952 الأولى.

إنه الصيف الذي بلغت فيه سن السادسة عشرة فيما أظن. فوق رسالة المجهول التي مزقت توا وجه أبي المتشنج. لست على علم بعد بالأمر.

مزّق أبي الرسالة إربا إربا وبعنف. طرح سؤالا واحدا : ماذا فعلت في اليوم الأخير من الدراسة أي أسبوعا من قبل ؟

أرد :

– كنت هنا في الصباح عند توزيع الجوائز ! في الظهيرة، رافقت منيرة إلى نفس حفل توزيع الجوائز بثانوية الفتيان.

ألقى بقطع الرسالة الصغيرة في السلة ثم خرج صامتا.

بقيت مشدوهة حيال عنف غضب الأب. ظننت أن الأمر يتعلق برسالة مجهولة، أو حتى ببطاقة مشحونة بكلمات بذيئة. غادرت الصالون بدوري. قلت في نفسي لا بد أن أستشعر إما الخجل وإما الإهانة. كنت بالأحرى باردة.

عند ساعة القيلولة، أي بعد ساعة أو ساعتين من ذلك، لاحظت السلة في ركن: في القاع رأيت نثار الرسالة. خفية، وببطء امرأة من الهنود الحمر، أعدت بناء الرسالة بيدي القلقتين.

إنها رسالة تافهة تبرهن بنفسها على براءتي: شاب من المدينة حيث أقيم كداخلية يقدم نفسه كطالب ويقترح تبادل الرسائل ليس إلا.

إذن خطيئتي الأولى هي فضولي: قراءة الرسالة التي أغضبت أبي. لا أجد كلمة أفضل من «السعار»! لقد صيغ طلب المراسلة بأسلوب متعارف عليه. ولولا سرعة ردة الأب، كنت دون شك سخرت من اللهجة المتبناة من قبل هذا المجهول.

غير أنني احتفظت في ذاكرتي باسمه. كما سجلت في مكان ما العنوان الذي دونه. ولما زعم بأنه طالب في

العاصمة، قررت أن أرد عليه عند الدخول المدرسي في سبتمبر لأخبره بأني أقبل بهذا التراسل.

أما خطيئتي الثانية فكانت عصيانا مقصودا : وأنا أفكر في هذا الحادث الخالي من العواقب، قلت في نفسي بصدد أبي : «إن قلة ثقته بي مثيرة للاستياء !».

أردت أن أظهر بمظهر المهانة، كان ذلك إغواء ليس إلا.

خلال هذه السنة المدرسية الجديدة –آخر سنواتي بالثانوية– أتذكر إقبالي الجم على دراسة النصوص الفلسفية المبرمجة. منذ الأسبوع الأول من الدخول، أرسلت رسالتي إلى «طالب العاصمة» : كانت لهجة رسالتي أكثر امتثالا للأعراف من رسالته التي لم أحتفظ بها.

وفضلا عن هذا، طلبت، في ملحوظة هامشية، من مراسلي أن يدون على ظهر الظرف اسم زميلة تواصل دراستها في الجزائر : في الإعدادية، كانت مراقبة بريد الداخليات صارمة.

خطيئتي الثالثة تتمثل في استعمال الحيل وكأني دساسة محنكة.

خلال توزيع جوائز السنة الماضية، كان أبي حاضرا وسعيدا دون شك بسماع اسمي الذي كان يذكر غالبا. منيرة التي كانت قد ظهرت لتوها، تقدمت بنفسها إلى أبي : طلبت منه أن يتركني أقضي الظهيرة عندها. كان أبوانا يتعارفان وفخورين، فيما أعتقد، بنجاحنا في الجزء الأول من البكالوريا. قبل أبي الذي كان عليه أن يذهب إلى العاصمة لأمر هام طلب منيرة. في المساء، استقللت الحافلة من أجل العودة إلى القرية.

ها أنا أنزل عندها إذن. لم تكن هذه زيارتي الأولى لأسرتها : كنت أعرف أمها وأخواتها الصغيرات جدا آنذاك. بعد أن دخلت إلى غرفتها، عرضت عليّ خطة يبدو أنها أعدتها بدقة :

– سنذهب أنت وأنا لحضور توزيع الجوائز في ثانوية الفتيان !

قبلت الطلب قائلة في نفسي : بدون تزكيتي لن يسمح لها دون شك بالخروج إلى المدينة في هذه الظهيرة.

قلت لها محذرة إياها :

– عند خروجنا من الثانوية سأمتطي الحافلة عائدة إلى القرية !

أرانا إذن نحن الاثنتين، منيرة سعيدة، بفضلي، بأن تظهر دون ارتداء الحايك التقليدي الذي نزعته بمجرد مغادرتها لبيتهم، وطوته إلى أربعة. هكذا تتعاطى ظهيرة من الحرية المهيجة.

لم أسألها : «ولم ثانوية الفتيان ؟» .

السنة الماضية، خلال التمرينات من أجل الأوبريت، شعرت بأن منيرة تسخر مني. في هذا اليوم، فهمت بأن وجودها معي يسمح لها، بمجرد خروجها من منزلها مرتدية الحايك الأبيض للحضريات، بنزعه قبل اجتياز باب ثانوية الفتيان : وهكذا تظهر متحررة من الحايك مثلي وهذا ما سيبدو لها فجأة دون ريب، دخولا ملكيا –وهي التي كان والدها يحجبها عن الأنظار، لأنها فعلا ابنته

المفضلة، التي كانت تشعر أنها جميلة جدا وهو ما كان يقال عنها...

عند دخولنا إذن –بعد ساعة– إلى فناء ثانوية دوفريي، قابلنا مجموعة تتكون من ثلاثة أو أربعة ثانويين مسلمين. وحين تجاوزناهم همست منيرة باسم، مهتاجة:

– ثلاثة أبناء عمّ من أسرة واحدة... !

لا يهم: نسيت سريعا تعاليقها. بعد أيام قليلة، بالقرية، عندما أعيد بناء الرسالة الممزقة، سأقول إن هذه الرسالة كانت دون شك تتمة لهروبنا في تلكم الظهيرة.

لَمَ قررت، في الدخول المدرسي التالي، قبول التراسل مع الطالب المجهول ؟ كنت اتخذت هذا القرار ببرودة، من باب الرد على «الظلم» (أتذكر أني نطقت بهذه الكلمة بحماس) نعم حقا للرد على ظلم أبي إزائي. ترى هل كنت قد بدأت أكذب على نفسي ؟ إلى الحد الذي لا أعترف لنفسي بأن الفضول كان محرك هذا الخرق ؟

ربما يتعين عليّ أن أبحث فيه بالأحرى –ولكن الآن ولأني أكتب– عن اضطراب من طبيعة خاصة : وكأن تساؤلي في هذه الحكاية المروية تقريبا انطلاقا من الطرف الآخر لحياتي، وأنا أنظر للأمر من بعيد، بنظرة غير باردة ولا فاحصة، وإنما نظرة كاشفة، في غاية الموضوعية قد أمسى لاذعا لأنه يعبر، إن صح القول، حياة برمتها ؟ كنت أسعى إلى الإحاطة بهشاشة جرأة المراهقة التي

كنتها، «المحمية» لا من قبل التمييز الجنسي للجماعة، وجهلي الذي تجلى في الاعتقال العريق لأمهاتنا في ذلكم العهد...

أتذكر أن بداية هذا الاضطراب مصدرها سؤال غريب طرح عليّ، حول: مظهري. كنت «مرئية» واندهشت للأمر ذلك من شدة عيشي بين نساء محجبات ومقنعات غارقات تحت الصوف والحرير، وأي نوع من القماش، كنت أتصور أني «غير مرئية» -أريد أن أقول: حقا أنا مرئية وحاضرة في العالم الآخر، عالم الثانوية والداخلية وأساتذتنا وحتى رجال الشارع، ومرئية بالنسبة إلى العالم «الأوروبي» الذي كان يظن أنه يرانا، ولكن دون أن يرانا حقا، بما أني كنت في كل الأحوال أشعر بأني أنتمي إلى الجهة الأخرى: «بنت الليل» كما يقول شعراؤهم والرحالة المستشرقون في أعقاب بيار لوتي الذي أخطأ حين أشار قديما لـ«تعيسات» إسطنبول. علمنا فيما بعد أن الأمر يتعلق بغربيات ارتدين قناعا كي يتزينّ بسر المحظور.

في صلب هذه الجزائر المستعمرة حيث كل مجتمع لا «يرى» سوى جماعته، وحتى في هذه الحال، أو بسبب

هذا الفصل الذي ظننا أنه منيع، لو كتب لي شاب من الطائفة الأخرى رسالة يقترح فيها هو الآخر «التراسل» فإن أبي لن يهوّل الأمر ولن يمزق الرسالة الجريئة. بكل بساطة، لن ينبس ببنت شفة في شأنها.

في السنوات السابقة، مع فريق كرة السلة، اعتدنا -دون أن أفاتح أبي في الأمر- على السفر مع اللاعبات الأخريات للمشاركة في مقابلات بين ثانويات المقاطعة.

الرسالة الأولى التي تسلمتها من فتى العاصمة -اسمه طارق- كانت تقترح لقاء بالبليدة يوم الخميس، وفي هذه الحال، سيأتي من العاصمة لهذا الغرض.

ضحكت :

- ماذا يظن يا ترى ؟ أن أظهر رفقته في مقهى بالمدينة ؟

كان يظنني أكثر تحررا ! أجبته بأن ذلك مستحيل. وعلى عكس ذلك، شرحت له بأنه في مقابلة السلة المقبلة -التي سيشارك فيها ضد ثانوية البنات بالعاصمة- سآتي

إلى العاصمة. في الغالب، بعد نهاية المقابلة، كان في مقدورنا أن نتمتع بساعتين من الحرية. سأخبره بتاريخ المقابلة المقبلة.

مرّ شهر. رغبتي في الخرق خفتت. كان يحدث لي أن أستيقظ في عز الليل وأن أعي بأني أسلك سبيلا «خطيرا». ترى هل كنت أنا من يجرؤ حقا ؟ قلت في نفسي، وعيناي مفتوحتان في الظلام وكأني لم أعد أتعرف في نفسي على فتاة الصيف الماضي. حتى مع بنات عمي بشرشال لم أخبر إحداهنّ عن نيتي في إقامة مراسلة سرية. المراهقة ذات الستة عشر عاما التي كنتها، هل كانت قد أصيبت بعدوى الخنق الذي كانت تعاني منه النساء المسجونات طوال العام ؟ أم على العكس هل كنت عرضة لمخاطر جمة تحت تأثير روائي جامح ؟

كنت نهب الندم... كانت مطالعاتي ثم برنامج الفلسفة الجديد تستهويني. كنت أطالع وأطالع دون توقف في سريري في المرقد. أحيانا أنام وبيدي كتاب، ومصباحي الجيبي مشتعل، تحت الغطاء.

بل حصل أن آثرت عدم العودة إلى الأهل يوم الأحد : كنت أتعلل بـ«كثرة العمل !»، بينما كان الندم على جوابي على مجهول يؤرقني.

كانت خطواتي الأولى في مجال المحظور تولد فيّ سيناريوهات مخيفة.

في يوم من أيام نوفمبر، أخبرتنا أستاذة الجمباز بتاريخ المقابلة ضد بنات ثانوية العاصمة.

– إنها مقابلة هامة بالنسبة لترتيبنا ! قالت لي. أعوّل عليكنّ !

كانت تخشى، كما بالنسبة إلى السنوات الماضية، أن أغيب في اللحظة الأخيرة. في الماضي، كنت بالفعل أتحجج بصداع أو تعب مفاجئ. وكانت الأستاذة تحس بأني أكذب، ولكن أنّى لي أن أعترف لها بأن أبي، منذ البداية، قد أصدر قانونه هذا : في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، ولاسيما بعدها، لا يمكن لفتاة مسلمة أن ترتدي التبان إلا في الملعب الداخلي للمؤسسة ؟

كنت، أنا التي أصبحت كرة السلة شغفا لي، ثم كرة الطائرة وألعاب القوى (في موسم الصيف)، أعد من

أحسن المهاجمات ! ولكن لا أحد كان يرتاب في أنني كنت أحيانا نهب إحساس بالفزع، خوفا من أن يظهر أبي فجأة، ذلك أن المقابلات كانت تجري يوم الخميس خارج الإعدادية وفي أحيان كثيرة أمام جمهور من الجنسين.

في أيام الخميس حيث كنت أقدر مجيئه المحتمل، كنت أؤثر التحجج بوعكة مفاجئة : كان خوفي آنذاك أكبر من متعتي والنشوة التي كانت تعتريني خلال هذه المباريات... خشية أخرى كانت تستبد بي : وهي أن أكشف أمام الملأ السبب الحقيقي لعدم مشاركتي. هذه الرقابة كان من شأنها أن تظهر أبي كبربري أو متزمت متخلف. تصوروا الأستاذة تهزأ بأبي : «رغم كونه معلما !» كانت ستضيف بطريقة لاذعة، إنه أمر لن أستطيع تحمله !

إزاء خطر إفشاء المحظور السائد عند ذويّ، كنت أفضل الظهور بكوني «غير ذات مصداقية للمنافسات» كما كانت تؤاخذني على ذلك الأستاذة أحيانا. كان حرصي على حماية صورة أبي أمام «الآخرين» أهم بكثير في نظري.

في السنوات الأخيرة من حياتي في الداخلية، لم يكن أبي يكرر تحذيراته. لا شك أنه أخذ يشك في أنني، لما

كنت أظفر بجوائز في الجمباز، لا أعبأ بنواهيه. ربما كان يشعر فجأة بأن المعلم الذي كانه والمولع باللائكية، فإن طريقته في نقد ارتداء التبان لدى الفتيات جعله يندرج في زمرة «أصحاب العمائم البالية» كما كان يسمي الرقباء الدينيين التقليديين بازدراء.

إن كونه لم يظهر في السنوات السابقة في هيئة محقق يصل فجأة دون سابق إنذار يوم الخميس -وهو اليوم المخصص للرياضة- ليس مرده إلى المصادفة. ومع ذلك لم أكف عن الخوف من ظهوره المفاجئ أيام المنافسات.

غير أنني في هذه السنة الأخيرة، أخبرت «طالب العاصمة» بهدوء، باليوم الذي سآتي فيه إلى العاصمة من أجل المقابلة. اقترحت عليه أن يتقدم بعد نهاية المنافسة في ثانوية البنات في أعالي العاصمة. قدّرت أن تكون في متناولنا ساعة أو أكثر كي نتعارف، قبل أن أستقيل الحافلة من جديد للعودة إلى الإعدادية.

3.
الموعد الأول

ماذا بقي لي من هذا اللقاء الأول ؟ كان ذلك في يوم من أيام خريف أو شتاء 1952. ترى هل كانت مدينة الجزائر قد وجدت بالنسبة إليّ كمكان لموعدي «الغرامي الأول» ؟ لا، أظن أني ذهبت إلى العاصمة في هذا اليوم، وأنا مسكونة بإرادة قوية لربح المقابلة و«تجاذب أطراف الحديث»، قصد معرفة أي نوع من الطلبة يمثل هذا الغريب... «حسب حديثنا، قررت، سأعرف ما إذا كان من الممكن الاستمرار في مراسلته».

وأنا أستصغر من شأن تهييج لقاء محفوف بالمخاطر، أتساءل هل كان ذلك حقا مزاجي في هذا اليوم أم أن ذلك مرده إلى البعد في الزمان، ولكن في كل الأحوال، هناك شيء ما يريد أن يلجم خيالي -الذي ظل حيا-، بالأحرى الرغبة في ابتعاث البنت الصغيرة ذات الخمس عشرة سنة الجريئة والروائية التي كنتها.

ألاحظ أنه خلافا لحادثة «الصحراوي» السنة الماضية، عندما كان يحضر عرض الأوبريت، لم أكن هذه المرة بحاجة إلى وسيطة –وخلف هذه الكلمة البذيئة– أريد أن أشير إلى منيرة.

هل أصبت برغبة منيرة الجمة في الدسيسة إلى الحد الذي جعل –رغم أني نسيت حادثة النزهة مع الصحراوي– هذا اللقاء مع مجهول، بدل أن يوقظ إدانتي الماضية، بدا لي فجأة نموذجا حقيقيا للخطر...

أضيف قائلة، لما كنت أكبر بستة أشهر، كان من واجبي أن أخرج شيئا فشيئا من عالمي المسكون بالأحلام والمطالعات: تطور طبيعي؟ هل كنت أراني مسلحة بجرأة زائدة قليلا؟ يبدو لي أنني أنتظر هذا الخميس بدافع إجراء مقابلة كرة السلة (كنا كثيرات نتمنى الفوز بها) أكثر من الرغبة في الظفر بساعة من الحرية مع مجهول والتعرف عليه.

أرانا نمشي جنبا إلى جنب ونتخاطب بالفرنسية بطبيعة الحال. فالحديث منذ المرة الأولى بالعربية من شأنه أن يسقطني في ألفة سريعة، وليس لأن التخاطب باستعمال ضمير المخاطب «أنت» في لغتي الأم، أي العربية الدارجة،

هو القاعدة. في حين أن الفرنسية، الحيادية جدا، ستكون لي بمثابة حجاب.

(الآن وأنا أوقظ بشكل متأخر جدا هذه المشاهد البسيطة، يستبد بي شك : ماذا لو طلب «الصحراوي» -الذي كان يعجبني جدا بحيث أعلنت عن ذلك عاليا وبقوة لمنيرة - قبلة بلغتنا، فربما كنت سأقبل، لأن موسيقى لهجته الجنوبية كان في مقدورها أن تستثير فيّ الرغبة في لثم شفتيه وإلى غاية وجهه، هو الذي كنت سأحسّ أنه غريب جدا وقريب جدا في الوقت ذاته، غريب بالتأكيد، لكن همساته أوحت بحميمية مسموعة، كانت ستثير فينا ارتباكا مشتركا.

هل كنت سأدنو من وجهه كما ننحني عند بداية دوار على حافة الهاوية ؟ أم كنت سأترنح ليس إلا دون أن أهوي ؟ في كل الأحوال ما كان علي أن أهرب مثل بنت صغيرة مذعورة بشكل سخيف، تحس بالذنب، وقد ارتجف جناحي من الرغبة التي ثنتني منذ البداية)

لكن في الحافلة التي كانت تقل فريقنا نحو العاصمة، رميت بانجذابي نحو «الصحراوي» في النسيان : ستة أشهر قد مرت على تلكم الحادثة، شبيهة بقرن من الزمن.

كنت قائدة الفريق. يبدو لي هذه المرة أننا نحن لاعبات مدينة من الداخل، قد ربحنا. خلال هذه المقابلة لم أعبأ كثيرا بالجمهور، ناهيك عن الشاب الذي لم أدعه إلا لنهاية المقابلة.

خرجت من غرفة الملابس، شعري مبلول ونظرتي تلتمع من شدة فرحة الانتصار العارمة الجماعية. نسيت تقريبا المدعو طارق الذي انتصب أمامي فجأة.

كان طويلا، واسع الأكتاف وذا نظرة جريئة و... شوارب! أدرت عيوني ورحت أصوغ بداخلي ملاحظة سريعة وفظة: «لا أحب الفتيان ذوي شوارب!». أحسست برغبة عنيفة في إدارة ظهري له.

قدم نفسه لي دون خجل وهنأني على انتصارنا.

– لحظة من فضلك، قلت له، دون ابتسامة. نسيت أغراضي في غرفة الملابس !

كذبت (من أجل الفرار، الفرار فجأة !)

– أنتظرك، رد عليّ دون أن يشك في أنني أرغب في «تركه».

يبدو لي أنني رويت المشهد هذا كما حصل لابنة عمي الأقرب في العطلة التالية، بقريتهم قرب شرشال. وكانت ردة فعلها سريعة :

– شاربه ؟ هذا تفصيل ! كان في مقدورك أن تطلبي منه أن يحلقه بعد ذلك !

– لا، رددت.

ترى هل النظرة الأولى هي الأصوب ؟ جريت صوب الغرفة بعد أن أدرت ظهري للمجهول. وهناك أمام المرآة، نظرت، متسائلة، صورتي المنعكسة كي أقدّر ما يجب القيام به حق تقديره ! هل أقرر : الهروب أم المواجهة ؟

كان الوضع مدعاة للهزل.

– يجب عليك –أنا ألقنّ الدرس لصورتي المنعكسة– أن تقرري الآن !

تسلل صوت التعقل :

– هل يعجبك أم لا ؟ ما همّ، فهو لن يغتصبك ولن يلتهمك !

ثم تمرنت بوعي أمام المرآة، على توجيه تكشيرة فتكشيرتين فثلاثا لي –من باب استرجاع الشجاعة والقول : «يجب أولا أن أسخر من نفسي !».

بعد أن ألقيت آخر نظرة على صورتي المنعكسة، أدرت لها ظهري.

عدت، وأنا أكثر هدوء، إلى الشاب. في الخارج، مشينا بعض الخطوات جنبا إلى جنب. أوقفته قرب الحافلة وأوضحت له :

– لنمش ! ولكن عليّ بالعودة إلى هنا بعد ساعة ونصف الساعة على الأكثر !

منذ الخطوات الأولى التي قطعاها جنبا إلى جنب، لاحظت بأنه أطول منها. توقف قبالتها ونظر إليها برزانة، باديا وكأن الوقت كله في متناوله. أحست إن هي اتكأت بعفوية على ذراعه، سيكون في مقدورهما السير ساعات طويلة (في طرفة عين، لاحظت عينيه السوداوين جدا الممدودتين نحو الصدغين وكذا مظهره الذي ينم عن انتظار هادئ).

بعد أن استعادت راحتها، ابتسمت له وهي تمني نفسها : «ذات يوم، سآخذ ذراعه !».

في الأخير، اقترحت عليه :

–يمكننا النزول إلى وسط المدينة... (تردّدت) والدردشة حتى نتعارف !

أما هو وقد أدار رأسه صوبها، فقد لاحظ دون شك كيف انتقلت من خجل صلب إلى ارتياح جديد.

– سنعود بعد ساعة، قال مؤكدا، لن تذهب الحافلة دونك !

«لا يتكلم الفرنسية مثلي !» قالت في قرارة نفسها.

كانت تسير إلى جانبه وقد سلتها هذه الملاحظة : كانت بالفعل على دراية بمدى إصرار فتيان عالمها –على عكس البنات المتمدرسات هن أيضا بالفرنسية– على طريقة نطق حرف الراء، ونطق هذه اللغة التي ليست بلغتهم الأم بشكل مميز ومتفاخر. الفتيان تحديدا وليس البنات ! ولا أبوها، قالت في نفسها، ولكنه كان يفعل ذلك من باب الصرامة المهنية بما أنه كان يدرس هذه اللغة الفرنسية لـ«فتيانه»، وجلهم أبناء عمال فلاحين أو بطالين أميين.

لا أتذكر قط كلامي وأنا أنزل إلى جانب هذا الفتى المجهول هذا الشارع في أعالي العاصمة. الصمت الذي كان يخيم بيننا من حين لآخر، كنت أتركه يمتد، لانشغالي بتمتيع عينيّ فجأة بمنظر الخليج الهائل تحت السماء غير المتناهية وذات زرقة شديدة، بحيث لم أحتفظ من هذا اللقاء الأول إلا بذكرى انبهاري أمام هذا المنظر.

« الجزائر السلطانة ؟ آه نعم !» قلت في نفسي، وقد سرت فيّ نشوة بصرية هائلة، بفضلها استطعت أن أتغلب على انزعاجي قرب هذا الرفيق المجهول، القريب مني جدا. نزلنا المنحدر بنفس الخطوة وبنشاط. هل كان، مثلي، خجلا ؟ لم أتطارح السؤال.

رغم صمتنا، ولما كان النزول مشيا طويلا، استولى عليّ شيئا فشيئا إحساس جديد : التقدم هكذا «مصحوبة» في

هذه المدينة الغريبة عني، بدا تجربة مؤثرة استعذبتها. بينما في القرية، بإمكان أية مراهقة فرنسية أن تتجول أمام الجميع «مصحوبة»، هذه الصفة اكتست لدينا نحن المسلمات في الداخلية معنى مزدوجا، بحيث أصبحنا نستخدمها بيننا بلهجة ساخرة لاذعة.

ذلك أننا كنّا نغبط هؤلاء الأوروبيات الشابات على هذه الكمالية!

كانت جاكلين، عند سردها تفاصيل العطلة، بالمرقد، تذكر في كثير من الأحيان مشاهد على شاطئ البحر، الشاطئ الاستعماري :

– في كل ظهيرة، بعد الاستحمام، كنا نحن المراهقات (كان عمرها آنذاك ثلاث أو أربع عشرة سنة)، نمشي على امتداد الشاطئ مصحوبات !

كان هذا يعني بالنسبة إليها خطوة الحرية الأولى : ثم تأتي بعد ذلك المداعبات الأولى ثم الغراميات الأولى لا محالة ! أتذكر أنني قلت لها مازحة، ولكن برغبة خفية :

– أنت تصفين لي حرية أغبطك عليها بحيث يمكنني أن أكتب قصة قصيرة تكونين أنت بطلتها : مثلا –قلت– (مع التفاتة لصديقتي الأقرب إليّ «ماق»)، سأهديك إياها ومعا سنعنونها : الصيف بقشتالة !

ثـم قلت لها بتلفظي «قشتالة» ببساطة بدل «كستيقليون» التي كانت ميناء صيد ومصيفا أيضا لا ترتاده سوى أسر المعمرين، ولا يخطر ببال أحد أبدا أن مؤلفته عربية من الأندلس !

ذلك أن في الأدب كما في السينما، يعتقد أن العربيات الأندلسيات لا يسكنّ إلا في القصبة وأنهن جميعا «عاهرات» !

إن هذه الاعترافات الماضية المتبادلة قبل سنتين أو ثلاث هي التي جرتني إلى هذا الاستطراد، فيما أظن. في الواقع، كنت أسأل جاكلين حين تهمس في أذني كلمة «مصحوبة» :

– كل واحدة مصحوبة بمن ؟

كانت تجيب مزهوة :

– كل واحدة رفقة صديقها !

في المرة الأولى، هالتني هذه الحالة : في ديكور هذا الشاطئ الاستعماري المخصص للمحظوظين من مجتمعهم كانت الأمهات يجلسن قبالة البحر يتأملن كيف «تصاحب» بناتهن البالغات أو شبه البالغات !

نحن المسلمات بالداخلية حين نقوم بجرد خيباتنا بمقارنة حياتنا بحياة المراهقات الفرنسيات، فإن هذه الكلمة «مصحوبة» هي التي كانت تصنع الفارق بين وضعنا ووضعهن (ما إن نرمي الحايك إلى الشوك).

بيد أنني أبتعد، بينما ها أنا أمشي –أول جرأة لي في سن الخامسة عشرة– هكذا «مصحوبة» بدوري أنا المسلمة بشاب مجهول ولكنه على الأقل من جماعتي، وهذا رغم الراحة المزيفة التي كنت أبديها والتي أصبحت ذات جرأة خطيرة حقا!

وصلنا إلى وسط المدينة، قبالة الجامعة، حيث تتعاقب مقاه ذات شرفات مكشوفة تحت الشمس. جلسنا بإحدى الطاولات الشاغرة. وأنا أطلب قهوة شرعت في الحديث سائلة إياه عن دراسته في مدرسة الجزائر.

لخّص مساره الدراسي وأضاف، عرضا، كلمات حول أسرته: من جهة الأب، قال، يتعلق الأمر بفروع منحدرة من أتراك قدامى قبل الاحتلال الفرنسي.

من خلال كتب تاريخ الجزائر التي كانت في حوزتي، تعرفت على من كان يطلق عليهم لفظ كولغلي، الكثيرين في بعض الموانئ وفي مدينتين أو ثلاث من المدن القديمة : تلمسان في الغرب وغير بعيد عن البليدة حيث كنت طالبة داخلية : المدية.

واصل قائلا إن أباه كان إماما في المسجد الحنفي (نسبة إلى أحد المذاهب الدينية الأربعة، والمعتمد أكثر في تركيا) الوحيد بالمدينة الصغيرة حيث كنت طالبة.

وبينما كان يشرح لي باختصار هذه الخصيصة العائلية، بالإضافة إلى دراسة الشريعة الإسلامية كي يصبح «قاضيا-موثقا»، رددت عليه (كي أعلمه، فيما أظن، بأني على دراية بتاريخ البلاد) :

– قد تكون منحدرا من أسرة تركية، ولكن منذ 1830، تمت عندنا زيجات على امتداد على الأقل... (كنت أحسب بسرعة)... ستة أجيال ! إذن أنت تتوفر على سدس دمك تقريبا ليس أكثر، الصادر عن غزاتنا الأقدمين. والحال إن الكولغليين يحددون بوصفهم بربرا أتراكا !

كنت ألعب لعبة المتعالمين وإن بابتسامة. واصل حديثه –وكأنه شخص يتباهى بكون أسرته، حتى بعد إفلاسها، لا

تزال ذات انتماء أرستقراطي– قائلا إنهم كانوا أتراكا «من جهة الأب».

كنت أتأهب لكي أسأله بتلذذ، من باب الدردشة، ما إذا كان هؤلاء الآباء، ولكل واحد منهم أب، لم يكن لهم أم... «من البلد» !

غير أنني حبست ردي ولذت بالصمت. كما عدلت عن الإشارة إلى واقع بدا لي أكثر وضوحا : حتى قبل 1830، فإن هؤلاء الجنود الأتراك الذين نحنّ إليهم نحن الأهالي، قد أنجبوا أطفالا، رغم كل شيء، مع نساء عربيات أو بربريات أو أندلسيات !

احتفظت إذن بهذا التذكير بتاريخنا المشترك في نفسي. صوت داخلي همس لي ساخرا بأن امتحاني الشفوي في التاريخ في الجزء الأول من البكالوريا لا يتجاوز ستة أشهر : «سيقول إنك تلعبين لعبة النساء العالمات !».

سكتّ إذن لا لإغرائه (على شاكلة : «كوني جميلة واسكتي !)، بل رحت بالأحرى أحلل مصدر هذه الحاجة إلى الرد عليه بتهكم. «يبدو لي فخورا جدا بأصوله التركية أو نصف التركية أو فقط التركية بنسبة السدس !».

احتسيت القهوة التي طلبت في صمت. أما هو الجالس قبالتي، فقد شرب جعة! فجأة لاحظت قدامي كأسه الفارغة: «ولكنني أستفظع رائحة الجعة!»، قلت في نفسي وقد تقهقرت إلى الخلف في الحين.

شرع يشرح لي بأنه، بالنظر إلى أصوله العائلية ومذهبه الحنفي -«الأكثر تسامحا»، قال موضحا، مقارنة بالمذاهب الثلاثة الأخرى- في مقدوره أن يشرب الجعة، وإن كان مسلما.

سرحت متأملة: لماذا يتعين بالضرورة على شابين من هذا البلد، كلاهما مسلم بالولادة، أن يحييا حين يلتقيان، جثث أجدادهما ببعض الابتهاج؟

اغتنمت ذلك لأطلق -«من بعيد، لحسن الحظ!»- نظرة سوداء على جعته الشقراء («تحت بعد عشرة أيام من الاعتقال المشترك في زنزانة واحدة، لن أستطيع تقبيله بسبب هذه الرائحة على شفتيه!»).

إزاء هذا السيل من الملاحظات الزاحف عليّ، رأيتني أقول له وداعا هنا في وسط المدينة وأصعد بسرعة صوب الحافلة. كمثل امرأة عظيمة!

إن ذكرى الحافلة هذه جعلتني أسأله بغتة :

– كم الساعة ؟

كانت لهجتي تنم عن الذعر. ومثل الناس المتأخرين دائما، فإنهم يقلقون بالأحرى حين يكونون متقدمين، وبالطبع، حينما يأخذون كامل وقتهم، يكون من الصعب استدراك الوقت.

– لدينا كل الوقت للصعود ! أجابني بمنتهى الهدوء.

ثم أضاف ببعض «الكياسة» :

– هل تريدين أن أصطحبك في تاكسي ؟

وأخيرا أرسل لي ابتسامة. أجبته :

– لا شكرا !

بعد نهوضنا، تذكرت المتعة التي استشعرتها إلى جانبه
–ذهني الذي كان بالمرصاد أوضح لي :

«هذا ليس مرده إلى الفتى، بل إلى الوضع ليس إلا !»، أضفت :

– لنعد المسافة مشيا حتى وإن توجب الإسراع !

ابتسمت له بصدق هذه المرة لأعرب له كم أشعر بأني شجاعة.

ها نحن نصعد الشارع بخطوة سريعة : غير أنه في منتصف الطريق، بدا لي المنحدر وعرا بعض الشيء. من حين لآخر، أتوقف فجأة كي أتنفس الصعداء، وكأنني وحيدة. كنت أفعل ذلك أيضا لتأمل البحر وأفقه المائع والمنازل البيضاء المائلة، التي كانت على أهبة التدحرج إلى غاية الميناء. فجأة كدت ألوي رجلي إذ لم أر على حافة الرصيف عقبة : التقطني طارق بأن شدني من المرفق.

– شكرا ! قلت له هامسة.

بعد أن استرجعت هدوئي بفضل هذا الاحتكاك، سألته :

– أذكر لي المواد التي تدرسونها في هذه المدرسة.

كان فضولي صادقا وليس من باب الكياسة.

استمعت إليه وهو يفصل برنامجه : كان في سنته ما قبل الأخيرة. بعد فروع الشريعة الإسلامية –الزواج، الطلاق، الميراث إلخ– بالكاد كنت أصغي إليه، مندهشة لكون هذه المعرفة الواجب حفظها ملقنة بالعربية الفصحى. ثم انتقل إلى الأدب العربي وسمعته فجأة يذكر مادة...

– حقا ؟ قلت مندهشة. الشعر الجاهلي، يدرّس لكم طوال السنة وفي درس خاصّ ؟

– بالطبع، أجاب، وكذلك الشأن بالنسبة إلى كل سنة من المسار الدراسي !

– كيف تحفظونه... أنتم ؟ قلت مقاطعة إياه بشيء من التأثر.

كنت قد توقفت على حافة الطريق وأردت أن أعرف في الحين : هذا الفتى يمتلك كنزا طالما غبطت غيري عليه، وقد ظل مستغلقا عليّ باستثناء ما قرأت منه عن طريق الترجمات المسطحة والمتعالمة، ذلك أن اللغة الفرنسية لا يمكنها أن تقوم بالإبانة عن الجناس والإيحاءات والمعاني المختلفة للكلمة الأساس ولعبة القوافي العربية الداخلية... أجل الفرنسية تصبح لغة ميتة حين تعجز عن ترجمة «المعنى» وليس اللب ولا رنين القافية ! فالمعنى يقدم بشكل

تافه وليس برفقة «النشيد» الملازم له : لهذا حولت الترجمة الفرنسية المعلقات إلى بشرة يابسة مع الأسف : كم عانيت من هذا الأمر، ما جعلني أحس باليتم !

انبريت، تحت تأثير اندفاع مفاجئ، أستحضر بقوة خيبتي، وكأنه رغم ست سنوات بالإعدادية وهذه السنة الأخيرة التي شرعت فيها، و«رغم رضا والدي»، أضفت بحماسة (صوت ما همس لي : «وما محل إعراب أبيك هاهنا ؟») :

– أظن أنني ضللت مسعاي، قلت متنهدة.

– ضللت مسعاك ؟ قال بلطف.

توقفنا في الطريق عند منعطف : اضطر شاب على متن دراجة للانحراف في آخر لحظة وهو يكيل لنا السب البذيء باللغة العربية.

– لنصعد إلى الرصيف ولنمش بهدوء ! نصح طارق.

أدركت آنذاك أن اسم هذا الشاب يعني الطريق بالعربية. أطعته بينما راح يقول لي بطيبة أثيرة :

– لنمش ! لا تقلقي ! لا يزال أمامنا متسع من الوقت !

حينئذ صرت أقل تمنعا، وعلى كل حال لم أعد في حالة تربص، وتسجيل الملاحظات حوله. نسيت كل شيء بعد ذلك باستثناء طلب أخذ يؤرقني منذ بعض الدقائق.

– من فضلك، قلت، بما أن تدريس الشعر العربي يتم أولا عن طريق الحفظ ويبرز الإيقاع والقوافي...

كنا نمشي وكان يبدو وكأنه يبحث عن مقتطف. تجرأت وقلت :

– أرجوك، اقرأ لي بالعربية بيتا أو بيتين لأحد هؤلاء الشعراء الصعاليك من العهد الجاهلي... مثلا لأعظمهم : امرؤ القيس ! سأستمع إليك ثم تعطيني المعنى وليس بالضرورة كلمة بكلمة !

خفضت رأسي، خجلة، كنت أخشى أن أكون أزعجته بطلبي هذا : بالطبع، يمكنه أن يختار شاعرا آخر يحفظ شعره عن ظهر قلب. ثمة خشية مفاجئة استولت عليّ : ألن يذهب به الظن إلى الاعتقاد بأني «أمتحنه» ؟ همست نادمة على طلبي :

– أو حتى إن لم يكن لامرئ القيس.

قاطعني، وفجأة أخذ ذراعي فوق المرفق : أبقيت رأسي منخفضا، نادمة على طلبي الذي انبثق سريعا... ولكنه كان يبتسم لي :

– لا تعتذري لأنك على حق : امرؤ القيس هو الأكبر. أضاف : كان يلقب «الملك الضليل !»

شعرت بالارتياح ثم أبديت الاهتمام الجمّ.

سأقرأ عليك بيتين فقط، ولكن كل بيت من قصيدة جاهلية يتكون من شطرين لهما نفس الطول، كما أن لكل بيت قافية داخلية بينهما...

نظر إلى ساعته :

– اطمئني، لن أجعلك تتأخرين... هيا بنا ! ولئن كنت أختار بيتين من هذه القصيدة فلأنها تنطوي على قصة حقيقية غير منفصلة عن هذا الزوج !

(تردد.) يجب أن أمدك ببعض التفاصيل عن هذه القصة...

ولكنه توقف من جديد وابتسم.

– لنبدأ إذن من هنا، ثم سأقرأ البيتين بالعربية ثم سأعرض عليك ترجمتهما...

كان مسعاه شبيها بممثل يجتهد في ترتيب برنامجه والإعلان عنه.

«بيتان فقط !» قلت في نفسي وقد انتابني الشك : قد يكون غير واثق من ذاكرته ؟

ولكن ها هو يستأنف المشي بخطى سريعة، شادا على مرفقي دائما. ولما تعذر عليّ تخليص ذراعي توجب عليّ التقدم بنفس الإيقاع الذي كان يسير به.

أصابني تأثر ما، لأنه نطق بصوت خافت، كما لو أنه يدلي باعتراف، باسمي، مضيفا :

– ها هي الحكاية أولا، ولكن لنسرع بسبب حافلتك !

اضطررت إلى الإصغاء إليه وذراعي مسجون طوال سرده الحكاية. وكان ذلك بالفرنسية وقد استسلمت للّعبة، علما بأني منذ صغري كنت لا أطيق أن يلمسني أحد، حتى الذراع (لحسن الحظ، كان ذلك في الخريف وكانت أكمام سترتي طويلة).

بعد الشروع في الحكاية، بينما كنا نواصل صعودنا الشارع بخطى سريعة، لم يكف عن السرد بصوت خافت أحيانا، وأحيانا أخرى بصوت عميق، وكهفي تقريبا.

كنت أنتظر، وذراعي حبيس قبضته القوية، فضلا عن صعوبة مواكبة إيقاعه (محنة مزدوجة !) اللحظة التي سيلقي فيها الأبيات الجليلة لأمير الشعراء المصوغة بلغة ترتقي إلى القرن الخامس التي كنت قد لن أفهمها على الأرجح، قلت في نفسي بعد «الحكاية» المسرودة بالفرنسية، من باب المقدمة، رحت أنتظر صوت هذا الشاب الذي كان يطيل في المقدمات بفرنسية متحمسة فجأة ينطق بالرنين الآخر، أي اللغة العريقة ودرجة سرعتها النحاسية ومعناها الخفي.

حينئذ، رحت أقدر كيف انتقلت هذه المعلقات العربية عبر خمسة عشر قرنا —نقوشا صوتية، أهراما موسيقية، ارتجالات قيس وأربعة من نظرائه، وكلهم بدو ملهمون

في صحراء غنية بهذه اللغة التي أتطلع إليها... واستمعت بدوري إلى هذه القصة التي كانت بمثابة مقدمة لطارق كما لجميع أولئك الذين يقرأون المعلقات –هذه الأبيات المهتزة التي يحملها نفس جم، والتي تخيلتها شبيهة بثعابين لامعة تحت شمس الصحراء، لا تخشى الرمال المتحركة ولا جفاف الزوابع.

كنت أرى هذه الصور المبثوثة –إلى حد الإعياء– من قبل ريح الماضي بينما كنا نتقدم، وذراعي لا يزال حبيس قبضة الفتى (إذن لم أكن مرتاحة)، وهو لا يزال يروي الحكاية–الذريعة قبل إلقاء البيتين العريقين :

«قليلا، قلت في نفسي، كما ننزع حجاب بدوية شابة ذات جمال لا يتأمله بإعجاب سوى شخص واحد !».

– لن أبدأ بالشاعر الكبير، قال، بل بما ترويه السيرة. أذكرك بأن قيسا توفي خمسين سنة قبل نزول القرآن الكريم.

– أنا في الاستماع، همست، وذراعي دائما حبيس قبضته.

اضطررت مرة أخرى إلى ضبط خطاي على إيقاع خطاه بينما كنا نصعد الشارع.

حسب حديث رواه ابن الكلبي في زمن الرسول –قال– أرسل وفد من اليمنيين إلى الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) غير أنه وهو يعبر الصحراء تاه في الطريق. زادهم من الماء نفد ! سار أعضاء القافلة مدة طويلة إلى أن أصابهم الإعياء، ولكنهم واصلوا السير رغم كل شيء عطشى ويائسين جدا !

برز فارس مجهول على هضبة متجها صوبهم وألقى البيتين التاليين...

إثر ذلك، توقف طارق متكئا على جدار منزل قديم وانتقل فجأة إلى اللغة الأصلية –«الرائعة» كما أسميها :

– «قعدت له وصحبتي بين ضارج وبين العذيب بُعد ما متأمل على قطن بالشيم أيمن صوبه ويسره على السمار فيذبل». توقف الفارس الغريب عن الإلقاء ثم سأل اليمنيين : من هو قائل هذين البيتين ؟

عاد طارق ثانية إلى الفرنسية ليروي بقية المشهد :

– «إنه امرؤ القيس»، قال العديد منهم. حينئذ قال لهم الفارس قبل أن يختفي : «تالله لم يكذب : إن منبع دارج عند أرجلكم !».

توقف طارق مدة نصف دقيقة قبل أن يواصل :

تستمر الحكاية : أخذ اليمنيون يترنحون لأنهم استنفدوا قواهم، تقدموا قليلا : فجأة من تحت أشجار باسقة، أخذ نبع بارد ووفير يسيل، يطابق تماما ما وصفه «أمير الشعراء !».

وصلنا إلى المرتفع الذي التقينا فيه : كانت الحافلة أمامنا تتأهب للإقلاع.

لوحت بذراعي كي ينتظرني. كان البيتان لا يزالان يرنان في أذني ولحنهما الأصلي الذي وصل عبر صوت الشاب.

– أرجوك، قلت، أرسل لي في رسالتك المقبلة النص العربي وكذلك ترجمة هذين البيتين !

ولما أخذ يدي ليقول لي إلى اللقاء، ابتسمت له بخجل مفاجئ وأنا ألحّ :

– أرسل لي النص العربي ولكن مشكّلا من فضلك !

أجل أنا ضعيفة في اللغة العربية الفصحى ! لم أستطع أبدا أن أتعلم لغة الأم كما تمنيت !

جريت الأمتار القليلة المتبقية كي أصعد إلى الحافلة. التفت الشاب ثم واصل سيره في الاتجاه المعاكس.

حاولت طيلة مسافة العودة أن أنام، ولكن بقيت أصغي ثانية ودون توقف إلى صوت طارق وهو يلقي أبيات الملك الضليل.

4.
رسائل الحبّ المزعومة

الرسالة الأولى التي بعثها لي طارق وصلتني إلى الإعدادية وعلى ظهرها اسم بياتريس، الصديقة المزعومة التي كان عليها أن تراسلني من العاصمة. اكتفى الشاب باختيار أبيات للشاعرة المشهورة الخنساء التي بكت موت أخيها العزيز صخر. دوّن النصين : النص الأصلي والترجمة الفرنسية، بأن وضع أحدهما قبالة الآخر : أخذت أقرأ الأبيات العربية بقلب يخفق خفقانا.

فكرت في أن أنزوي في خلوة ما كي أسمع بشكل جيد إلقاء النص الأصلي بيتا تلو الآخر. قررت أن أحفظ عن ظهر قلب هذا الشعر الرثائي. اطلعت كذلك على ترجمته الفرنسية والهوامش التي أضيفت فيما بعد. على إثر ذلك، تسللت إلى نفسي خيبة خفيفة.

كنت قد حدثته عن المعلقات الجاهلية الكبرى التي كنت أروم النفاذ إلى نفسها «الملحمي». كان يظن بأنه سيرضيني باختياره هذه الشاعرة المشهورة جدا في التراث العربي، والتي لم تكن في المحصلة سوى نائحة لم تصبر على وفاة أخيها، اللهمّ إلا إذا كانت، من خلال هذا المأتم، تخفي هوية عشيقها بمناداته «أخي».

هذه المعلقات المشهورة تتجلى في غنائية أتصورها صافية أو شهوانية، مع رومانسية تنبثق فيّ رغما عني، تتحدث عن الحب، الحب المطلق: هذا الإلهام الذي ازدهر فيما بعد في الأندلس قد أثّر في شعر الشعراء الجوالين و«غزل» العصر الوسيط الغربي.

لقد عرضت عليه في رسالتي هذه الحجج بشكل متصلب يكون قد ألفاها متعالمة. ولكن ماذا، كنت أطمح للتعرف على المدونة الشعرية العربية، وأرغب كذلك في حفظها في شكلها الأصلي مع الترجمة الفرنسية قبالتها!

المعلقات ولا شيء آخر!

بعد أن أعربت عن طلبين، ترددت في شأن التحية الختامية: «بصدق»؟ لا، إنها صيغة لا طابع لها!

«وديا» ؟ لا، هذا سابق لأوانه. حاولت ثلاث أو أربع صيغ مختلفة، وكأنني بهذه الكلمة الختامية وحدها يمكنني أن أبلّغه شيئا خاصا بي.

«خاصا بي ؟» لا، لا يتعلق الأمر قط بتمهيد لعقد علاقة ما، كلا !

لم يبق لي من هذا اللقاء سوى حماسي الشديد حين ألقى طارق أبيات امرئ القيس. فالقصيدة قد انبسطت بوثبة هي من القوة بحيث يمكنني أن أخفق ثانية لسماعها وكأن –ترى هل الفخ بدأ يفعل فعلته في هذه اللحظة ؟ – صوت امرئ القيس قد حمل صوت وإلهام الفتى خلال هذا الهروب إلى العاصمة.

رسالته الثانية التي وصلتني كرد كانت أقصر : قرأت القصيدة بسرعة. أضاف سطرا أو سطرين من الاعتذارات، واعدا إياي برسالة قريبة حيث سيختار بعناية معلقة أجمل من هذه.

قرأت الأبيات بالفرنسية أولا ثم رحت أصغي لنفسي ببطء في الخلوة نفسها، وأنا أقرأ بصوت عال أبيات الشاعر العربي –هذا الأخير وكأنه يوقّع نصه في رسالة طارق الذي نسي أن يحييني في نهاية رسالته.

لكن ما كان يهمني أكثر هو ما دونه من أجلي. هذه المرة، بدأ باسم الشاعر نفسه : النابغة الذبياني، أحد مؤلفي المعلقات العشر –أو السبع– المشهورين. قرأت بسرعة وكأن الشاعر المبعث هو الذي راسلني بنفسه ويخاطبني مباشرة مخترقا القرون :

«فما الفُراتُ إذا هب الرياحُ لَهُ
تَرمي أواذِيُّه العِبْرَينِ بالزَّبَدِ
يَمُدّهُ كلُّ وادٍ مُتْرعٍ لَجِبٍ
فيه رِكامٌ من اليَنبوتِ والخَضَدِ
يَظَلُّ من خَوفه المَلاَّحُ مُعتَصِمًا
بالخَيْزرانَة بعدَ الأينِ والنَّجَدِ
يومًا بأجْوَدَ منهُ سَيْبَ نافلَةٍ
ولا يَحُولُ عَطاءُ اليومِ دونَ غَدِ»

تلت ذلك بعض التوضيحات : لقد أورد طارق تواريخ أول ترجمة لاتينية، فالإنجليزية فالألمانية والفرنسية.

أعدت بصوت منخفض قراءة هذا المقتطف الذي تركني على جوعي بعض الشيء... إذ لم يردف ذلك بأي تعليق.

عندما قرأت النص في اليوم الموالي، قلت في نفسي حائرة إنه ينطوي على معنى مزدوج أو، لم لا، بأن طارق ملّ لعبة أستاذ الشعر العربي !

قررت ألا أرد حتى من أجل الشكر : فلا داعي للإسراع !

غير أني قرأت بصوت منخفض ثم بصوت عال البيتين الأخيرين.

«ولا يَحُولُ عَطاءُ اليومِ دونَ غَدٍ»

كان رنين الأبيات مضبوطا حتى في الفرنسية : قلت في نفسي بالإمكان أن نرتجل على إيقاعه خطوات راقصة... كان قلبي مزهوا. ولكثرة تكراري هذه الأبيات كلازمة بالمرقد (حقا، ألم تعد هذه المراسلة لعبة– لعبة عكرة قليلا، ربما ؟)، أخذت أدخل رويدا رويدا إلى غرفة الأصداء التي كان هذا الشعر الجاهلي يمثلها بالنسبة إليّ.

إثر هذه الخاطرة، نمت ممدودة وهادئة.

جاءت عطلة الشتاء ومن ثم عودتي إلى أسرتي بالقرية. وكما جرت العادة، ذهبنا جميعا لنقضي بعض الأيام لدى جدتنا من الأم.

كنت أميل إلى الانعزال في شرفة الطابق الأول، ونظرتي تحلق على شرفات المنازل المجاورة...

كنت أرى المنارة العتيقة رغم بعدها في مقدمة الميناء القديم... كنت أتبادل بعض الكلمات، قبل غروب الشمس، مع مراهقات الجيران اللواتي يعشن هنا طوال السنة : غير حزينات أو كئيبات، كل واحدة تعد جهازها في انتظار العريس. في المحصلة، كن ينتظرن حياة أخرى : فهن مسجونات إلى غاية زفافهن حيث قد يحتفى بهن في البداية على الأقل...

كانت الجدة المسنة الجالسة طوال النهار في غرفتها تتأمل والسبحة بيدها. كانت أمي تحدثها، مقرفصة أحيانا بالقرب من السيدة العجوز، وقد أضحت من جديد بنتها المنتبهة المجلة... أما الرجال فكانوا معا في الخارج. كان الوقت يبدو متجمدا !

في صلب هذا الديكور التقليدي الثابت، أحسست بأن بداية مراسلتي مع طارق خرق غير معقول تقريبا. احتفظت بالنص العربي لآخر القصائد التي وصلتني : تميمة، قلت في نفسي، مخافة أن أضيعه. لم أضيعه. كنت أستمع إلى الإذاعة العربية في الصالون السوري الذي يعود سحره بالنسبة إليّ إلى ذكرى أولى زوجات الخال، التي توفيت مبكرا، والتي أهدى لها أبوها كل هذا الأثاث النادر خلال عرسها.

يقال إنها رحلت وهي في عنفوان الشباب ! كانت الخزانة العالية بأبوابها الصدفية، والأريكتان ذواتا المسند الأنيق، بطراز يميل إلى البيزنطي، تبدو لي كأنها كنز ثمين، جيء به من المشرق إلى غاية هنا، وقد ترثه بنت خالي، ابنة الزوجة الراحلة...

وأنا وحدي في ظلّ هذا الصالون ذي الديكور الغرائبي، رحت أكرر أبيات المعلقات التي أمست في نظري كنوزا، كنوزي أنا. ولكن سأكون يتيمة من بدوري ؟

بعد العودة إلى القرية ثم إلى الداخلية، وجدت فجأة تبريرا لأسراري الصغيرة : من جديد أغوتني صلوات البيتين في نهاية القصيدة الأخيرة : «ولا يَحُولُ عَطاءُ اليومِ دونَ غَدٍ !» قلت بالعربية ثم بالفرنسية في نومي الجزئي. لو كنت موسيقية لوضعت قصيدة غنائية ذات أدوار أو أغنية مأساوية على هذه الأبيات العتيقة !

بمجرد عودتي إلى الداخلية وانغماسي في دروس الفلسفة، أخذت شيئا فشيئا أنسى طارق ورسائله. أذكر أنني خلال الفسحة استسلمت مرة أخرى لشغفي بكرة السلة، حيث شرعت في التمرن مدة ساعة تقريبا على إسكان الكرة في السلة.

عندما سلمتني الحارسة الرسالة الرابعة المنسوبة إلى بياتريس، انتظرت دون قلق أن ألتحق بالمرقد لكي أفتحها وأقرأها... وأعيد قراءتها. بدافع الكسل، اطلعت أولا على طبعتها الفرنسية.

هذه القراءة أثرت فيّ بل أزعجتني. بعد ذلك اطلعت على النص العربي (كما في الماضي، ومصباحي الجيبي تحت الغطاء) عدة مرات بحيث –وهنا تكمن ذكراي الأكثر يقظة– طوال الليل، وقد استيقظت جزئيا لأسلط الضوء على النص العربي سعيا إلى حفظه وكأن ثمة استعجالا –حلمت بأن الطبعتين، سواء في لغتي الأم أو لغة «نرفال»، أجل، هذان الشكلان الصوتيان، بحيث يبدوان ملموسين تحت الغطاء، ومن ثمة إعادة الاستماع إلى الإيقاع العربي والفرنسي، وكأنهما مقرونتان، قد أصبحتا في نومي المثلم بالغياب، كوجهين لنفس الشعر يغطيان جسمي النائم بدل أغطية السرير... التي لم تكن من حرير كما في المنزل، بل من كتان خشن في مرقد هذه الإعدادية...

في الصباح وأنا آخذ حمّاما باردا تقريبا، أعود ببطء إلى حياتي اليومية النشطة : حياة الدروس على إيقاع مضبوط ضبطا صارما رغم الانقطاع الصاخب للفسحة حيث أمسي ثانية غائبة غارقة في الحلم الغريب لليلة السابقة... كما يحصل لي أيضا، في خضمّ جلبة قاعة الأكل التي

تستولي عليّ وأنا مسكونة بكلمات الحبّ العربي، أن أبتعد مرة أخرى –صوب ماذا ؟ لم أكن أدري...

– ألا تأتين معي لنسجل بعض الأهداف ؟ اقترحت عليَّ ذلك إحدى المغرمات بكرة السلة.

كان رأسي يعجّ بالأنغام العربية والفرنسية المتقاطعة أو المتصادمة كما تفعل كرات البيار تحت الأسقف العليا لحانات قرى الساحل التي لم أَلِجْها قط، والتي تُبهرني حين أتأمّلها عبر نوافذ الحافلة التي كانت فيما مضى تنقلني إلى والديَّ.

خلال ربيع هذه السنة في الداخلية، كنت أتحجج بمراجعات نهاية الثلاثي كي لا أعود إلى المنزل بشكل منتظم.

بعد أسبوع أو أسبوعين ترددت خلالهما في الرد على رسائل طارق، تلقيت منه قصيدة حبّ حقيقية، ذات جمال مؤثر للغاية، بحيث استشعرت في نفسي انفعالا متواصلا.

إن الذين غدَوْ بلبّك غادروا   وَشلاً بعينيك لا يزال معينا
غيَّضن مِن عبراتهنّ وقُلنَ لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا

كتاب الأغاني

أتذكر أن إحدى الداخليات هي التي سلمتني هذه الرسالة الأخيرة بالعيادة، حيث نقلت مريضة قبل ثلاثة أو

أربعة أيام. حقا كنت مريضة ولكن من «الوحش» –أي من الكآبة.

أمام جدلة –هو اسم صديقة نادر، وأكثر استعمالا في جنوب البلاد–، فتحت الرسالة وقرأتها بسرعة.

– ستشفين الآن ؟ قالت لي جدلة بلطف وكانت شابة ورقيقة جدا معي.

حركت كتفيّ.

– أنت على حق ! أعود إلى القسم ابتداء من غد ! .

عندما كنت أتأهب للنوم قرأت القصيدة من جديد، ثم قررت ألا أستقبل رسائل أخرى تحت اسم بياتريس المزيف، على ظهر الظرف.

بيد أنني شكرت طارق على رسالته، أضفت بأن امتحانات الجزء الثاني من البكالوريا تقترب ومن ثم سأكون منشغلة تماما بعملي.

في اليوم الأخير من السّنة، جرت بالإعدادية مراسم توزيع الجوائز التي لم يحضرها أبي هذه المرة. أما طارق، فعلى العكس، كان هنا. بعد اختتام هذه المراسم بالنسبة لجميع الأقسام، تجرأت على تلقي تحيته أمام الجميع.

فجأة تربعت أمامنا منيرة التي لم أرها إلا قليلا هذه السنة :

– الاثنان معا، قالت مندهشة، لا تتحركا ! ستنطلق ومّاضة آلتي !

بعد ذلك بكثير، احتفظت بهذه الصورة –نحن واقفان جنبا إلى جنب ننتظر، فيما أظن، بريق الومّاضة كي تأخذ الصورة.

الآن أسأل انعكاسي : «هذه الفتاة، تحتفي بعيد ميلادها حيث بلغت سبع عشرة سنة ! إنه لمن قبيل المعجزة بعد هذه السنوات من المحن والبلدان المقطوعة والمنازل المغيرة والأوراق الشخصية الضائعة، أن تنجو هذه الصورة !».

«حقا، قلت في نفسي أيضا، يمكنني أن أتذكر هذا الفستان من الساتان البنّي المخطط المقولب ! لكن ماذا عن تعابير وجهي ؟»

حلمت حول انعكاسي هذا بما يمكن أن يحييه، وإن في ظرف بريق أو طرفة عين : نعم بحثت عبثا عما جعل نظرتي غائبة وابتسامتي ساهية، حتى في ظرف ثانية في ذلكم اليوم.

كتبت بعد ذلك بكثير قائلة إنه، بمجرد انقضاء التذكر، أنا متأكدة بأن صورة هذا الزوج سأمزقها : دونما تأثر أو انفعال !

.5
الأسرة بالجزائر العاصمة

قبل هذه العطلة بقليل، في يوم الأحد بالقرية، بينما كان ينصّ مخططنا العادي بالنسبة إلى الصيف على العودة إلى شرشال، أخبرنا أبي بأنه تمّ تعيينه بالنسبة للدخول المقبل بالعاصمة.

– سيمسح لك هذا –أضاف قائلا وهو ملتفت إليّ– بمواصلة دراستك بالجامعة بصفتك خارجية هذه المرة !

ذكّرته بأنه، حسب نصائح السيدة بلازي، يمكنني بالإضافة إلى تسجيلي بالكلية، أن أتابع دروس «الآداب العليا» في ثانوية الفتيان الكبرى غير البعيدة عن القصبة. أبدى الأب موافقته.

فجأة أدركت مدى تطوره : ها هو يقبل أن أختلف على قسم «مختلط» حيث يتجاور الفتيان والفتيات لتحضير نفس المسابقات !

هي إذن ثورة صغيرة حدثت في صلب أسرتي التي تنتمي إلى البورجوازية التقليدية لشرشال، والتي ظلت من قبل على هامش المجتمع الأوروبي للقرية الاستعمارية خلال أكثر من خمس عشرة سنة ! صحيح أن المعلمين آنذاك كانوا يأتون، بالنسبة لجزء منهم، من فرنسا الأم، ما جعل أمي تربط أواصر الصداقة مع العديد من زوجات زملاء أبي.

إن مصطلح «الثورة الصغيرة» هذا الذي أخذت أطبقه عند وصولنا إلى العاصمة، قبل سبتمبر 1953، مصدره تفصيل بعينه : أمي التي كانت تتأهب للاحتفال بست وثلاثين سنة من عمرها، تحولت في بضعة أشهر إلى غربية ذات أناقة خفية : دائما معتنية بهندامها وشعرها، وبفضل فخرها الخفي وليس الغرور، ظفرت باستقلاليتها بوصفها حضرية تمر دون أن يتفطن لها بمشيتها الأوروبية المفاجئة في حينا حيث يغدو ويروح الشعب البسيط حول سوق كبيرة. وهكذا تم نهائيا طيّ الحايك الجميل الحريري الذي

كان يخفيها في السابق بالقرية عن أنظار الجميع، والذي كان يلازمها حتى في السيارة التي كانت تقلنا خلال العطلة بشرشال.

كان هذا التغير في حياة أمي اليومية واضحا وبيّنا بالنسبة إلينا؛ زوجها وأولادها، بحيث لم نر داعيا للحديث عنه. أما أمي فقد عاشت أيامها، على الأقل في الأسابيع الأولى أو الأشهر الأولى، كولادة جديدة أو بالأحرى بفارق عشر سنوات –كان ذلك بالنسبة إليها كما لو أنها عادت فجأة إلى مراهقة خجولة وشباب فضولي ومبهور، وهو ما لم تكن ترجوه أبدا خلال خطوبتها مع أبي وعمرها ست عشرة سنة، فزواجها وعمرها ثماني عشرة سنة.

اضطلعت بمهام ربة البيت بإتقان بفضل حرية التحرك غير المنتظرة التي تعودت عليها شيئا فشيئا...

يمكنني أن أتخيل حواراتها مع أبي بعد نومنا : في البدء، كان عليها أن تنتشي بأتفه الأمور المستجدة في حياتها : كونها تتسوق بمفردها في السوق. وهكذا صارت حريتها في كل صباح مضيئة !

تستيقظ الأولى لتعدّ للجميع فطور الصباح. أختي الصغيرة التي كانت تختلف على المدرسة الابتدائية كان

في مقدورها أن تراها تجتاز البوابة الكبرى التي كانت شرفتنا تطل عليها. أُحيانا كانت ترافقها «يدها في يدها» كي تطمئن أن ابنتها «الأخيرة» لن تدفع بقوة وسط الجلبة التي يحدثها الأطفال عند دخولهم إلى الفناء... كانت هذه المدللة ذات بنية ضعيفة هشة : وهكذا اضطلعت أمي بواجب حمايتها بدل الأب الذي كانت مدرسته تقع في حيّ بعيد.

كنت أذهب الأولى لأن مسافتي على الترامواي الذي يقطع وسط المدينة إلى غاية مدخل القصبة، قد تستغرق أحيانا ساعة.

حينئذ أتخيل أمي في هذه اللحظة عائدة إلى المطبخ حاملة معها ضوضاء السوق والهتافات المرحة للباعة الموجهة للسيدات الأوروبيات اللواتي لا تتجرأ، هي، على مبادرتهن بالحديث.

هكذا إذن كان كل عضو من الأسرة نهب عالمه الجديد على إيقاع متسارع.

وعلى عكس ذلك، كنت في الثانوية الكبرى صموتة غير متفتحة على زملائي : وقد أسهمت في ذلك هذه السلوكيات الغريبة التي لم يحدثني عنها أحد، وهو ما كان يدعى بـ«التزريك» (أعمال يقوم بها الطلبة لإزعاج الغير)

والذي عشته تقريبا كصدمة نفسية، وهذا بسبب كون «طلبة معهد إعداد المعلمين» في القسم الأعلى كانوا يزعمون مسكي من الذراع أو الكتف –هم الفتيان– ! ليضعوني على المصطبة. جميع البنات كن يقبلن هذه المسارّة : أما أنا ودون هزل، وبدافع الجهل حقا، فقد رفضت، معتبرة ذلك طقس إهانة : «لا يعني لا !» وأصررت بافتخار على رفضي !

لو كنت وجدت على الأقل إشارة في «مراسلات ألان فورنيي وجاك ريفيار» لهذا التقليد الذي درجت عليه الأقسام التحضيرية باكتشافي هذا اللفظ، «التزريك»، حتى ولو لم أكن أستطيع الخضوع لذلك من باب المبدأ (كنت أضفت بتحدّ : « كمسلمة، كلاّ») لما قمت أبدا بدور المضطهدة. داخليا، هالني أن أرى زملائي ينساقون طواعية لمثل هذه التصرفات : مزاجهم المرح كان مصدره من جهة اللعبة الضمنية –ولكن أيضا من نوع من الغرور القائم على كونهم قد أصبحوا جزءا من هذه «الأقسام التحضيرية».

لعبة وغرور : هذا ما كان يؤثث هذين اليومين من التنفيس. لقد احترم رفضي العنيد بتهديدي بمقاطعتي.

تصلبت أكثر فأكثر. «الآن جاء دوري كي أقاطعكم !»، قررت في نفسي.

أسهم حوار الطرشان هذا في الانكفاء على نفسي. وجدتني بحاجة إلى بعض الأسابيع من هذا الثلاثي الأول كي أخفف ما أمكن من مظهري الفظ.

وعلى خلاف ذلك، كنت كل صباح أشعر، في الترامواي، بالانبهار الجم ! كنت أجلس في المقطورة الأولى وإن أمكن غير بعيد عن السائق كي أتفرج دون إعياء على منظر المدينة المستيقظة، وأنا معجبة أحيانا بتدفق المشاة الكثيف وأحيانا أخرى بالساحات المجتازة تباعا بشرفات مقاهيها التي لا يرتادها سوى الذكور من العرب والأوروبيين.

وكذلك الشأن في المساء...ما عدا حين كان طارق ينتظرني أمام مدخل الثانوية وكانت في متناولي ساعة للتنزه على الأرصفة برفقته.

أرسم هاهنا الأوقات الأولى من حياتي في الجزائر العاصمة بمعهد تحضير المعلمين، حيث خفّ سوء تفاهمي مع زملائي الذين أصبح العديد منهم أصحابي فعلا، غير أنني أريد أن أقول كم فاتني أن أعي التغير العميق الذي حصل في حياة أمي الشابة.

كانت أمي شابة وجميلة. وقد تحولت إلى امرأة ذات مظهر أوروبي. وبفضل هذا التحول، اكتشفت كل يوم امتيازات صغيرة خجولة وصامتة، ولكنها «ثورية» بالنسبة لها : أبي وحده أمكنه في المساء خلال حوارهما في غرفتهما أن يقدر مدى تفتحها...

كنت أخرج من المنزل باكرا جدا وأعود في المساء متأخرة جدا، بعد تسكعي مع طارق. كنت أجد المتعة في العمل بالمكتبة : إحدى هذه المكتبات التي كانت تقع

غير بعيد عن الثانوية الكبرى في شارع قريب من القصبة، هيئت في قصر تركي قديم. كنت منغمسة فيها، في كنف صمت وبلى الأماكن، أقضي فيها الظهيرة كلها، وحين أخرج منها وأنا مشبعة بالقراءات، يستولي عليّ إغواء التوغل وحيدة في الأزقة القريبة لقلب المدينة العتيقة.

كنت أسير وحدي وأحيانا رفقة طارق، ولكن كنت أمشي كي أرى دون كلل فرجة هذه العاصمة المزدحمة والهادئة أيضا، رغم حركيتها وضجيجها. كنت عبارة عن بصر، كصياد صور يجدد حصاده باستمرار.

6.
في الشارع

أتذكر سنواتي الأولى التي قضيتها في التسكع دون انقطاع في العاصمة، وتلك النشوة التي كانت تستولي عليّ آنذاك: كنت أتقدم خافضة العينين، ويحمر وجهي حين يعتقد بأني أوروبية، ومرد ذلك إلى قلة المراهقات اللواتي كن يمشين لمجرد المشي... لاسيما أنه كان يستحسن عدم التحدث باللغة الأم في الخارج، كما لا ينبغي استعمال هذه اللغة الحميمية مع شخص عربي: فسرعان ما ينبري يفحصك، فإن الاحترام الذي يكنه للأوروبية أيا كان سنها سيتحول إلى عدوانية إزاء فتاة شابة من مجموعته. سيحملق فيك ولسان حاله يقول: «الفاجرة! دون حايك وحتى الشعر غير مخفي!».

عدائيون، هذه حال من هم من صفك! لا مجال إذن للكشف عن نفسك أمامهم: والحال إنك كنت مكشوفة!

ولكن أيضا «مقنعة» نعم، مقنعة باللغة الأجنبية ! بينما في الخارج، تخونك لغتك الأم، وتشي بك، بل يكاد يشار إليك بالبنان !

إن ذويك لو تفطنوا إلى أنك تتحدثين مثلهم بالعربية الدارجة، لرأيتهم مفعمين بالحقد ومستعدين لشتمك جراء شبابك والمتعة البينة التي تظهرينها وأنت تتحركين ملتهمة بعينيك المفتوحتين أدنى فضاء في هذه المدينة المنحنية واللامعة. أنت بصنيعك هذا تظهرين استخفافا غير لائق، وأنت تبدين، إن صح القول، تحلقين في الهواء، تنزلقين عبر الطرقات المنحدرة، تثملين بالأكسجين وأنت تتدحرجين عبر الدرج !

انفعال لا ينضب يستبد بك وأنت تتوغلين في زرقة السماء الشديدة : القدرة على العيش هكذا في الخارج وتجريب جميع الأعمار، وتصورك بنتا هشة ذات يوم ثم فتاة ضاحكة وبعد ذلك عجوزا متسكعة -لأنك قررت منذ خطواتك الأولى، في هذا الخريف المشمس وإن كان باردا : ألاّ تبرحين أبدا مدينتك ! فيما مضى، كانت جنوة وبالرمو أو مرسيليا تجعلك تحلمين، أما الآن فالعيش ثم الموت في هذه المدينة الفاغرة الشبيهة بصرخة ملقاة

صوب السماء، جعلك منذ خريف 1953 تستشعرين متعة أضحت فجأة ملموسة أو نوعا من حلم اليقظة !

بيد أن المارة، أي الفتيان، العرب الذين كان في مقدورك أن تتحدثين معهم بدارجتكم المشتركة، بالكاد نطقت بجملة استفهامية –لتستفسرين عن طريقك بعض هؤلاء الشبان المنبثقين من باب العربات أو يلعبون في الطريق، «باللغة–الأخت» رغم أن لكنة شرشال الخفيفة تجعل لغتك مصطنعة قليلا– وسرعان ما يلقي هؤلاء الشبان نظرات ريبة نحوك، وكأنك، بفعل تطورك خارجا، تصبحين مشبوهة ! خلف ظهرك، يسود الشك في أخلاقك.

ولحسن الحظ أنك استوعبت هذه الحقيقة توا : هؤلاء الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنين وسبعين سنة يحترمونك، وحتى إن ابتسموا فلأنهم يعتقدون أنك أجنبية أو عابرة سبيل أو من الطائفة المقابلة. ولكن أن يعرفوا بأنك من «ذويهم» ومتحررة، فهذا غير معقول في نظرهم : في حين أنت وجه الفجر ولا يدركون ذلك !

في الخارج، ها أنا ألغو بلغتي، لغتي الحقيقية : على إيقاع الصداع أو الاستياء.بما أنني لا أقوى على إظهارها. هذه اللغة–الأم، لم لا تكون لغتي – البشرة على الدوام ؟

ولكن ينبغي عليّ أن أستسلم : أن أحتفظ لنفسي بلهجة أمي الرقيقة أيا كان المكان الذي سأتسكع فيه.

لا بد أن أتعهدها بالدفء، سريا، ولا أعرض هبة الأجداد وأمي الأخت، (يحدث غالبا أن ننادي أمهاتنا «ياختي»). هذه اللغة المسماة اللغة الأم أتمنى مع ذلك إشهارها في الخارج كمصباح ! بينما يجب عليّ أن أضمها كنشيد محظور... لا أقدر إلا على الهمس بها وترتيلها بالسجود أو بدونه وحصرها في فضاءات عائلية أو في الفناءات القديمة...

في الشارع، بينما يمكنني ترك جسدي يتسكع حرا طليقا، يجب عليّ التزام الصمت أو التحدث بالفرنسية أو الإنجليزية وحتى بالصينية إن استطعت، ولكن يجب عليّ أن أظهر هذه اللغة الأولى أمام الملأ، لغة العديد من النساء اللواتي لا يزلن سجينات.

ثمة أمر يستعجلني: أريد أن أخرج «عارية» كما يقولون، وأن أترك جسمي يتقدم في الخارج دونما عقاب، ساقاي منطلقتان وعيناي ملتهمتان. غير أني لا أستطيع أن أتمتع بهذا الفسق إلا إذا أخفيت لغة الرضاعة وألصقتها بصدري وبين نهديّ إن اقتضى الأمر!

بعد أن سيطرت على إحباطي، أود أن أمشي إلى حدّ الثمالة! عندما يعتريني الإعياء، ولأني لا أجرؤ على الجلوس وحدي في شرفة حانة -ربما يزعجني أيضا أن أقارن بالمجموعات الصاخبة من الشباب «الذهبي» الأوربي-، أجلس على مقعد في إحدى الساحات البعيدة التي يختلف عليها البطالون أو شحاذون غلبهم النعاس.

بإمكاني، أنا المتجولة في هذه العاصمة، أن أتذوق هذا البذخ: السير في صمت، مجهولة الهوية، ساعات برمتها!

أخيرا ابتدأت السنة الجامعية. كان عبوري المدينة من الشرق إلى الغرب، في الصباح الباكر، يتمّ على متن الترامواي. وها هي الحياة تبتسم لي.

أسبوعان من الاستعداد كانا كافيين كي أشعر بأني مقيمة تماما، في انتظار الدروس بالثانوية الكبرى -المنتصبة بين هضاب القصبة والمرفأ في الأسفل، مرفأ القراصنة القدامى- لئن كنت أذكر طيفا أدبيا ما فإنه ليس بطيف «ألبير كامو»، الذي كان حيا في راهنية باريس، بل طيف سرفانتس الذي كان فيما مضى عبدا في «الحمامات»، أي سجون هذه المدينة، قبل ثلاثة قرون ونصف القرن.

أنت السائرة في هذه الأيام الأولى من خريف 1953 حرة عبر هذه المدينة الصاخبة والهادرة، ولكن محجبة

بالخارج بلغة «الآخرين» تتقدمين –اللغة التي تكتبين، كدت أقول : اللغة التي تحضنين !

لَم أتذكر هذه الهشاشة، وهذا الصداع في مدينة مثل الجزائر بآفاقها التي تبعث على الدوار، ولكنها كانت في هذه الفترة هادئة ؟

بشكل من الأشكال، كلما تجولت أكثر في هذا الموقع، اضطررت إلى الظهور في هيئة شخص آخر، بما أنك دون حايك و«عارية» –هذه الكلمة الفجة الملقنة بالعربية– أي غير ملفوفة في أغطية من صوف أو الحرير الناصع، كلما ظل صمتك مسكونا بلغة مخفية : لغة الأجداد وكذلك لغة من كانوا سدنتها.

ولكنك، في صلب هذا السيل من الذكور بالخارج، كنت في سكينة، متماهية مقترنة مع بنات الطائفة الاستعمارية. علما أن هذا الأمر كان يزعجك أحيانا وكأنك كنت تبحثين حقا عن هذا التنكر الذي يضمن حرية حركاتك.

في المحصلة، كنت تتمتعين بذلك عن طريق المصادفة. لذا، ظللت في أكثر الأحيان بالمرصاد !

في الأيام الأولى، عندما كنت أتجرأ على السؤال عن طريقي بالعربية الدارجة كي أتلقى جوابا في اللغة نفسها، كانت الفوارق تدلني بدوري على أصل من يجيبني، بناء على استعماله إما لهجة بجاية أو جيجل إلخ... هذه الإشارات الصغيرة غير المدركة بين أناس من أصل واحد، كان بإمكانها أن تكون تواطؤا مشوبا بالأخوة. أجل، كانت هذه الرغبة تنتابني في شكل هبّات متتالية : أنا السائرة غير المتعبة، كنت أحس في الآن نفسه بأني باحثة ومتسولة –عن رغبة التضامن !

كنت أود، أنا المرتدية تنورة قصيرة، أن أعنف جميع ذكور عشيرتي :

– أنا من عندكم ! أنا مثلكم !

وبالطبع كان من شأنهم أن يسخروا مني أو يشتموني !

والحال إن عطش «اعترافهم» هو الذي كان يؤرقني !

أتذكر هذا الوهم اللصيق بسني آنذاك، الذي مرده إلى سذاجة المراهقة التي كنتها أمام أولئك الذين كان في مقدوري أن أدعوهم «إخواني» لو قبلوا تحيتي في حريتي الجديدة !

بيد أن كلمة «إخواني» هذه لم تكتس معناها إلا بعد سنوات، فقط حين اكتوى هذا البلد نفسه !

.7

جولات بالميناء

قبل التمزق... أي تمزق ؟ تمزق السماء أم الأرض ؟ بالأحرى تمزق الضوء الذي كنت أسير فيه بالخارج، وبالأحرى تمزق السماء التي كنت، في هذه الفترة، أعتقد بأنه يمكنني أن أرتمي فيها ذات يوم بدفع من السعادة أو اليأس، لا يهمّ –وكأن في نفس كل واحد منا، في مساره، سيحدث التسارع.

لا، بدل أن أذوب في عين المكان، أحرى بي، وعيون المتلصصين والبطالين تراقبني، أن أنطلق وأجري وأركض إلى حدّ الاختناق !

بمجرد مغادرتي الثانوية، أواجه بمفردي أو إلى جانب طارق، طنين هذه المدينة المتواصل، على امتداد الأقواس التي كانت تجسد مسبقا قلب المدينة العريق هناك، حيث كنت أتمنى أن أذهب مصحوبة بخطيبي أو لا، وأن أنغمس

في شبكة الطرقات الضيقة تحت أقواس ترتقي إلى قرن آخر ! ولكن في كل مكان : عيون وعيون رجال جالسين كالكهنوت يخيّل إليك أنهم هنا منذ عهود خلت –عهد القراصنة والغزوات والعنف. اليوم، يبدو أن هؤلاء الشهود المبعوثين، موجودون هنا للازدراء ليس إلا.

هكذا، ظللنا أنا والخطيب، كأننا على هامش مملكة ضائعة.

أحب التسكع وحيدة، وأحيانا مع مغبة أن أعتبر سائحة تائهة، بما أنني لن أمسك لساني أمامهم –«ولم هذا يا آنسة ؟ فقط من باب العفة أو احتشام متطرف ؟».

في الواقع، بمجرد اكتشافهم هويتي، تحدوهم الرغبة في إرسال بصقة تجاهي.

حصل غير مرة أن تهت وحدي عند تخوم القصبة، مع إحساس بالندم حيث أنني فتاة شابة للأسف، ولست ولدا، لعجزي عن التوغل في العديد من الشوارع اللامعة بنحاسها أو المظلمة بصمت يمتد هناك في الأزقة ذات أعمدة من مرمر ملمع.

في كثير من الأحيان، حين ينتهي درس قبل الوقت المحدد، أو حين يخبرني الخطيب بأنه لن يأتي، كنت أتوق إلى التواجد ها هنا، وعيناي تلتهمان كل شيء. ولما كنت لا أتردد في المغامرة في هذا العالم -«عالمي مع ذلك !» همست- أتوقف أمام باب منخفضة كي أرفع مطرقتها وأردد صداها. كان المنزل يبدو محصنا. ثم بمجرد أن ينفتح الباب قليلا، أخاطب المضيفة بالعربية وأطلب منها أن تسمح لي بتأمل الفناء القديم والفسيفساء ذات الألوان الذابلة. تدخلني بخمول كي أتأمل بإعجاب الحوض وماءه المنبجس.

أحيانا، على العكس، توصد الباب في وجهي لأنها تشك في نواياي، رغم أو بسبب اسمي العربي الذي بدا لها فجأة بأنه اسم وسيطة أو دساسة !

كان أحرى بي في هذه الحال أن أقدم نفسي بوصفي غربية وأن أخاطبها بالفرنسية : وحتى إن هي لم تفهم إلا شذرات مما قلت، فإن فضول السائحة التي تصنعت كان من شأنه أن يبدو طبيعيا أكثر...

ومع ذلك كان في مقدورها أن تدرك، بفضل لكنة لهجتي، ما هي مدينتي البعيدة ذات ماض أروع من

مدينتها. بعد طردي، أتوجه، تعيسة، إلى الشوارع التي توصف «بالأوروبية» وكأنني أمسيت أجنبية حقيقية في جميع أرجاء هذه العاصمة !

فجأة لامستني ذكرى من ذكريات طفولتي الأولى: عندما كنت صغيرة جدا (في حوالي سن خمس أو ست سنوات، فيما أظن)، أقمت بعض الأيام في الحي المسمى "لمارين" وكان يشبه أطلالا... وكان خال والدتي يقطن هنا. وكان مريضا جدا بحيث -الذكرى تأخذ في الاتضاح- استغلت أمي وبعض القريبات الفرصة كي يأتين إليه. خلال هذه الإقامة القصيرة، أتذكر بأنهن كن يذهبن إلى سوق المطرزين والصائغين. ثم أخذ خالي يتماثل للشفاء. أحتفظ من هذا اليوم المنسي تقريبا بإحساس كئيب بالترك: نهضت في أوج القيلولة وانتظرت أمي التي سخرت مني أمام بنات عمها. حقدت عليها رغم أنها اشترت لي شيئا غرائبيا أضعته فيما بعد...

الآن وأنا طالبة، أتردد في التوغل في هذه القصبة المشابهة ببابل. لقد ظل قلب العاصمة الغريب، الذي سيصبح فيما بعد عشّ مقاومة مأساوية وهائلة، مستغلقا عليّ في هذه السنة الأولى من حياتي الجامعية.

كان خطيبي حين ينتظرني أمام الثانوية الكبرى يقترح عليّ جولة نحو الأرصفة. كنا إذن ندير ظهرينا للمدينة القديمة الصاخبة دون شك. كان يجرني وفق نفس الطقس: عندما نلتقي في نهاية الظهيرة، كان تجوالنا بوصفنا زوجا يمتد ساعة ثم نلتحق بالميناء بعد أن نكون قد انعطفنا بغير هدى.

هناك، وصلنا إلى الطرف الآخر من المدينة، بينما في السماء، كانت الشمس الآفلة ترسل آخر أشعتها. في هذا الاحمرار، كنا نبحث عن مكان منعزل في الظل، فنجلس على كتلة معدنية أو عمود مربع لنتجاذب أطراف الحديث وكأننا في شرفة أحد المقاهي الموجودة في الأعلى خلفنا (وكأن وسط المدينة شرفة تخيم فوق رؤوسنا). كنت أروي له بشيء من الخمول يومي أو أتركه يسرد كلاما ما حول راهنية

أعم. كنت أصغي إليه ساهية وأنا ألاحظ موكب الحمّالين العائدين في هذه الساعة من البواخر ذات السواري المرئية في الأفق، بينما كان يبدو البعض الآخر متجها صوب هذه البواخر : أطياف رجال العناء، أي «رجالنا» نحن، قلت في نفسي –هذه الكلمات صعدت فيّ بالعربية. حينئذ، تعود إلى السطح ذكرى خال أمي، كصورة منبعثة لرجل منهوك، فالنساء يروين بصوت خافت كم كانت حياته فيما مضى صعبة– وهي كلمات تركت في ذاكرتي الصغيرة أثرا غامضا.

وأنا أدنو من الشاب كنت أشعر بما يشبه الحنين لهذا الماضي الغامض في المدينة القديمة –التي زرتها مرة واحدة وأنا صغيرة جدا– كنت صامتة، كم أود أن أقول كم أتمنى العودة إلى هذا الماضي البعيد للمدينة. ولأجل ذلك كان يكفيني النطق باسم هذا الخال الذي اختفى قبل الأوان، هذا الخال الذي كان اسمه من حيث صيغة تصغيره يلامسني : «خالي تادر».

هذا الاسم المستعار «تادر» –الذي كان عليّ أن أنطق به، بعد أن حييته، بحنان وخجل–كان تصغيرا لاسم لم أكن أعرف عنه أي شيء. هذا القريب كان الأخ غير الشقيق لجدتي من أمي، توفي منذ ذلكم الحين : فجأة أخذت

ذكراه تؤرقني في هذه السنة العاصمية على مرّ تسكعاتي بينما نسيته نساء أسرتي تماما.

كنت مع ذلك أظن أن تلك السيدات كلما تعاظم اعتقالهن كانت ذاكرتهن أقدر على المقاومة مثل شجرة الصبار. كنت أقول أيضا بصدد أقارب آخرين عانوا من صروف الدهر، تم نسيانهم نتيجة فقر أو نفي أليم، إن هؤلاء النساء كان من واجبهن أن يظللن وفيات لهؤلاء التعساء –كما هذا الخال وجميع الرجال والنساء الذين لم يعد أحد يذكرهم. «ها هو قد تنكر له الجميع وللأبد !». قلت مستاءة وحزينة، وأنا أتذكر، بجهد كبير، التأوهات المخنوقة التي كانت تصلني من الغرفة المظلمة التي كان فيها خالي تادر طريح الفراش.

وبينما أنا أذرع الأماكن المعزولة لهذه المدينة، استبدت بي ذكرى هذا القريب المتواضع : لا شك أنه انتهى بطالا أو مهملا، جراء حرمانه من نصيبه من الميراث في القبيلة هناك (بعد أن طلقت أمه التي اضطرت أن تربيه بمفردها ؟)، وهذا ما سكتت عنه القريبات الجامدات في فنائهن، معتقدات بأنه «يستحسن» عدم ذكر جبن وقبح الماضي العائلي اللذين لا مفرّ منهما...

توغلت في هذه الذاكرة الرثة بينما كان الحمالون والعمال الآخرون البربر أو العرب يغدون أمامنا بخطاهم المتعبة وبأصواتهم العالية التي كانت تبدو ترافقهم كبقايا فرح متعب. إلى جانبي كان الشاب صامتا بينما كانت السماء تستضيء باحمرار الشمس الأخير. لم يكن طارق يدرك بأني كنت بعيدة أدفن فيّ صورة هذا الخال المنسي، بإحساس تقوى أخير... ضمني بمجرد نزول الظلام الذي كان يخفينا عن أطياف الحمالين الرمادية في طريق العودة.

استسلمت لسجن طارق، وقبلت بالمداعبات الأولى على وجهي أو كتفيّ. فجأة استشعرت البرد، فأردت النهوض، لا أذكر بأن انفعالا ما قد تسرب إليّ، وكأنني لم أكن أرغب حقا سوى في النظر: آخر الأنوار على الميناء، موكب العمال الذي أخذ يتلاشى وفي البعيد غابة سواري

البواخر التي لم أعد أرى سوى كتلتها الحالكة في احمرار الغروب.

استقمت وقد تذكرت بأن الأسرة في انتظاري. كانت الفترة –ابتسم لذلك الآن بحزن– التي كنت، بدافع لامبالاة ساذجة، أقنع فيها نفسي بأن الرغبة لا تولد إلا عند الشبان. وبينما استبدت بي الرغبة الجامحة في أن أرى كل ما هو حولي، قلت في نفسي، – هذه المدينة، البحر، الميناء الذي بدأ يخلو شيئا فشيا– كنت أترك الحلم يتسلل إلى قلبي خيال هذا الرفيق حين يقول لي بلهجة جافة إنه ترك مدرسته وانتظرني أكثر من ساعة، منتصبا عند موقف الترامواي، أمام الثانوية الكبرى –كان يخطئ من حين لآخر في جدول توقيتي.

قال لي إني لا أعبأ عجلته وإفلاته وهذه الجولة الطويلة معا –التي كانت تهبني، فيما يخصني، متعة جمة من حيث إنها تمكنني من اجتياز العديد من الفضاءات التي لا يمكنني أن أعبرها بمفردي– ولامني على ذلك. ثم خلص إلى القول إن هذه اللحظات المناسبة للمداعبات غالية جدا في نظره...

هل أنا متأكدة الآن بأنه نطق بهذه الكلمة «الغالية» ؟ أتذكر أننا كنا نتكلم بالفرنسية : بقي في نفسي نوع من المقاومة أو شكل من أشكال الاحتشام والعفة، فالفرنسية أصبحت بالنسبة إليّ لغة حيادية، بينما مع عاشقي الأول، كان من شأن كلمات الحب باللغة الأم التي كانت لغته أيضا أن تنبثق بشكل أخرق. فاستعمال العربية للتعبير عن الحب قد يبدو لي دون شك –لست أدري لماذا– غير لائق... إن لغة الحب لدى الشبان آنذاك، يكونون –أقول ذلك الآن– قد أتوا بها من الماخور، حيث تعلموها على يد عاهرات أو سيدات مسنّات أحبوهن. فيما يتعلق بي، رفضت أن أتصور أي شيء مما يتصل بحياته، حياة «خطيبي» الذي قبلت به لأول وهلة مدة سنة بسبب رسائل الحب –حب مكتوب بالعربية تحديدا، ولكن لغة الأجداد والشعر احتفظت إن صح القول بنبل بال شدني الحنين إليه، حتى في لحظات الأنس.

بيد أن طارق لم يستعمل أبدا المفردات اللامعة لشعراء الماضي التي كان في مقدوره أن يستظهرها بصوت هامس في أذني : حينئذ كنت سأجثم أكثر في ذراعيه وقد لامستني

أنوار الغروب، حتى وإن كان بالإمكان أن يراقبنا الحمالون هناك على حين غرة... وهذا من شأنه أن يزعجني.

ترى هل بسبب هؤلاء المتلصصين المتأخرين أحجمت عن الارتماء في أحضان الشاب. لقد أحس بذلك. سرعان ما لامني على شيء آخر (بعد ذلك اعتدت على لومه، وقد أخذت أستعذبه بما أن نشوب خصام عرضي دلالة بالنسبة إليّ على حبه –كنت لا أنطق بهذه الكلمة، وكان في استطاعتي أن أعوضها بـ «خيبة الخطيب التملكية»).

هكذا كانت تتحول هذه اللحظات من الحميمية المسروقة إلى بداية خصام يأخذ في الامتداد بيننا...

أتذكر هذه العزلة المشتركة بالميناء قبالة البواخر التي تبحر في الغداة بعيدا. وهذه الدقائق التي كان بالإمكان أن تكون منذورة للرقة الثرثارة أو الصامتة، تؤول إلى خصومات غير مجدية راح الشاب ينغلق فيها.

غادرته، كان الوقت متأخرا والليل قد نزل سريعا. وحين أصل إلى البيت، لن يكون في وسعي إلا أن أتحجج بنسيان نفسي في مكتبة الجامعة الكبرى، الأمر الذي كنت أصدق فيه مرة على ثلاث. نسيت الطالب الذي بدت لي نيته السيئة، خلال خصامنا، دلالة واضحة على حبه. بعد

تمددي على السرير، غفرت له مزاجه العكر وأنا أقول في نفسي إن ذلك أمر عابر وإننا ذات يوم سنتزوج كما في المسلسلات التي لا أقرأها، فأن يكون المرء عاشقا حقيقيا معناه تقاسم نفس الإيقاع وتناغم الأمزجة، بحيث لن يكون من حقي -بفعل معجزة مفاجئة- إلا بلوغ الحب الحقيقي -الخالد، هل يجب عليّ أن أضيفه دون تشدّق...

.8
ظهور منيرة من جديد

ذات مساء، وأنا خارجة من المكتبة الجامعية متأخرة، أجدني وجها لوجه مع منيرة. سألتني بنهم كيف تأقلمت مع حياتي العاصمية.

اعتراني بعض التردد : كنا طالبات بالداخلية بنفس الثانوية. أردت أن أقنع نفسي بأن كل واحدة منا قد غربت عن الأخرى ليس إلا. بعد العطلة الصيفية، مرت ثلاثة أسابيع فقط.

علمت بواسطة زميلة بالداخلية أن منيرة قد سمح لها أبوها بأن تقيم في الحيّ الجامعي للبنات والشروع في دراسة العربية الفصحى. كانت في هذا المجال ذات مستوى أحسن مني.

أضافت هذه الزميلة المسماة جميلة بأن أباها الذي أصبح فجأة «تحرريا» قد سمح لها فضلا عن ذلك، أن تعيش على الطريقة الغربية أي دون الحايك العتيق الذي كان يعيقها في المدينة الصغيرة. إذن كان بإمكانها أن تعنى بدراستها في الجزائر بكل حرية...

– صحيح، أضافت جميلة، أن منيرة قد وعدت بأن تعود كل أسبوع إلى أسرتها... و (أنهت كلامها بسخرية) ترتدي الحايك–الخرقة هناك !

ثم أضافت المخبرة بتهكم وقح تجاه مصيرها الشخصي الذي يبدو أنها كانت تستثنيني منه :

– أنت حباك الله !

– كلا، رددت عليها، إن أبي يثق فيّ، هذا كل ما في الأمر !

– ولكن هذا كثير ! قالت وهي تغادرني.

بعد أيام، ها أنا، ذات مساء، قبالة منيرة، عند الخروج من المكتبة.

كان عليّ أن أترجم نصا للوكرس الذي طلب منا أستاذ اللاتينية أن ندرسه ليوم الغد : لما كنت غير واثقة من ترجمتي، رحت أنتظر دوري عند مدخل المكتبة لأنغمس في نسخة من الآداب الجميلة قصد التحقق ما إذا كانت ترجمتي تحتوي على معنى مخالف (شغفي بلوكرس لم يضعف رغم انقضاء عدة عقود، أنقى من حماسات أخرى كثيرة، كأن الخيال راح يحفزه الشاعر اللاتيني الكبير –مثل سماء تملأه أبراج متلألئة– راح يقودني لحالة من السحر.

في ذلكم المساء، كان فكري متأثرا بسحر لوكرس –الذي حملني نحو عالم آخر–، وأنا نهب هذا التأثير، وإذا بي ألتقي بمنيرة عند الخروج. نزلنا معا الدرج الأكبر

الذي يهيمن على الشارع حيث جلسنا أنا وطارق في مقهى خلال لقائنا الأول منذ سنة.

ودون أن تخفي منيرة فضولها، طلبت مني أين أنا «مع طارق !». كانت تسألني بنزق يحاكي التطفل : كنت أحس أني بعيدة في هذا المساء، جراء مكوثي في عالم لوكرس...

حديثي عن طارق أتولاه بعفوية. «قلت في نفسي، لم نعد في الداخلية لنهمس بأسرارنا، وكان ذلك أمرا خطيرا !». في ذلكم المساء، أخبرت والديّ بأني سأصل متأخرة على العشاء، بسبب هذا البحث في المكتبة.

أمام منيرة، أحس أني شفافة، فلم يجب أن أتحلى بالحيطة ؟

أهنئها على مظهرها الغربي.

– أنت صاحبة السحنة الفاتحة والشعر الكستنائي، لا شك أن الناس يعتبرونك أوروبية ؟

سألتها دون نية مسبقة بل بود أخذ يتنامى من جديد.

وسرعان ما انطلقت تعترف بحزن بـ«مداعبة» السنة الماضية (أعتقد أنها كانت قد أسرت لي بذلك)، وهي

العلاقة التي تجسدت في الثانوية من خلال مراسلة «ودية»، قالت هامسة. ولكن هذا من قبيل الماضي، قالت بحزن، وها هي توقفه !

كانت تتحدث بلهجة كئيبة بينما كنت أعتقد بأني سألفيها نهب تهيّج تحررها العاصمي الحديث.

بصوت مفعم بالفضول، سألتني بدورها :

– أين أنت من قصة حبك ؟

أحسست بالانزعاج جراء هذه اللكنة التي تنمّ عن التواطؤ. وبينما كنا ننزل الدرج الكبير، ألحت على معرفة كيف أفعل للقاء «حبيبي»، إنها الكلمة التي استعملت. وكنت بالضبط على موعد في اليوم الموالي –الذي صادف أنه يوم عيد– في حانة غير بعيدة من هنا في نهاية الصبيحة لأجل احتساء قهوة فحسب.

واصلت منيرة طرح الأسئلة. وكنت أجيبها على مضض : ولما كنت أخفي هذه المواعيد على والديّ، ترددت في البوح بها لأناس آخرين.

وحيال صمتي، ألحت :

– ادعيني إلى هذه الحانة لتناول قهوة معكما ليس إلا !

فاجأني الطلب.

– لم ؟ قلت وأنا أبحث عن سبب هذا التطفل.

فجأة خجلت من ترددااتي. كانت لقاءاتي مع طارق نادرة في هذه الحانة وكنا نتجاذب أطراف الحديث ليس إلا. فلم لا ألقاه بحضور منيرة ؟ ألم تفرض نفسها علينا في اليوم الأخير بالداخلية عندما تقدمت نحونا لتأخذ لنا صورة، بعد حفل توزيع الجوائز ؟

عاودت منيرة التذكير بهذا اليوم الذي هو آخر أثر لسنواتنا المشتركة بالإعدادية. اعتراني الندم أمام منيرة التي بدت لي حزينة جدا، بسبب ردة فعلي في الوقت الذي حذرني حدس ما.

قبلت أن أراها في اليوم الموالي.

وهي تتأهب للمغادرة، طلبت مني أن أحدد لها بالضبط عنوان وساعة الموعد بشيء من التهيّج.

– سننتظرك في حانة «فيكتور هيجو» : في الطابق !

غير أني أضفت بلهجة صارمة، بأننا بعد تناول القهوة سنتركك هناك !

إن كان الطقس جميلا، فسيقترح طارق أن نعود إلى الميناء. قلت :

«إن متعة التجول جنبا إلى جنب في أماكن مأنوسة دون تعجيل العودة هذه المرة : سيكون يوما كاملا للنزهة والحرية لنا نحن الاثنين !».

نسيت منيرة وأنا أصعد إلى غاية منزل الوالدين. بل أظن بأني نسيت حتى طارق والعالم برمته حولي في طريق العودة : في هذا المساء حفظت عن ظهر قلب أبيات لوكرس :

«بما أننا نشعر بأن جسمنا كله هو مركز الحساسية الحيوية. وبما أن الروح منتشرة فيه، فإن قطعته قوة مفاجئة بضربة سريعة في الوسط، فإن الروح نفسها ستقطع وكالجسم ستسقط على جزأين. بيد أن ما ينقسم لا يمكنه أن يدعي الخلود. »

ورحت أكرر الأبيات الأخيرة في النص الأصلي :

« *Ad quod scinditur et partis discedit in ullas,*
scilicet aeternam sibi naturam abnuit esse !».

أنا مغمورة بنص «لوكرس» الذي رحت أوقعه بخطواتي أثناء صعودي الشارع الذي يحمل لقب المؤرخ المفضل لدى أبي : ميشلي.

بعد العشاء، رويت لأمي باختصار لقائي بمنيرة، وقد أضفت قائلة بأني ضربت لها موعدا لليوم الموالي في مقهى، صباحا.

– ولم لا يكون اللقاء هنا في بيتنا ؟

– بدت لي حزينة جدا : إن أرادت أن تسرّ لي بخيبة أو كربة ما، فإنها لن تفعل ذلك أمامك ! عللت، وأنا صادقة جزئيا.

وجدت إذن لأول وهلة وسيلة تمكنني من الغياب طويلا في اليوم الموالي صباحا رفقة طارق. قلت في نفسي : «سندردش نحن الثلاثة، وقد أخبرت منيرة : ستفهم بأننا بحاجة إلى أن نكون وحدنا، بعد برهة من الزمن !».

في ذلكم المساء، في سريري، لئن كنت أبحث عن النوم، فلأن ذهني كان محموما جراء أبيات لوكرس. بعد نزول الليل، نمت على إيقاع الشعر.

نومي خفيف: قطن مندوف تولى ترميمي. سررت لاستيقاظي! سعيدة وحية تحت المنضحة! أمسكت نفسي حتى لا أغني: ذلك أن أمي يمكن أن ترى في ذلك ما يدعو إلى الشك.

عند فطور الصباح، همستْ بلهجة متذمرة بأن خروجي يوم عيد أمر غير لائق. عندما رأيتها تلح على دعوة منيرة إلى البيت، وجدت العرض الحاسم:

– أماه! إن منيرة بعد أن تغادرني يجب عليها أن تستقل القطار كي تقضي هذين اليومين مع والديها!

وهربت خفيفة، أطير قبل الأوان، ظنا أني ماهرة في الدسائس: ودون أن أفكر في ذلك مسبقا، بفضل ذريعة لقائي بمنيرة، يمكنني أن أبقى مدة طويلة رفقة طارق.

أتذكر رقة الشمس في هذا الصباح الخريفي : أفكر في الخطيب، وقد قررت فجأة أن أكون أكثر رقة مما كنت عليه إلى حد الآن.

ذلك أنه بعد ذهاب منيرة، سنعود إلى الميناء قبالة البحر، المتواطئ معنا.

.9
نحن... الثلاثة !

في طريقي إلى غاية الحانة، كان مزاجي رائقا : لأول مرة، أذهب للقاء طارق في انطلاقة من الحرية المذهلة.

«بفضل حجة منيرة، قلت في نفسي، لن تكون أمي مجبرة على انتظاري !».

أصبحت حانة «فيكتور هيجو»، بمقصورتها الصغيرة في الطابق الأول، الخالية في أغلب الأحيان، عشًّا للعاشقين ملائما للصلات الخجولة.

في ذلكم الصباح، على الأقل في البداية، لن نكون المستهلكين الوحيدين، سنكون... ثلاثة !

أمس، ألحت منيرة على الالتحاق بنا. على امتداد مسافتي، في هذا الصباح، همس صوت داخلي صادر عن الصداع أو التبصر، يقول لي :

– منيرة لن تأتي كي تكون معك، بل لتظهر مزاياها بحضور حبيبك !

ثم راح الصوت يواصل بشكل لاذع :

– حضور منيرة غير مناسب ! ستأتي منيرة لتتدلل أمام شاب من مدينتها !

أطرد هذا الصوت : فما يقوله ليس سوى سيناريو سخيف !

«أنا أتعالى على مثل هذه الخزعبلات ! قلت في نفسي. إن أرادت منيرة أن تتدخل بيننا، فلتجرب وسترى !».

أصل إلى الحانة منهوكة دقائق بعد طارق الذي لاحظ مبتسما :

– لم تتأخري هذه المرة !

بمجرد أن طلبنا المشروبات، انبريت أخبره بمجيء منيرة التي وصلت لتوها، مرتدية ألبسة ذات ألوان فاقعة، وجهها مضمخ وأهدابها مسطرة بخط أزرق. ردت باختصار على تحيتي وجلست عنوة قرب طارق الذي وقف من باب الكياسة.

التفتت نحوي وقالت بلهجة المنتصرة تقريبا :

– لست بحاجة إلى تقديمي ! لا بد أن طارق يتذكر اليوم الأخير بالإعدادية : ألست من أخذت لكما صورة معا !

جاء النادل ووضع المشروبات ثم اختفى. انحنت منيرة نحو طارق وانطلقت تلقي خطابا بالعربية. في مرحلة أولى، رحت أصغي إليها وأنا على وقع مفاجأة سارة : لغتها المتميزة تتزين بجمل ألفيتها أنيقة، لغة تكاد تكون أدبية، ذكرتني ببعض القرويات ونساء مسنات ذات لغة جزلة وبالية إلى حدّ ما.

كان رأس منيرة ملتفتا نحو طارق، ومن حين لآخر تنحني نحوي وتبتسم لي ثم تخاطب من جديد طارق بتفاخر، الذي لاحظت أنه لم ينطق إلا بكلمات نادرة.

في المحصلة، لم تتحدث إلا بالعربية، بلكنة مدينتها، موجهة كلامها لطارق وهي تبتسم له دون انقطاع. لاحظت :

«لقد جاءت لتؤدي دورا ! ويبدو أنها تمرنت عليه منذ أمس !».

في البداية استلطفت ذلك. وهي لا تزال تتحدث بالعربية وكأنها تحاور نفسها. قامت بعرض معرفتها بأسرة طارق: أخواله وخالاته الكثيرات -اللواتي تقول إنها تلتقي بهن في الأعراس أو الحمام. إنها تتصرف وكأنها أصبحت ابنة عم أو قريبة بالمصاهرة كان طارق ينتظرها. راقها هذا الدور كثيرا.

«دون حياء، قلت في نفسي، تفصل له تركيبة أقاربه ثم ستفعل الشيء نفسه مع تركيبة أقاربها: لقد اهتدت إلى الموضوع الذي يتركني في الخارج!».

بعد أن استحضرت هذه القبائل أمامنا، أرادت أن تفهمه بأنه كان عليه أن يبعث برسالته الأولى لها.

خلال صنيعها هذا، تتدلل وتريد أن تحسّسه بأنها قد وقعت تحت جماله وسحره. أتأمل مهزلتها. لاحظ طارق بأني مصممة على مواصلة دور المتفرجة! ردّ عليها مرة أو مرتين بكلمات مقتضبة وبنصف ابتسامة. قلت في نفسي:

«هذا اللقاء بيننا نحن الثلاثة سمح لي على الأقل بأن أسمع طارق يتحدث بلغتنا!».

اغتنمت توقفا قصيرا لأتناول الكلمة بدوري، ولكن بلغة فولتير وأنا أقول في قرارة نفسي : «ذات يوم، أقول كلمات رقيقة لهذا الشاب ولكن في حميمية (لا تزال بعيدة) وسيتمّ ذلك بلغة الأم !».

تذكرت الكلمات الصغيرة لطفولتي الأولى والحنان المهموس، الكلمات المنزلقة بين الأسنان وحب أمي التي كانت تداعب فيما مضى بشرتي وخديّ وتجس جسدي الصغير في الحمام حين تجففني أنا العارية الرعديدة بين منشفات خشنة –كل هذا عاد من جديد فجأة وبقوة بحيث رحت أتخيل في طرفة عين كيف سيتم استسلامي لطارق ذات يوم في سرية وانتظار، وكأن الحب الجسدي، خلال عرسنا، لن يكف عن الالتصاق بهذه الخطوات الأولى واحتكاكات أيدينا وشفاهنا وأصواتنا و...

أنا غائبة. نسيتهما هذين الاثنين. اقتربت منه. أراه يبتسم لها، صوتاهما الخافتان يتحاوران بلهجة مدينتهما المشتركة. أنهض. من منحدر الطابق الأول، لوحت للنادل بأن يأتي لاستلام مبلغ المشروبات. أتوجه إلى منيرة بلهجة حيادية :

– وكما قلت لك أمس، إن لنا برنامجا ! نقول لك إلى اللقاء !

بينما التفت طارق ليدفع المبلغ المستحق للنادل، اقتربت وبصوت مستجد همست هذه المرة بالفرنسية قائلة :

– ربما يمكنني...

أجبت برأسي أن لا. أخذت ذراع طارق –على طريقة الزوجة الشرعية، مع الأسف ! في هذه اللحظة، كنت دون شك «سمجة جدا».

تركت طارق يسبقني. وإلى صديقتي المزعومة التي أرادت أن تتدخل وتقحم نفسها بيننا، أرسلت حركة طائشة بيدي :

– وداعا !

ألقيت بصوت قوي هذه الكلمة النذير.

في الخارج، دلفنا أنا وطارق في شارع ضيق يصعد نحو حيّ لا أعرفه.

بعد أن قطعنا بعض الأمتار جنبا إلى جنب دون أن ننبس ببنت شفة، أخذت ذراعه لا لأتكئ عليه، بل للتشديد على قراري المتمثل في وضع حد لوقاحة منيرة.

التزم طارق الصمت خافضا الرأس. لا أرغب قط هنا بالخارج في الحديث عن تلك التي سأدعوها منذ الآن «الصديقة المزيفة».

بعد أن طردتها (هي الكلمة التي تبادرت إلى ذهني آنذاك)، رحت في الشارع، أتنفس بكامل قواي -الضيق الناتج عن كوني عشت ذلك اللقاء «الثلاثي». انتظرت أيضا تعليقا من طارق.

كنت أتأهب لأن أروي له لقاء أمس بالمكتبة مع «الصديقة المزعومة» التي ألحت أيما إلحاح على الالتحاق بنا. يجب عليّ كذلك أن أعتذر على قبولي : فمن حقه أن يؤاخذني على كوني فرضت عليه حضور منيرة في ذلكم الصباح دون إعلامه مسبقا.

ولكن بدلا عن ذلك، وبينما لا زلت متشبثة بذراعه -وهو ما لا أقدم عليه إلا في جولاتنا على الأرصفة بعيدا عن الآخرين-، سمعته يسألني بصوت خافت :

- لماذا طردتها هكذا ؟ هذا لا يليق !

- سأحدثك في هذا الأمر لاحقا، لنمش، قلت...

وهمست لنفسي : «لننسَ !». هذا الصباح الخريفي يبدو جميلا، إننا لم نعد إلى أماكننا المألوفة أين يمكن أن نتمتع بشيء من الوحدة...

في يوم العطلة هذا، كانت تبدو شوارع المدينة وكأنها أفرغت من حشودها المعتادة. واصلت التقدم قبالتي.

أطلقت ذراع رفيقي : ثم شرعنا في صعود الشارع المؤدي إلى الأعالي. يبدو أن طارق قد عدل عن مشروعنا المتمثل في الذهاب إلى أماكننا المألوفة في الميناء.

«قبالة البحر !» تنهد صدى صوت حزين بداخلي.

بينما كنت أجر رجليّ، وقد استولى عليّ تعب مفاجئ أو خيبة (إلى أين ذهب مرح الأمس قبل النوم وخفة قلبي التائق إلى الالتحاق به في الصباح ؟) أحس أن منيرة قد تركت روائح نتنة في الهواء بيننا –أو بداخلي، قلت وقد انتابني نذير غامض ؟

سبقني طارق ببعض الخطوات. ترى هل أنا التي أجر خطواتي جرا بعد أن استولى عليّ التعب ؟ يمشي منخفض الرأس وهو يجتر ماذا ؟ ثم تباطأ كي نكون جنبا إلى جنب («آه لو كان بالإمكان الجلوس في مكان ما واستعادة الأنفاس، قلت في نفسي. إن الأمر يتعلق بقلق لا يريد التلاشي»)، ثم توقف قبالتي وفي صوته عنف صعب عليه حصره، أدهشني. أمرني بصوت خافت جدا (قلت في لمح البرق قبل أن أستمع إليه «لحسن الحظ نحن وحيدان ! ولسنا خطيبين ولا زوجين ولا عاشقين ! وها هي أقبح خصومة زوجية تحدث !»).

– تذهبين، وهذا أمر، قال ذلك بصوت خافت مهتز، تعودين إلى صديقتك وتحضرينها و...

– و... ؟

أظن أني أستفزه. أم أنني أعتبر كلامه مزاحا مشؤوما ؟ السخيف في الأمر أن ذلك جعلني أضحك ضحكة جموحة. في الوقت نفسه، أحدث نفسي وقد استعدت حيويتي بشكل غريب : «لو أصدر الرب وأبي نفسه هذا الأمر فلن أكون بحاجة إلى القول لا : فذلك من شأنه أن يجعل حائطا من البرونز أو القلّز ينتصب : لن أستسلم !».

إثر ذلك، أحسست بالرغبة في الضحك : هل أصبحت مجنونة فجأة ؟ أتكون تلك ضحكة مجنونة متبصرة ؟ لست أدري ما إذا كان قد سمع ضحكتي –ربما هذه الضحكة عبرتني ليس إلا ؟

انقبضت وكلي صلابة في هذا التحدي : إنها قضية شرف ! اكتشفت أنني مهتاجة بعض الشيء لإحساسي بأن رفضي قد جعلني قوية.

بعد ذلك، سأفكر ثانية في ردة الفعل هذه، كان في مقدوري أن أصرخ وقد استبدت بي الرغبة في الرقص : «أقتلوني إذن أيها الطغاة ! أقتلوني ولكن لن تقبضوا عليّ !».

هذه الدقائق القليلة، المترعة بهذا الحماس الشديد، قد قضت على نتانة المشهد الذي كنا فيه ثلاثة : هكذا راح

الرجل، ولم يكن خطيبا بعد، يخرج جبنا حاول فرضه عليّ : ولمن؟ لدساسة جاءت تعرض غنجها وتدللها الرخيصين ! إذن ليلتحق بها وليعتذر لها ويضمها وليجرها أو يجر نفسه...

انتشر هذياني الذي بدا لي منقذا. الشارع الذي سلكناه يفضي إلى ساحة : أمامنا أدراج تنحدر نحو البحر. تأملت الشارع المزدحم وأنا أدير ظهري لطارق. قلت بتأثر : «خلفي، البحر لي وحدي. لننس الرجل الذي يهذي امشي بعيدا أمامك، دائما أمامك... إلى غاية البحر !».

وبينما أتأهب للنزول متمتعة وحدي بحريتي، في هذا الصباح من أكتوبر، أخذني طارق الذي لم أسمعه يدنو، من مرفقي وبصوت خافت قال :

– تعالي. بالقرب منا ردهة. لندخل ونتحدث !

كانت لهجته تنمّ عن التصالح : دخلت نادمة خلفه إلى عمارة بورجوازية ذات باب ترك مفتوحا جزئيا.

.10
في الردهة المظلمة

أَبيتُ بِرَوحاتِ الطَريقِ كَأَنني   أَخو جِنَّةٍ أَوصالُه تَتَقَطَّعُ

مجنون

عشر دقائق قبل «الفصل»... أي فصل ؟

الفصل المجنون وغير المعقول وغير المتوقع، الصادر عن ضربة، لا أعرف كيف، عن أي ليلة أو حريق، إلى حد إبهاري دون أن أتجرد من هذه الكهرباء التي جعلتني أقفز، أهرب أو أطير، لا أعرف إلى أين.

كيف أمكنني بعد ذلك أن أستمر في العيش والإحساس والترقب أو الشغف، بينما ظلت ثاوية في نفسي هذه الجمرة التي تلتهمني بالداخل، لا، بالأحرى هذه الظلمة الدائرة التي ظلت مستمرة خلال عقود من الزمن –أجل

عقود تجمد القلب والذهن خلالها، لا، ظلت الحساسية تجاه الآخرين مفتوحة وهشة ؟

ها أنا أخيرا أصوغ السؤال الوحيد الذي ظننت أني أطفأه فيّ، بينما لا زالت نيرانه تحمر في شكل بريق ليلي : كيف استطعت أن أواصل طريقي الطويلة، اللهم إلا إذا كان نوع من التحجر قد جعلني لا أبالي بالزمن والتآكل والخيبة ؟ كيف واصلت العيش رغم هذه العتمة المنعقدة فيّ، علما بأني لم أؤذ سوى نفسي والجزء الأنثوي من قلبي ؟

لم أعثر على إجابة، في حين أن هذا التذكير المتأخر لا يتبلور في دوائر متعاقبة إلا ليحاول بسط خيط هذا الحرير المدسوس.

عادت إلى ذهني كلمتان إغريقيتان يمكنني تدوينهما ها هنا بكتابتهما الأصلية —في حين أن زخرفة عربية واحدة يمكنها أن تضم أبجديتيّ : إحداهما اكتسبتها منذ الطفولة لأتعلم عن ظهر قلب وأكتب عدة سور من القرآن، والثانية عند المراهقة كي أستشف ظل سقراط في نص أفلاطون : « ***gnôthiseauton*** »... «اعرف نفسك بنفسك» آه نعم، أسجل هذه النصيحة بالحرف العربي ثم أتصورني مقرفصة هادئة في كنف ابن رشد هناك عندنا في الأندلس...

قبل الفصل بالضبط، أي عشر دقائق : بدا لي هذا اليوم أمام خليج الجزائر الصلف معلقا إلى الأبد. على امتداد هذا الشارع الضيق الذي نذرعه، أخذنا نتخاصم من خلال حوار عنيف متسم بالرجفات، يثار ويستأنف من طرفه أو من طرفي، لم أعد أعرف. بعد ذلك أرانا ندخل –الشاب والخطيبة– في رواق عمارة في طابق درج داخلي هائل ذي دربوز من خشب لامع، يؤدي إلى الطوابق.

أتذكر جميع تفاصيل المكان، وكذا الشمس الخريفية الساطعة التي تأسفت لتركها خلفنا –شمس فاترة ولكنها ليست مبهرة. بعض أشعتها الضعيفة تتسلل بيننا بعكس الضوء.

هل طارق هو الذي جذبني من ذراعي وجرني إلى غاية هنا ؟ شككت في الأمر فجأة. ها نحن وجها لوجه في

الظلام، ولم يبق لي سوى المشهد الذي سيلي، سوى تبادل كلام مجزّأ ومقطع. ليس كلامي بل كلامه في المقام الأول.

يزعم أنه يعطيني أمرا لا أسمعه. أرى فاه مفتوحا ووجهه المحقّن. في حين أبدو مسبولة الأيدي، نظرتي مترنحة. منذ الدقيقة الأولى، حين شرعنا في المواجهة، أحسست حقا بأن لا مكان لي ! ولن يكون لي حتى في منزل أبي !

لا هناك عند الخروج من الحانة، حين بدأنا المواجهة، ولا بعد ذلك أمام المارة الذين كانوا يحتكون بنا : بالكاد أتذكر كلماتي –لاسيما وأني فجأة لم أعد أحسن الوقوف أو الاستقامة ولا حتى كيف أتلاشى. استبد بي الإحساس بأنه لم يعد لي مكان أو فضاء أتنفس فيهما...

لم يتبق من الخصام سوى كلمتين أو ثلاث تلفظ بها هو : كرر أمرا واكتشفت فيما وراء الدهشة، زعمه بأن كرامته قد فجعت... شيء ما بداخلي كصوت طفل قال : «لا أصدق عينيّ ولا أذنيّ !».

بجانبي، أرسل الرجل تكشيرة بادية على وجهه المحمر والمشوه لأنه يصرخ (يصرخ ولكنني لم أعد أسمع صوته.) بيد أن عينيّ مسمرتان على الوجه... أو الفم أو الجبهة الآمرة.

أحاول الإصغاء إليه ؟ إنه صوت مجهول : أنا بإزاء رجل غريب. الـ«لا» هذه الكلمة الوحيدة، كلمتي قد انبثقت مني بطريقة عنيفة من كل الأماكن : عينيّ، ووجهي وتمطيط شفتيّ...

ترى هل أنا التائهة الحقيقية، الضائعة في المدينة التي لم ترغب منذ زمن بعيد في التساؤل : «لماذا فضلت ذات يوم أن أصغي إلى هذا المجهول ؟» هل أصبحت فجأة ذلك الشخص الذي أخطأ الباب في مدينة أجنبية ؟ هل سأصبح تائهة إلى الأبد ؟

في هذه الأثناء، لا زال الرجل يتكلم : يبدو لي أنه يصر على إصدار الأوامر ! لم يدرك بعد بأنني منذ البداية قطعت الصوت ! بشكل عنيف بدافع البقاء ؟ لا، إن ردة فعلي من باب التحدي الصرف.

فجأة –بما أنني اكتشفت قدامي مجهولا– قررت الإصغاء : هذه الطريقة الصبيانية أجربها من باب اللعب دون أن أتفطن إلى ما يزمجر في داخلي.

«أشعر بأني فوق قارة أخرى، قلت في نفسي، متحايلة بالأحرى على نفسي ولكنني قررت : لنصغ بما أني خارج الحلبة، خارج كل شيء ! كما في المسرح... ثمة شبحان

هائجان في هذا الركن الأكثر ظلمة بالمدينة، في ذلكم الصباح... هكذا إذن إنه يأمر ! لاحظت ذلك. ترى على أي قاعدة يظن أنه منتصب ؟ لقد أفضت هذه المراسلة، وهذه الرسائل «العاطفية» المزعومة إلى حوار الطرشان، تلك الرسائل التي كانت تصلني إلى الداخلية تحت اسم بياتريس المستعار».

كل شيء أمسى معروضا أمامي : صور المدينة الداخلية عند سفح الأطلس، التي غادرتها نهائيا وخفقات قلبي -فيما مضى، منذ قرن، حين أفتح كل رسالة، وتعطشي إلى التعلم عن ظهر قلب («عن ظهر قلب وبالقلب» : أتهكم على نفسي)، عشرة أبيات بمصراعين لامرئ القيس... مشاهد تنبعث في شكل بريق، على إيقاع الحمى الباردة، أوراق مدعوكة ومخفاة تحت المخدة -أتذكر فجأة كل ذلك وأنا عزلاء. إن الذاكرة لعنيدة.

هل أعود إلى الردهة ؟ هل استغرق وقت المواجهة في الرواق المظلم عشرا أو خمس عشرة دقيقة ؟ أبصر الرجل أو بالأحرى هذا الحيوان الذي يبرز أسنانه... إنه يتحدث ويرفع صوته : كلماته الملقاة أو المهتزة تسقط أمامي في فراغ.

يحاجج وأستشف زمجرة صوته وأرى وجهه المنقبض وعيونه الضيقة التي لا أميز فيها سوى خط حاجبيه –وهو تفصيل من شأنه أن يغويني : إن كنا حين نجلس هناك، أمام البحر، فإنها المداعبة الوحيدة التي أجرؤ عليها : بالبنان أعيد رسم قوس الحاجب ببطء... بالأمس فقط !

كل شيء يتمزق بفعل هذا الاضطراب –زوبعة جامدة–، بما أنني تابعت إلى غاية هذا الرواق «الرجل»، لنقل السيد الذي يحاول... ولكن ماذا ؟

فجأة، رغم ربع الساعة هذا من صمم غريب أو من صمت، أنا متأكدة –بعد عقود من الزمن– من اكتشافي المتعثر والبطيء إزاء هذا الذكر المنتفخ بسلطة وهمية ؟ أستعيد حدة حواسي التامة : سمعي، نظرتي الصاقلة بحياد بارد.

أسمع هذا الشاب الذي كان يستنسخ لي، أسبوعا تلو الآخر، قصائد الحب للمعلقات التي كان الشعراء الوثنيون والصعاليك يتبارون بها، شبه قطاع طرق، شبه مرتجلين، لكنهم كلهم واهمون، لصوص عرائس أو خيول، كلهم معزّزون بنفَس شعري لا ينبض –لقد حفظت بصبر جم شعرهم الجريء الذي كان يلقى في الجزيرة العربية...

أين أعلق بدوري كلماتي اليوم، الدالة على قلق مقفّى، أكان ذلك بالفرنسية أو بالعربية ؟ المعلقات : للسعي إلى الفوز بإحدى جوائز ذلكم العهد هل يجب عليّ، أنا، بجسمي كله وصوتي، أن أعلق نفسي بقوة ذراعي أو على عمود التشهير، على الأقل من ذراعيّ المرفوعين أو من رقبتي المكبلة ولساني المثقوب وجثتي المعروضة للرياح، وليس تحت سماء الجزيرة العربية، ولكن تحت سماوات العالم الفسيح ؟

أجل لسان مثقوب، ولكن أيمكنني أن أغني على الأقل هذه المعلقات العريقة التي حفظتها عن حب، والتي لا أنكرها لا من باب اليأس ولا من باب الندم ؟

هكذا رحت أهذي خلال بعض الدقائق كانت بالنسبة إليّ بمثابة بريق حقيقة... لا بسبب بياني بل بسبب قنوطي، ألا يمكنني على الأقل أن أطمع في جائزة صغيرة في مسابقة المعلقات ؟

ما عدا أن هذه الكلمة أصبحت توحي لي بالتعذيب ! فلا أثر لنشوة الأمس : ثمة سوء فهم وليس بسبب تغير الفترة أو اللغة !

الآن، في الرواق، يقف قبالتي الرجل الذي كان بالأمس يكتفي بنسخ هذه القصائد العريقة، ترى هل يصدر أوامره باسم شعراء الماضي السحيق ؟

أمامه تقف الفتاة حائرة وحالمة وطيّعة (ظل الأب يبتعد ثم يتلاشى). لقد سكنها صوت أخت مجهولة لا تتكلم حتى بلغة خطابية، لا بلغتي الأم هامسة ومتمردة :

«هذا الرجل، هل هو الذي تظنين بأنك خرجت معه أمس، مصحوبة، كما كانت زميلاتك بالداخلية يقلن ؟ أنت لست بحاجة حتى إلى مساعدته لاجتياز العتبة التي سبق أن فتحت لك، أنت التي كنت تجرئين على التوغل وحدك أحيانا في شوارع الجزائر وقلب القصبة، التنكر هو درعك الوحيد !».

سكت صوت الأخت ثم عاد هامسا : «هذا الشاب الذي كان يحلو لك رسم حاجبيه ليس العاشق، بالكاد تنطقين باسمه –بكلمات مغلفة– «الخطيب» ! هل يكتسي هذا اللفظ حقيقة ما لديك ؟ لا وجود في العربية «لخطيب»، على الأقل في ذلكم الزمن، حيث كانت كل فتاة شابة، تخرج بالحجاب أو من دونه، «موعودة» من قبل الأب أو الأخ أو الخال... بيد أن هذا الشاب ليس

«بالشاب الموعود» ! بالكاد يكون المزعج (أتذكرين الرسالة الممزقة إربا إربا من قبل أبيك : هذا المشهد يبدو أنه حصل منذ زمن بعيد !). ماذا تفعلين في هذا الرواق قبالة هذا الأجنبي ؟» .

في ظرف ثانية، تفكرين في العدد الهائل من الكلمات العربية للإفصاح عن الحب : هذا الشاب لم يستعمل أية كلمة منها –بالكاد وجد الوقت الكافي لاستنساخ أبيات امرئ القيس ! ... ذاكرتك تمتطي العديد من دواوين الحب الرباني والحب البشري لشعراء أندلسيين –أولئك الذين تقرئينهم من خلال نصوصهم الأصلية أو من خلال الترجمة–، وكذا متصوفة المشرق الذين كانوا يدعونك لشطحاتهم الروحية.

استعاد الشاب خطابه المفعم بالغضب المكظوم، وجهه مشوه. كرر بعناد جموح :

– أجل ستذهبين لإحضارها بما أنك أنت التي طردتها !

أشعر أن نية مسبقة قد استقرت في نفسه، ولكنني لم أفقه شيئا ما عدا أنه بدا لي فجأة أن أنسجة العنكبوت قد غزت هنا جميع الزوايا... لمحاصرتي ؟

الرجل ينتظر وأنا أحملق فيه دون أن أراه : عشر مرات أو عشرون مرة على الأقل، في هذه المدينة حيث كنت أمشي إلى جانبه، قبلت بالخطر الخافق. عشر مرات أو عشرون مرة همست لنفسي بحماس : «إن علم أبي بذلك، سأنتحر !».

«يعلم بماذا ؟» .

كان في مقدور صوت آخر ذي برودة أعصاب أن يردّ : «يعلم بأني أمشي بالخارج إلى جانب هذا الشاب، وبأنني أدخل معه إلى قاعات السينما الشعبية، وأنا أحيانا المرأة الوحيدة بين فتيان القصبة وهم جميعا من المعجبين، كرفيقي، «بمارلون براندون» في فيلم «يوليوس قيصر»، أو بهذه النجمة الأمريكية أو تلك لأفلام «الوسترن»... »).

أجل، إنه قبالتي يصدر الأوامر ! هل نحن هنا منذ دقائق طويلة ؟ أم هو امتدادها غير المتناهي على عدة ساعات ؟

«بالكاد تقفين على رجليك !» لاحظت بإشفاق مفاجئ على نفسي.

بالفعل، استولت عليّ بداية إرهاق :

«ماذا تفعلين إذن في هذا الرواق المظلم قبالة هذا الرجل الذي يهذي... ؟» .

أتذكر : أحدا، امرأة، فيما أظن (صوت بلا صدى لعقب متشنج خلفي) وهي تنزل هزتنا هزا خفيفا. همست، في تنفسها قائلة : «المعذرة !». لم أر منها سوى الكتفين وظهرا عريضا وذراعين عاريين وكأنهما ذراعا خادمة : وسرعان ما اختفت.

إثر ذلك، انهمر نور أبيض من الأعلى منصّبا شخوص الركح : بمجرد أن حاولت فهم كيف لفنا هذا الضوء، حتى ولجني نوع من الكهرباء كي يجنبني التحجر الذي كان يتهددنا.

«هيا (أوقف هنا هذا التذكر)، ماذا سمعت ؟ ما هي الكلمات التي سمعت اهتزازها العدواني ؟» .

هذا المجهول الذي مشيت إلى جواره خلال الأسابيع الأخيرة، وقد اعتبرته رفيقا وصفيا وعاشقا، وهو الذي لم يتنهد أبدا، ها هو الآن يأمر ؟

فجأة تحوّل الضوء الباهت الذي غمر الركح إلى قوة مذوبة للأماكن بلا رحمة : الحيطان التي تحيط بك والظلمة في الداخل، وكل ما كان من قبيل الصوت، وكلماتك وكلماته الشبيهة بالحجر في أكداس تلتحم كي تسقط معناها وترجمك ! إنه تحوّل المكان وضوئه وبريق الشمس التي تغمر أكتاف ووجه الرجل أمامك :

– أعد !

نطقت بهدوء بهذه الكلمة الوحيدة بصوت عال. نظر إليّ بإمعان ثم سكت : هل فهم بأنني أنا أيضا قد أصبحت شخصا آخر ؟

تغيّرت الأدوار والأقنعة والأشباح ؟

قد تكون الجدة التي هرعت فيّ فجأة بين جنبيّ، هي التي قررت ذات يوم، بالقرب من مزار الوليين الصالحين الجدين الحارسين، أجل هي التي أعدت حقيبتها مع أبنائها تحت جناحها، حليها على صدرها بين نهديها العاريين -فكرت : «هيا، وداعا !» ولم تقل ذلك فحسب أمام زوجها الذي كان يظن أنه سيد المقام ! ها هو ظلها الآن بين أحضاني !

بعد أن تحررت من حلمي الذي استغرق عدة شهور من خطوبة سرية مع الكتب، وكأنها انبثقت من رواية رخيصة، قلت من جديد بصوت قوي متحدية :

– أعد !

أعاد ما قال. ثم استقر في دور متفق عليه براحة تقريبا. كلامي الذي نطقت به مرتين بدأ بالكاد يفاجئه.

– صديقتك التي طردت، اذهبي واحضريها ! لقد شتمتها ! آمرك بأن تعتذري لها و...

– و... ؟ أجبته بحدة.

حملقت فيه متفحصة إياه. «غير معقول !» هذه الكلمة غمرتني. اكتشفت من هو حقا : شاب ذو نظرة غير أكيدة ومأمونة وقسمات مشوشة بغتة... «ها أنا في صلب مسرحية لم أخترها، إنه لمسرح رديء... » قلت في نفسي.

عادت هذه الكلمات بعد عقود من الزمن... كل شيء لا بدّ أن ينبثق ثانية، من هذه الديمومة المتلاشية تلاشيا مبرما. حتى بعد فوات الأوان !

أعتقد أيضا –لا أنا متأكدة، لا أشك، بفضل الحدس الحاد الذي يضيء المياه العكرة لليأس، أدركت – للأسف، لا حبا لهذا الرجل (هل حقا سأحبه في قفار السنين حيث كنا سنتوغل ؟)– نعم أدركت بفضل الحياد الذي يهبه التبصر المر، دافعه الحقير أخيرا !

«إجباري على إرجاع الصديقة المزيفة نحو الزوج الذي كانت تغبطه، والذي كانت تريد أن تتدخل فيه... »، هذه

الخاطرة المعوجة للرجل قد انكشفت لي. إنه ينتفخ شأنا في صلب هذا الثلاثي حيث يرى نفسه بمثابة الديك...

ندّت مني ضحكة مجنون، وقد اعتراني الخجل من أجله، ولكن ما اعتراني أكثر هو وخز ضمير قياسي على نفسي!

قلت في نفسي: ربما الآن يرغب، بعد وقت متأخر (أو متأخر جدا)، بدافع الهوس الفاحش، أن يعرف إلى أي مدى سأقبل بالخضوع له؟ قبح فرضية بالكاد تدرك! هو الإحساس الذي تستشعره ممثلة (أنا التي لن أصبحها أبدا) تنتظر أداء دور في مأساة والتي تلفي نفسها متورطة رغما عنها في ميلودراما رديئة... هل كنت حقا منشغلة بنفسي؟ في أي «مكان سيئ» وجدت نفسي متورطة؟ هل صرخت حينذاك؟ ألم أصدر بالأحرى ضحكة مجنون حادة وأنا نهب بداية جنون...

بدأت الخيبة تفعل فعلها —ترى هل أصبحت من حجر لا صوت ولا دموع لي؟

أسمع فجأة ضحكة منبثقة من نفسي، تسري ثم تنضب ببطء...

أمدتني ذاكرتي المجتثة بصورة أخيرة، في حين أن صوتي نفسه قد انطفأ : دائما في هذه الردهة، في قلب الظلمة، دلفت الشمس إلى هذا المستنقع من الوحدة.

كائنان وجها لوجه : الرجل الذي أمر والفتاة التي تنظر ولكن انطلاقا من سجن فاغر. إلى أي مدى يغمرها هذا السيل من النور، هذه المراهقة ؟

أنا التي أكتب، بعد ذلك بكثير، فهمت : أنا في هذه اللحظة فتاة هشة حقا، كررت مثل لازمة، سنة الفلسفة كلها بسبب مراسلتها الغرامية السرية، أجل أنا التي أكدت، بالنظر إلى ما كنت أعتقده «خطيئة»، بدء بالقبلة الأولى التي منحت تحت الشجرة وتحت المطر : «لو علم أبي بذلك سأنتحر !».

لا أدري كيف انبجست هذه الجملة السحرية، هذه الجملة الملعونة في هذا الرواق، حيث كان ينعقد المصير حيال هذا الشاب الذي أصبح في نظري أجنبيا إلى الأبد —والذي سيكون مع ذلك أول زوج. قلتم : «زوج» ؟ كلا، بل بالأحرى : مخنق وكفن !

عادت الموسيقى الصغيرة لهذه الجملة المأساوية أو بشكل ما الهزلية التافهة : «لو علم أبي بذلك، سأنتحر !»

الكلمة الأخيرة قد تكون صدرت من إحدى صفحات الكتب العشرين التي التهمتها في شقة القرية في آخر صيف : وربما أوحى لي بها شاعر ألماني أو إحدى روايات جيرودو حيث البنات ثرثارات ولكنهن طائشات.

إن تقطيع هذه الموسيقى المجعولة لتأكيد إطلاقية القرار كفّ عن أن يكون لازمة ليتحول إلى حبل يحوم حول رأسي : «لو علم أبي بذلك، سأنتحر !» هذه الكلمة الأخيرة كحبل مشنقة : «سأنتحر !...سأنتحر !» تحولت إلى لازمة راقصة : «أبي... أنتحر !».

الأب والموت. الأب الذي يحكم بالإعدام، مثل أجاممنون. ولكنك لست إيفيجيني ولا ضحية راضية بمصيرها، لا ينتظر أي أسطول ملكي قيام الرياح للشروع في حملة حربية.

كان الأب يبدو لي الفخر نفسه : طيف منتصب ضد أي عقبة من العقبات... ربما هذا الأب قد أشهرته كي تشعري، أمام هذا الرجل ذي الملامح غير الغامضة، بأنك قد أصبحت الأب أيضا ؟ أو ربما كان ذلك ما بدا لك الأصعب على التحمل : وأن هذا الشاب الذي تجرأ على إصدار الأوامر وغير الواعي بكنهك، لم يستشف مدى

عزة نفسك –وهي العزة التي يمكن أن تصبح متواضعة فقط أمام المتواضعين الحقيقيين...

هذا الدوران في نفسك، يا له من خلط ! هذا الترنح : الماضي (السنة الأخيرة بالداخلية)، الحاضر القريب المباشر هذا الفارس الشهم، كما كان يقال في «فرنسا العتيقة» الذي أمسى «حارسك الشخصي». بفضله، قضيت شهورا وسنوات في إشباع رغبتك في السير في هذه المدينة المجهولة و–حتى وإن تركته يقبلك هناك، قبالة البحر– فقد سمح لك بالتحرك في كل مكان في الخارج، أحيانا بوصفك فتاة «مصحوبة» وأحيانا أخرى مع الإحساس المسكر بأنك أمام شاب أضحى فجأة خنثى.

كنت تقولين لنفسك «إن هذا الخطيب» قد فتح لك الأبواب غير المرئية لعالم خارجي لا متناه، وبأنه سيكون فخورا بهذا الدور. بالمقابل ستقبلين بقبلاته دون أن تتأثري لذلك : هبة عاطفية من لدنك. حتى وإن حدست بأنه غير مرتاح وسجين رغباته التي يتعين عليه السيطرة عليها، ولكن لا تعبئين بذلك.

ولكن ماذا اكتشفت الآن إن لم يكن سوء التفاهم ؟

الجملة المأساوية أو الميلودرامية قد حركت فيك صوتها الجموح : «لو علم أبي بذلك، سأنتحر !»

كان عليك أن تتوقفي وأن تتساءلي ببرودة أعصاب «لو علم أبوك ماذا ؟ القبلات التي تقبلين بالكاد مع ما يشبه بداية الرغبة ؟».

تسارع كل شيء. احمرّ وجه الشاب، هل هو الغضب الناجم عن انتصابك وأنت متروكة للأشباح ؟ كانت لك فكرة آفلة عن تلك (الصديقة المزيفة) التي تظاهرت هنا بأداء -كما في أوبرت الماضي- دور المحفز. لقد ألقت عليك أذى من السحر -كما تقول النساء المتطيرات في الأسرة، هؤلاء الحبيسات اللائي يزيدهن الذعر انغلاقا على أنفسهن-نعم، سواء كانت شريكة مزيفة أو حقيقية، فقد أصابتك-سيقلن- بعين السوء !

هذه العبارة المتعارف عليها لم تخطر على بالي، ولكن الضوء الأحمر الذي يغمرنا نحن الاثنين، أراه ثانية : هذا الزخم من الشظايا والصور والانفعالات، أعيد بناءه بكل ارتياح.

من أين تأتي هذه الذاكرة الدسمة الموحلة التي تنضح رجفات بركان داخلي ينطلق منا مرتين أو ثلاثا ليس إلا

في حياة طويلة ؟ هذا الانفعال الذي ليس بلذة حسية، هذا الدوار الذي ليس سعادة صلبة.

أخيرا، هذه اللغة التي لا نتخلص منها إلا بانطلاقة عمياء وهروب إلى الأمام في الفضاء الخارجي اللانهائي المجرد من الحشد المتلاشي فجأة...

حينئذ خرجت :

«لأذهب بعيدا جدا وأجري سريعا لألقي بنفسي هناك جامحة إلى النقطة حيث يغرق الأفق، لن أتوقف إلا حيث ينتظرني البحر... ينتظرني...».

لما ظهرت من جديد تحت الشمس، لاحظت الأدراج عند رجليّ. وحين رفعت عينيّ رأيت البحر : بعيدا جدا، قريبا جدا.

بقيت واقفة مستقيمة مدة ثانية، وقد قررت مواصلة السباق –نحو أي هدف ؟ ناداني صوت الرجل، فات الأوان ! انقطع الحبل.

الدرج عند رجلي : هل أنزل ! أم أجري وأذهب بعيدا جدا، هناك حيث لن أتمكن من التوقف. أجري إلى حيث ينتظرني البحر.

لا صوت في الخلف. أنزل وأنزل بلا نهاية. خفيفة أنا. ثم أمسي مهووسة. أطير وأنزل وأنزل رغم ضجيج الشارع إلى غاية الأسفل. أما جملة البداية الحاسمة («لو علم أبي...») فقد طردتني كلماتها المنثورة بفضل ريح السباق الممتد...

فضاء شاسع، عن قريب تختلط السماء بالبحر... في الأسفل، تتراءى المدينة الصاخبة وهمسها القريب من رجلي إلى غاية الخط الأخضر هناك... اللازوردي والسمت تماهيا واقترنا. ليصبحا نقطة في الفضاء!

أجري!

يبدو لي الآن أني ما زلت أجري...

نزلت الفتاة الأدراج الحجرية إلى غاية شارع سادي كارنو. جرابها وأغراضها المهملة مطروحة على الأرض. من أعلى الأدراج، ما زال الشاب يناديها مرتين أو ربما ثلاث مرات. تجري... صوب ماذا ؟ هل سمعت الفتاة، وهي خارج الردهة، طنين الشارع، عند رجلها، البحر هناك في الأفق أذرعه الهائلة تمتد نحو الهاربة ؟

«أجري... إلى غاية البحر !».

تنزل الأدراج : تارة يدها على الدربوز، وتارة أخرى...

أدرت الرأس إلى يميني كما لو أني عابرة عادية وليس كمجنونة جامحة لا غاية لها ولا مراقبة.

في سرعة البرق، التقطت نظرتي الترامواي الذي وصل بسرعة. الماكنة انطلقت وهي تقفز كوحش جذلان! أخيرا هدفي: أتهالك هناك حيث البحر بعيد جدا كي أنام فيه.

أنزل آخر الأدراج.

الماكنة تهجم عن قرب: في ظرف ثانية، تحول مشروعي. ها هي السكة الحديدية: سأنام عليها! سيتحقق كل شيء بسرعة. وصلت إلى الأسفل حازمة، مرحة وقد زال كل يأس: ترى هل سأجتاز الشارع؟ لا، بل سأنام هنا طوليا على السكك!

في الثانية الأخيرة، تصورت جسدي مقطوعا... إلى ثلاثة!

صراخ وجلبة وضجيج ممزوج بصرير الحشد.

بعد عدة دقائق، بعد أن انتزعت الفتاة من تحت الماكنة، وهي ممدودة على الظهر، أخذت شيئا فشيئا تفيق من إغمائها. صوت رجل –صوت السائق (المتأثر دون شك) ينعق مرعوبا فوق الجسد ذي العينين المغمضتين :

– ارتمت... إنها هي التي ألقت بنفسها ! أنظروا : يدي لا تزال ترتعد جراء ذلك !

أعرف بأني، لو ألتقي به بعد ذلك بكثير، سأتعرف عليه بفضل صوته اليائس، وإن في قلب أكبر حشد.

في عز الليل، اليوم أيضا، أستيقظ أحيانا كي أقول لنفسي :

– في المرة المقبلة، في صلب نفس مدوّخ لا مفر منه، هل سيكون السائق هناك ؟

.11
في ذلكم الصباح

انطلاقا من ذلكم الصباح، أخلدت للصمت أمام والديّ. بالكاد، فهم ابن خالتي، الطالب في الطب، المستدعى في المستشفى، وإن لم يشك بأن الأمر يتعلق «بحادث». لم يطرح عليّ أي سؤال.

صمتّ أيضا أمام «الخطيب». مواجهة غريبة شغلتنا طيلة الأربعة أو الخمسة أيام التالية. كنت في شرفة شقة الوالدين في الطابق الثالث، ممدودة على كرسي طويل أطالع أو أحلم. أما هو فقبالتي بالخارج قرب باب العربات منتصبا مدة ساعات ومتكئا على جدار، يتصور بأننا سنستعيد هكذا –على مسافة عشرين مترا– لقاءاتنا وجها لوجه والمواجهات الصامتة حين ينشب خلاف بصدد أي شيء ولسبب تافه، يؤلب أحدنا على الآخر في صمت صبياني.

بعد أيام من هذا اللقاء المتباعد، نهضت وقلت لأمي بأني سأستأنف دروس الآداب العالية في ثانوية الفتيان. وسرعان ما ابتلعتني الحياة الجامعية، بينما راح صمت جديد ودائم يستولي عليّ. وأغرب ما في الأمر أنني صمتّ نهائيا حول هذه الصبيحة حتى قبالة ذاك الذي كان سببا في إرهاصات المأساة.

أما منيرة، التي تصورت لحظة بأنها خصم ممكن في قصتي الغرامية الصغيرة، لم أرها قط بعد ذلك. بعد أن غادرتنا، لم تكن على دراية بخصامنا ولا الحادث المفترض الذي ختم هذه الصبيحة.

التقينا بعد عشرين سنة بباريس ومن أجل علاقة عمل. لم يخطر على بالي الإشارة إلى الوقت الذي قضيناه في الإعدادية. في خضم المأساة التي حصلت في ذلكم الصباح، لم تكن حتى ممثلة صامتة. وكذا مع «الخطيب» الذي قاسمني حياتي فيما بعد لمدة طويلة، لم أشر ولو بكلمة واحدة إلى هذه الصبيحة، ظنا مني بأني لو فعلت سنعاود الخصام من جديد. وربما رحت أشك في أن ما حصل ليس سوى فعل جنوني معزول.

إن ما يدهشني ويحزنني اليوم ويؤثر فيّ، هو أنه بعد صبيحة أكتوبر هذه، حتى بعد مواجهتنا الرومانسية التي دامت بعض الأيام، صمتّ نهائيا حول هذا الهذيان الذي ألمّ بي، والذي كان من شأنه أن يقضي عليّ. ألاحظ ذلك الآن بما أنني أعاود مواجهته وليس التلميح إليه من خلال شخص من الشخوص. بعد ذلك لم أنبس ببنت شفة حول هذا الفعل الجنوني.

وها أنا بعد مرور وقت طويل على هذا الصمت، أحاول جاهدة إعمال النظر : سدّ هذا البياض والإقامة فيه وكأن مطلبا يجبرني على فحص وجه أبكم —وجهي.

ها هو الوجه، أخيرا، دون نظرة ولا كلام، جمّده تساؤل شبيه بالسؤال الذي يلامس رضيعا أو طفلا متصلبا دون تنهيدة أو دموع. استولى على نفسي انغلاق طويل.

ثمة ما يدعو للبكاء... والتأوه على النفس والنحيب الدال على اليأس إلى الحد الذي يجعلكم تخيفون أنفسكم، أي دون جدوى. ترى ألأجل هذا ظل صوت سائق الترامواي —الذي لم أر وجهه أبدا— حاضرا بعد مرور عقود من الزمن ؟ هذا الصوت لرجل مجهول لا يزال يرتعش ولكنه غير مذعور :

– أنظروا يدي التي لا تزال ترتعش ! إنها هي التي ألقت بنفسها ! (يصرخ الصوت، يتردد صداه إلى أن يسكنني). ألقت بنفسها...

سائق الترامواي الذي أنقذتني يده، لا يزال في ذاكرتي مندهشا. ترى هل سيبقى صوت آخر حاضرا في حياتي كامرأة، حضور صوت السائق، صوت عشيق يفصح عن الرغبة أو... إن خوف هذا السائق المذعور الذي لم أر نظرته كان يلوي ويخشن صوته، وكأن الصخب الجماعي الذي كان يحيط به جزء من جسدي الذي كان يرفع ويحمل.

بعد ذلك، لم أستطع فتح عينيّ على السماء، سماء العاصمة في خريف السلم الأخير.

منذ ذلكم الحين، حقا، بدا أحد شخوصي النسائيين، الأقل توقعا، وكأنه يفلت من يدي التي تكتب وتسطر عليه. أحيانا هذا الظل الذي ابتدع، يستفزني بابتسامة –أنا المؤلفة. أشعر فجأة بما يشبه الألم العصبي. هذه المرأة– الشخص، قبل الانطلاق (أحدسه قبلها في ظرف ثانية)، ها هي تبتسم لي أو تستفزني بلطافة : «أرأيتني، أنا أهرب وأطير وأنتشل نفسي من نفسي». وأخيرا اهتديت إلى مبتغاي.

خلال زواجي الثاني، فتحت القرآن ذات يوم على صفحة ما، ذلك أنني كنت في أوج القلق، قبل أن أتخذ قرارا، كنت أبحث داخليا عن «رسالة» وآية وكلام موجه لي : أي إشارة !

تقول سورة النجم : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »، في الوقت الذي كنت أتوسل المساعدة في صمت. إن جبريل هو الذي أملى هذا الحكم على الرسول (صلّى الله عليه وسلّم). السورة الآية جميلة وثقيلة. كنت آنذاك في الحافلة. بعد العودة إلى المنزل، متأثرة، أو بالأحرى مستنفرة من قبل هذه «الرسالة»، هرعت هذه المرة كي أعثر على قرآن بالعربية ! ورحت أعيد قراءة السورة بصوت عال في لغته الأصلية وأقدر جمالها وأصواتها.

أجل، في هذا اليوم، —حتى وإن كان ذلك بعد صبيحة أكتوبر 1953 – كانت كثافة السورة وشاعريتها وكذا إيماني الطفولي قد زودتني بالمساعدة التي كنت أبحث عنها. تناولتها كنور كي أخرج من الظلمات.

ثم آية أخرى من نفس السورة تقول : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى» أعيد قراءتها أحيانا : فهي تذكرني، أنا التي استعدت سكينتي، بقلقي الأول. منذئذ، تجد كل شخص من شخوصي النسائية المعطلين في قصصي يبحث بعناد وبعمى عن مهرب، كما فعلت دون شك في ماضيّ الطفولي. كيف السبيل إلى النجاة ؟ كيف أنطلق ؟ كيف

السبيل إلى العثور مجددا على التألق وخفة الروح والانتشاء بالحياة –حتى بالبكاء ؟

حقا، تجيب السورة : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ».

لم كل هذا اللف والدوران ؟ إنها لتجربة غريبة بالنسبة لي أن أنغمس عميقا من جديد في قصة «حب» أولى وطويلة جدا، هذه القصة التي لم تكن مع ذلك قصة حب ولا قصة خضوع، بل قصة استسلام طوعي من قبلي وهبة، رغم جميع الغباوات جراء انعدام التبصر، بينما كان الذكر قبالتي يتدثر بجميع مظاهر الغرور والبحث عن «النجاح»، وسقوطه يجري ببطء أو بالأحرى ذوبانه، إنه قدر لا يثبط عزيمتي، بل على العكس دفعني إلى أن أتضامن وأحافظ على الزوج من الخارج إلى محاولة إصلاح العيوب، والثقوب... كل هذا من أجل قصة حب مزيفة لمراهقة استنزفت بعد سنوات عديدة ؟

ولكن أنت –أحدث نفسي كما تفعل أجنبية ساخرة– أين أنت الآن، أنت التي بدأتي حياتك بتدخل الأب، الأب

وابنته التي يزعم أنها كانت محل حب أو كانت كذلك فعلا —والتي صرحت فجأة للعالم :

«لا مكان لي في منزل أبي» ؟

أحقا صودر حقك ؟ وأي مثير يحثك على كتابته ؟ ولم الرغبة في الإصداع بذلك علانية ؟

لنلتحق بالأحرى بالشخص الذي نقلته سيارة الإسعاف في صبيحة أكتوبر 1953 إلى المستشفى. داخل سيارة الإسعاف، لا شك أن «الخطيب» –الذي لم تتعرف عليه أسرة الفتاة بعد– هو نفسه تحت الصدمة. ولكن الأمر لا يهمني، فأنا ما زلت تحت تأثير غريزة الموت وانفراج الإقلاع المبرم في نشوة الذوبان في أرجاء فضاء خليج الجزائر، المنظر الوحيد والأخير الذي يمكنني إدراكه. وعلى عكس ذلك، تبدو لي الصديقة المزيفة التي ظنت نفسها للحظة بأنها غريمتي، حيث راحت تحاول مسك خيوط ثلاثي غير موجود، الشاب المتكلف الذي كان، بلا شك، مشدوها جراء ما انفجر أمام أعينه : جسمي في رمشة عين يتحول إلى أشلاء، دمه وعظامه منتشرة، أنقذها السائق بأعجوبة.

أحاول الآن إعادة بناء ما قد حصل خارج نفسي، كما العاصفة في ذهن أو قلب هذا الشاب المعبود فيما بعد، تحت أنظاري، من قبل أم رائعة وخمس أخوات أحببنه هنّ أيضا إن قليلا أو كثيرا، بوسامته، وأناقته...

لكنني أنا بمن همت إذن، هذا إن كنت أعتقد بأني «أحببت» حقا، وهو ما لم أعد أعتقده، لولا رسائله التي انطوت على أبيات -بالعربية المشكّلة- لشعراء أبطال فازوا في المناظرات الشعرية الجاهلية ! أجمل قصائد الحب للمجتمع البدوي ما قبل الإسلام، أعمال شعراء صعاليك تنافسوا بارتجال الشعر -كان في مقدورنا أن نطلق عليهم فيما بعد صفة «سارقي العرائس».

استنسخ لي طالب العاصمة صفحات وصفحات من لغة هذه الظلال غير المنسية، أي من عربية ترتقي إلى زمن هوميروس، توليت حفظها عن ظهر قلب. ولئن كان لا يزودني دائما بترجمة الأبيات، فقد كنت أسعى إلى الحصول عليها بنفسي في المكتبة. فأدونها وأحفظ النص العربي الذي يرسله لي وكأنه هو صاحبه. كنت أقرأه وأحفظه بتوتر وشغف يحوّلان هذه الرسائل إلى «رسائل حب» حقيقية، رسائل ثنائي معيش في الحاضر.

في الواقع، هذا هو الذي وقعت في حبه في هذه السنة الأخيرة بالإعدادية، في الوقت الذي كنت أحضر بكالوريا الفلسفة. في هذه الشهور الأخيرة من الداخلية، كنت أبدو كمن يكرع من ثديين، وكأني أحمل في نفسي بشكل غامض –منذ بداية دراستي– ثنائية. كنت أتقدم خبط عشواء، على ثلم موحد ممكن : وحدة في الجمال والتدفق. وبشكل ساذج وصبياني، كنت ألصق كل هذه الرغبات القديمة بمراسلة غرامية مزعومة !

هذا هو سري، والأنشوطة كذلك. انطلاقا من هذا، استقر في نفسي الدوار. هل كان عليّ آنذاك أن أحب هذا المجهول وهذا الناسخ المستعار في ظل امرئ القيس ؟ ألم أكن ألقي عليه هذه الأبيات مرة على الأقل، هو الذي كنت أراه محاطا بهالة الفعل العربي العتيق، ألم أكن أستشعر هذا السحر وأنا أدنو من وجهه وإلى غاية تجاويف قبلاته الأولى ؟ ... كنت أتوق إلى أن أعيش دقائق قوية ذائبة في هذين العالمين، كنت أصهرهما في الحاجة إلى نفس الجمال !

هكذا خلصت –ولكن بعد فوات الأوان– إلى فهم ما كنت أشعر إزاءه بالحب : حب اللغة الضائعة، وقد انبعثت

في وجه الشاب الذي كان يتقنها، لغة الماضي تلك. تلقيتها شعرا منبعثا من المعارك القديمة، بينما لم يكن يدرسه إلا بحسبانه بلاغة. «قصائد معلقة» في الصحراء العربية وسط الناس والغبار، يلقيها شعراء صعاليك، وليس «الفرسان» ولا بخاصة «شعراء الحب العذري» !

هكذا كبّلت نفسي، وأردت أن أكون حبيسة هذا التراث خلال ستة أو ثمانية أشهر، في فترة الختام بالداخلية. بحيث أهديت ذات يوم، وأنا تحت الشجرة والمطر، شفتيّ لأول قبلة و-كما في حكايات الحور- ظننت كما الأطفال بأني «انبهرت».

فعل ضائع -ولكنني سمعت موسيقاه ولهاثه- يلامس وجه شاب ذي جمال نصف تتري ونصف بربري. بعد ستة أو عشرة شهور، انهار الحلم الذي نسج على شاكلة نسيج العنكبوت. ألفي جسمي -الذي كانت روحي وأحلامي تسعى إلى الهروب منه- نفسه ملقى إلى الأمام وإلى أبعد في هذا البريق - في ذلكم الصباح - أمام خليج الجزائر الهائل. بعد ذلك، كان الألم ؟ كلا، بل انهار الحلم، ليس إلا.

فجأة استعاد المقطع الشعري الذي سكنني مدة سنة كاملة إيقاعه الجهنمي. كنت أكرر عند كل موعد خفي : «إن علم أبي بذلك، سأنتحر !». غير أن هذه الجملة الملحة، المشتغلة كمحرك واحد، كانت تشهد تنوعات :

«إن تعرف عليّ صديق من أصدقاء أبي في شارع من شوارع العاصمة بينما أنا أمشي إلى جانب هذا الشاب، وإن أسر بذلك لأبي، وإن استدعاني أبي إلى الامتثال أمام محكمته، فلن أعاود الظهور ! ...» كيف أخبره بأن جسدي بكر (هوس مجتمعنا منذ قرون) —وبأني لم أقبل إلا القبلات (التي لم تؤثر فيّ، ولكن الخرق والخطر أثرا فيّ أيما تأثير !) كيف أجرؤ حتى على التقدم في هذا الميدان المحظور من قبل العفة أمام الأب ؟ وفي كل مرة، تأتي خلاصة لتختم المعضلة :

«إن استدعيت للامتثال أمام محكمة الأب سأنتحر !».

في صبيحة أكتوبر هذا، لا أذكر أن هذه اللازمة قد سكنتني مجددا ثواني قبل أن أنطلق لأغرق هناك في الأفق.

هل كان ذلك غريزتي الأولى ؟ أتذكر أنني أخذت أنزل الأدراج فالتفتّ مدة ثانية وأبصرت وسط سباقي الصاخب، قاطرة الترامواي التي بدت لي وكأنها تهجم

دون مكابح، على يميني. وهكذا أصبح قراري الأول المتمثل في الانفجار ضد الأفق، فوق البحر، والبواخر والحمالين والحشد، قلت أصبح في ظرف ثانية (مصحوبا دون شك باللازمة : «إن علم أبي... سأنتحر ! إن علم أبي... سأنتحر !»)، من خلال قلب هذا المشروع (الارتماء نحو الأمام والانفجار هناك في العمق تحت الشمس فوق الميناء والبحر الثابت الذي سيبتلعني) –نعم في ظرف ثانية، أصبح : «تمديدا جسميا على طول السكك الحديدية : سيأتي الموت بأمان، فالآلة قد انطلقت !».

انطلقت... انطلقت... «إن علم أبي... سأنتحر !» أجل أردت أن أنام على السكة : كي أنتشر وأن أصبح غبارا بدل كتلة دامية مغروسة في الأرض، مع البحر كأول شاهد ولكنه يلفني والخليج بمثابة كفن، آه يا له من مجد وموت سعيد !

ضجيج وباقة من الصيحات...

خلال سقوطي وإغمائي الجزئي، صاح السائق :

– لا تزال يدي ترتعش !

ثمة ذكرى أخيرة، بينما كانت سيارة الإسعاف تقترب منا، وراح الجمع يحملني، كان الصوت يردد : يد من أيدي هذا الرجل غير المرئي ترفعني ويضغط بقوة على ظهري... جلبة أيضا ثم صمت عميق وفاغر وخال من التعب.

في سيارة الإسعاف التي كانت تقلني، كان صوت...
من يا ترى؟ هل هو صوت «الخطيب» دائما، الخاطف وسارق العروس والمتسبب، ذلك الذي استخلف الأب وأصبح يسدي الدرس، ولكن بصوت يهذي، لا يصرخ، ويفوق : «الانتحار حرام في الإسلام!».

الانتحار حقا، ولكن الانطلاق والسباق إلى غاية البحر الهائل، ولكن الـ«إن علم أبي بذلك، سأنتحر!» هذه الكلمات الأخيرة التي ترنّ في داخلي كل مرة طوال مغامرتي الصغيرة التافهة، «الزهرة الزرقاء»؟

خلال المسافة، زمجر الصوت الذكوري : إنه يشبه صوت إمام. ولكنه صوت ذلك الذي يرافقني –إنه يكرر

درس الوعظ : «للأطفال والمؤمنين المصلين الذين يقبلون الأرض ويحنون ظهورهم و...».

بمجرد وصولي إلى المستشفى، تركت عينيّ مغمضتين. بيد أنني أعطيت رقم هاتف الوالدين. أما الآخر، الشاب الذي صمت فجأة، فقد غادر. أضفت وعيناي لا تزالان مغمضتين بأن لي ابن خالة مقيم في الطب. سيأتي إذن... لا يفهم أو يفهم أكثر من اللازم : «حادث !» حادث تافه جدا... أسمعه يتحاور مع الممرضة : يبدو أن كعبي قد التصق بثلم السكة، لقد ركضت بدافع التهور كي أعبر قبل مرور الترامواي الذي جاء مسرعا...

اصطحبني ابن خالتي على متن طاكسي إلى غاية شقة الوالدين في وسط العاصمة... كانت أمي تذرف الدموع. أما أنا فكنت صامتة.

الأيام الثلاثة أو الأربعة التالية قضيتها ممددة في شرفة الطابق الثالث. خلال ثلاثة أو أربعة أيام، أقام الشاب –الذي استعاد صفة «الخطيب»– في الشارع المقابل. ظل ساعات طوالا هناك.

كما الصياد، يراقب الطريدة.

ولكن الطريدة لا تبالي. لقد تغلب عليها شغفها «إلى الحد الأقصى» : شغف مفرغ. فالفتاة لن تقول أبدا : «إن علم أبي... سأنتحر!» ستعيش، مكتفية بما تيسر، هذه الحياة المسماة «العاطفية» : لكن العيش هكذا هل هو عيش حقا ؟ أم بالأحرى نحلم ونعرف بأننا نواصل الحلم... مع محاذاة الهاوية في خضم الضباب ؟

مهما يكن، فإن الزوج ظل مرتبطا من أكتوبر 1953 إلى سبتمبر... 1974 ! إحدى وعشرين سنة... حسبت

وأعدت الحساب وأعدت القراءة، ولكن هذه المرة بعينين مفتوحتين جدا : نعم إحدى وعشرون سنة من بينها خمس عشرة سنة من الزواج !

أنا التي أكتب اليوم، وأستعيد بالتفصيل وعن كثب، الثواني والدقائق لتلك التي جرت، ذلك الصباح، من أعلى درج شارع الواجهة البحرية، وارتمت ثم تمددت على السكة أمام الترامواي الزاحف بسرعة، أجل أنا التي أعيد بناء، بواسطة كلمات اللغة الفرنسية، هذه الثواني وهذه الدقائق لثقب فاغر (فاغر بين ماذا وماذا ؟ بين حب الأب وحب «سارق العروس» الذي يقترب)، أنا اليوم قبالة هذا الثقب الفاغر وهذه المأساة المزيفة وخطر الموت الذي رقص ثم رحل، رقصة باليه جنائزية، أنا الممدودة على الأرض والمنقولة بعد ذلك إلى غاية سيارة الإسعاف، أشهد ببرودة وبشكل مبرم بأنه كان من الأفضل بالنسبة إليّ ألا يكون ذراع السائق آمنا وبأنه كان من الأفضل أن يسحقني دون أن يستشعر وخز الضمير وأن يغرز هذا الجسد في الأرض، أو أن يتركه يطير غبارا –كما كنت أرغب بينما كنت منطلقة بجنون وجموح كي أذوب في خليج الجزائر المجيد.

هكذا، نعم، كان ينبغي أن تكون النهاية المتعمدة المقصودة ! أتصورني قد اختفيت فوق الحشد الصاخب ثم غير مبالية. إنها نهاية منطقية في مسار سنتي الأخيرة كمراهقة –وثمالتي وأنا أطالع الفلاسفة والشعراء، ووفائي لأبي الذي لم يكن يعنى إلا بدراستي وغير عابئ بالنشوة التي استولت عليّ.

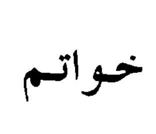
إنها دون ريب نهاية مبكرة وعرضية كجميع النهايات. ولكن الذي فرض نفسه فرضا فجأة عليّ –أنا الراوية اليوم لهذا المسار– هو، للأسف، الإحدى والعشرون سنة الأخيرة التي تلت : لا بسبب حمى الكتابة، ولكن رغبة مني في جمال ضائع ثم بعث لم يكن سوى سراب طويل، وقد تماديت في توهّم حياة ملؤها القوة ونزاهة حبّ لا أملك لغته... الفارس كان فارسا مزيفا يا سيدتي ! وقصة الحب هذه كانت قصة من الورق المقوى يا آنستي ! وهكذا تكاثرت الحجج الجيدة والأسباب السيئة التي شقت المبنى كله.

فوق جسد الفتاة العذراء التي كنتها، في ذلكم الصباح، المسحوب من تحت الترامواي، كان لا بد من تعيين مسؤولين اثنين عن الإخفاق : الأب ضحية جهله المتشدد وأحكام

جماعته المسبقة، وبخاصة «الخطيب» الفارس المزيف الذي هو نهب ظلال المشعوذات أو الحاسدات والنساء الملائكة والعاهرات اللواتي يحلقن حوله وأحببنه وقضين عليه.

أي جدوى من الارتقاء إلى تلكم اللحظة-الدائرة : أكتب كي أضع نفسي في وضع القاضي والمذنب في الآن نفسه ؟ والبعد، أي تلك الإحدى والعشرين سنة الجامدة التي تلت وجعلت الفتاة، التي أصبحت امرأة شابة فامرأة ناضجة -أو ناضجة ظاهريا-، كائنا مجبولا بالأحلام على أكبر تقدير، والدخان والأوهام؟ إحدى وعشرون سنة مجمدة يا سيدتي !

هذا اليوم من أكتوبر 1953 قد سبق باثني عشر شهرا انفجار البلد وكل الأرض المسماة الجزائر.


خواتم


https://telegram.me/maktabatbaghdad

.1
الصمت أو السنوات–القبور

هذه الرواية هل هي قصة حب منهوك ؟ أم حكاية فتاة مضطربة قليلا، كنت أتأهب للقول «رصينة السلوك» –ببساطة غير متحررة– من جنوب بحر متوسط ما ؟

رسم تصميمي لفاتحة أو مقدمة لسيرة ذاتية أوسع ؟

هذه «الذكريات الأولى» لا تفرض نفسها عليّ إلا من باب الحاجة المفاجئة –وإن بشكل متأخر– إلى أن أشرح لنفسي –أنا هنا شخص من الشخوص والمؤلف في الآن نفسه– دلالة الحركة الانتحارية الذاتية. في حين أن بقية القصة المسماة «قصة حب» فستتواصل وتتمدد –قصة فاشلة.

بالكاد بدأت أفهم أن أخطر الأمور هو صمتي –صمتي عن هذه الغريزة التي رغما عني وفيّ كانت في طور

الإعداد. وهكذا منذ البداية، هل كان الأمر يتعلق أكثر بأبي –الأب الذي توفي دون أن يعلم أن ابنته البكر نجت بأعجوبة من الموت في خريف ما قبل حرب الجزائر. لم تمت، ولكن هذه الانطلاقة الجنائزية الكامنة مدة طويلة، لماذا انبجست في بريق غريزة لا معقولة ؟

وأنا أعيش مرة ثانية هذا الحادث، عن كثب، وإن بعد ذلك بكثير، منقادة أيما انقياد، دون لجام، لمدّ الذاكرة الكاسح، أجدني إزاء خلاصة تفرض نفسها فرضا : «لا مكان لي في منزل أبي !».

بني «منزل أبي» هذا أولا حول عماد أساس : حب الزوج الشاب لزوجته (حب دائم وعفيف) –نصف ثورة في هذا المجتمع الخارج لتوه من تحجّر عريق بين الجنسين.

في هذه الحكاية، تقف الأم ها هنا وهي مستعدة لتحول تدريجي لن يتوقف. إنها امرأة في حراك بفضل قوتها الخاصة وذكائها، ولكن أيضا بفضل الأمان الخفي الذي يتأتى من حب الزوج. هذا الزوج متصلب وهو الذي يضطلع بدور الزوج الحامي، الابن الذي ولد فقيرا ثم أصبح يعول أمه وأخواته.

ودور الأب ؟ إنه يتبدى في هذا الدور تحديدا. رغم أفكاره وإيمانه بالثورة الفرنسية، والمزايا البينة للتعليم له ولذويه، رغم هذه المنزلة، بوصفه «أبا» –خاصة إزاء ابنته الأولى– يصبح ثانية، رغما عنه أو دون علمه، «حارس

الحريم». وبحسبانه زوجا، سيتطور تدريجيا وبسرعة، بالنسبة إلى الفترة. كأب، فإن ابنته هي التي ستسبقه حقا، «ويدها في يد الأب».

ولكن ما إن أصبحت مراهقة؟ ستواصل البحث عن ارتياد الفضاء الحر والتحول وتوسيع الأفق. حينئذ لم يتسن لها القيام بذلك إلا بعيدا عن أنظار الأب. أتخشى حكمه؟ لا! بل بالأحرى الشكوك التي قد تعتريه حول نزاهتها وعذريتها...

ولن تجد حلا مؤقتا إلا في إخفاء ما تعتقد أنه «حبها» والذي لم يكن في المحصلة سوى حب عابر (لو لم تكن منشغلة بالمخاطرة، الكبيرة في نظرها، التي تأخذها) وحتى في هذا الخطر، لطالما رددت هذه اللازمة المأساوية: «إن علم أبي بذلك، سأنتحر!» هذا التهويل، رمز للخرق بينما لا تشعر بالذنب إلا لأنها رضيت بقبلات وبعض المداعبات –إنها عذراء قلبا وقالبا.

«سأنتحر»: من شدة ترديدها هذا العهد قررت، عند أول إخفاق في العلاقة (الصديقة الحاسدة ممثلة صامتة قد اختفت)، الجري إلى غاية البحر، من أجل تحدي الشاب.

ترى من أي ماض ضائع انبجس هذا الهذيان؟

هذا الشخص نفسه، الذي دوّن القصة بعد خمسين سنة، فهم توا بأن ما جرى، في تلويث هذه الصبيحة من أكتوبر، هو شبه دراما ذات اتجاهين : في هذه الدقائق، خلف الشاب المغرور، فضلا عن دور المتسبب الذي أداه والشاهد المذعور، إن ظل أبي الهائل هو الذي غشي فجأة خليج الجزائر. هذا الأب المتوفى اليوم دون أن يدري بأنه كان في الواقع سائق عربة الموت. سائق ضال هو الآخر ولكنه لا يرحم.

المرأة التي تكتب تزعم أنها نادمة على الإحدى وعشرين سنة من جمود قصة الحب الحقيقية المزعومة التي تلت. ربما هي مخطئة في حسابها. وربما يجب عليها أن تضيف السنوات التالية وأن تحسب بالعقود.

وربما أيضا عليها أن تتهم نفسها بعدم تنوير (حتى وإن سلمنا بأنها لم تكتب هذه القصة) الصمت على نفسها –صمت من حرير، كلا بالأحرى صمت السخام والمطر والضباب المكدس...

ماذا خشيت فيما بعد، أي اكتشاف ؟ أم لم يكن هناك –كما تزعم– سوى العفة المزيفة، هذا الجبن الذي يتزين ؟ أتراها تقهقرت أمام إضاءة عنيفة ونور ساطع جدا ؟ هذه الأسئلة من شأنها أن تطرح، ذلك أن التحليل الذاتي، في المحصلة، يأتي متأخرا جدا : منذ أكتوبر 1953، أي أن بحرا من السنوات قد انقضى.

صحيح أنها قد تتحجج بوضع المتهمة الغامض (متهمة من قبل عقلها أو تهورها)، علما بأنها لم تكف عن فعل ذلك طيلة نصف قرن : ويتعلق الأمر أساسا بقصص نساء وفتيات أردن جميعا أن يتحررن شيئا فشيئا أو فجأة.

بيد هاهي القصة الخيالية تتمزق وتثقب. ها هي قطرات من الدم، رغم الحبر المهرق عدة مرات، تنضح. وها هو المؤلف يتعرى... فقط لأن الأب قد توفي ؟ الأب المبجل والمصعّد ؟ الأب القاضي، وإن كان محررا ولكنه قاض متعصب ؟

المؤلف المتسائل قد يحاول أن يدافع عن نفسه –ولكن يفعل ذلك بشكل أخرق :

«ألقيت بنفسي في خضم موقع خليج الجزائر في فجر الخريف. كنت أفرّ من الوالد الذي كنت أهاب سطوته :

أنطلق إلى أبعد مكان كي لا أضطر للاعتراف –ولكن أي ذنب اقترفت ؟» .

الخلط لا يزال قائما. ظننت أني سأزيله، وها أنا أكتشف الأدهى في هذه الكتابة الراهنة. لم تعد ذاكرتي ترشدني، بل تقدم منحت الكتابة والرسم الذي يستولي على البقية ويحفر ما ظل غامضا.

هكذا إذن لم يكن الأمر الأخطر والأكثر حزنا يكمن في هذه الانطلاقة غير المعقولة –الطاقة الجموحة للشباب الذي يبحث ويبحث عن نفسه إلى غاية عضلاته وأرجله وسيقانه وليس في كلماته أو صيحاته. بالنسبة إلى مصيري كامرأة شابة، فإن ما لا يقبل الصفح، أنا الضحية والقاضي، المتهمة والمتمردة، الضعيفة ولكنها قوية على الأقل في الارتجال –نعم، الخطأ يتمثل في أني تعهدت وحافظت على صمتي الشخصي : فيما بعد.

أغرقت نفسي من شدة صمتي.

صمتي ؟ لنقل حتى : «انحبست» ! أمام الخطيب– الزوج ؟ أمام الآخرين، ولكن أي آخرين ؟ ماذا كان بوسع شابة مثلك أن تفعل ومع من تتحدث، ومن تلتمسين

منه البحث معك وأن يشك في أمرك، حتى بعد فوات الأوان ؟

كان الصمت إزاء الذات أخطر.

إن الكتب والقصص والنظريات والملاحم والانفعالات الغنائية، وكل هذا الغليان لم يفدك إذن لا في تحفيزك ولا في تحذيرك أو تطهيرك... إنما أفادك فقط في تخديرك وحملك على الفرار أمام دخان المخيال والذوبان –لم يفدك في الارتماء ودفعك إلى تحدي الآلات والعاصفة والسرعة : لا، بل دفعك فقط إلى النوم... إنسي : الأب الحقيقي والخطيب المزيف والشهود والأم التي أحبها الأب، إنسي الآخرين، ولكن لا تنسي نفسك ! أضاعتك الكلمات، واللغات الميتة قبرتك، والمومياء معروضة منذ زمن بعيد في المزاد ولم تعد محمية ولا محل توقير : كنت تتصلبين في الخارج، وتغلين خفية، وجميع رواياتك وأشعارك وكلامك الجاف على الورق لم يكن سوى ترياق تافه وفرار لا يعترف به وسلم غير مستحق.بما أنه ليس سلم البحث العصي على التصنيف، الحاد والنزيه.

أنت تكتبين (هذا المزدوج هو الذي يهزني فجأة ويوقظني) : الذاكرة ليست مهدا ولا أغاني كي نغرق

بشكل أفضل. كان من الأجدر بك أن تصرخي في القفار كما العديد من الزّهاد وهم كثر في أرض الأجداد، ومن كل الأديان...

انطلقت في ظرف ثانية، وظللت لاهثة وخافقة وناسية زعما، ولكن ذلك لم يكن سوى نسيان مزيف ومقصود! لماذا نصف قرن من الكتابة والصمت في الآن نفسه، ما هذا الغيب الذي يسكنني ويتمزق رغما عني ويمزقني ويلفني بأشرطة فرعونية، أنا التي كنت منذ مدة بعيدة أميرة أبي الصغيرة.

لم يعد لي «منزل أبي». أصبحت عديمة المكان هناك، لا لأن الوالد قد توفي منهوكا في بلد يقال إنه تحرر وحيث تحرم البنات من حقهن من الميراث من قبل أبناء أبيهن.

أنا هناك دون مأوى منذ ذلكم اليوم من أكتوبر –عام وبعض أيام قبل أن تنفجر قنبلة أخرى على هذه الأرض نفسها: سينقسم هذا الوطن إلى ألف قطعة أين يتوالى التهجير، الموت، موت بطولي وآخر وحشي، تداس الآمال المتجددة دوما...

منذ هذا الفجر من سنة 1953، هل كان ذلك في إحدى مدن القراصنة قديما، وهل كان حقا في هذه المساحة

الشاسعة، وركن الطفولة هناك على هذه الضفاف، حيث تنتصب الأطلال بشكل أكثر جلالا وشمسا من منازل الأحياء –هل أنا أبحث هناك دون كلل أين يوجد منزل أبي الصغير والمظلم؟

.2
الفتاة الشابة المتوحشة

استيقظت في هذه الصبيحة من أكتوبر 1953. بقيت واقفة مدة ثلاث أو أربع دقائق. كنت مسنودة من هذا الجانب وذاك، ولكن لا أدري من قبل من: مجهولون عابرون في هذا الشارع المقابل للبحر... ومن قبل الخطيب أيضا فيما أظن، ولكنني لم أكن أنظر إليه. كنت أسمع صوته الذي انهار. أنا متأكدة من أنني لم أنظر إليه —وفي جميع السنوات التي ستلي، لن أنظر إليه حقا: ثمة غموض بجانبي أو أمامي.

ظللت واقفة منتصبة قبل أن أحمل إلى سيارة الإسعاف التي وصلت لتوها. حولي ضجيج هذا الترامواي الذي نزل منه المسافرون وأخذوا يمرحون شيئا فشيئا.

هذا أيضا بإمكاني أن أكتبه وأثبّت المشهد: أنا مسنودة —ولكنني متصلبة، عيناي جامدتان. لا تريان شيئا أو

تريان... ماذا إذن؟ أي غيب، أي عالم آخر؟ هذا لا أستطيع الإفصاح عنه.

حتى وأنا ممدودة بعد ذلك ومحمولة على متن سيارة الإسعاف، أدركت بأني لن أطير من جديد بهذه الكيفية: عدم الجري أبدا، بغير تبصر، للارتماء في البحر هناك في الأعماق! أي بحر ولم الجري، وبأي رغبة في القطيعة والتمزق؟

في خضم الضجيج حولي، في الصمت والفراغ المحفورين فيّ أنا الواقفة بين مجهولين، هناك هذا التصلب الذي لا يزال يرتعش فيّ، وجناح العصفور الذي لامسني ثانية قبل ذلك. «الفرحة، قلت في نفسي، في هذه اللحظة وبعد ذلك بكثير، فرحة صلبة كما البلور وألماس أسود كنت بحثت عنه طوال السنة الماضية، ألماس الفلسفة!».

أنا الواقفة، المائلة تقريبا ثم الممدودة في سيارة الإسعاف، الهادئة أو الخائبة، لم أعد أعرف (كنت أتمنى أن أكون في مكان ما لا أعرفه، إلى الأبد) ثم أمسيت حازمة أو ثابتة. ترى إلى أي عتبة وصلت ولأجل أي سفر؟ هناك درج مرمري وسط القاذورات أو الأطلال.

حجر أي عتبة وأي درج أول؟

قبل ذلك بقليل بينما كنت أترنح وإن واقفة، وكانت يدي تصقل بشكل آلي تنورتي وتزيح شعري عن جبهتي، ظلت عيناي منخفضتين، لا أريد أن أكون موضوع فرجة. في صلب الزمرة التي تحيط بي، هل أنا التي تُتفحص وكأنها متوحشة قد انبثقت من غابة موحشة ؟

بعد ذلك بكثير، أي بعد حياة برمتها، في اليقظة أو شبه نائمة، في الحلم بالأخص، متسللا بعشوائية تحت جلدي، نعم، ها هو «هذا الزمن كله» يصعّد فيّ الدموع التي لم أذرفها.

أخيرا، يجب عليّ أن أقول : التي لم أذرفها على نفسي على ألا تكون دموع ندم ومرارة !

ثمة إحساس ملتصق بي بإلحاح : وقد وصلت إلى نهاية القصة، أراني متأسفة، نعم متأسفة لكون هذا السائق الذي لم أره أبدا والذي صوته، بتساؤله المتأسف والعاجز، انحفر فيّ إلى غاية اليوم وكأنه يتعين عليه أن يظل حماية، أنا متأسفة لكون المصير أو الحظ أو المصادفة التي هي حيادية في جوهرها، نعم، أنا أتألم لأن سائق الترامواي، في ذلكم الصباح، على شارع سادي كارنو، لم يترك آلته الزاحفة بسرعة تواصل انطلاقتها ! حينئذ يسحب جسدي أشلاء

بينما تظل عيناي وحدهما مفتوحتين على سماء الخريف الصافية.

أعيد بناء السيناريو، غير راضية عن نهايته الحقيقية :

«نهاية... فاشلة !».

شخص ما، مراهقة، ثواني بعد أن تطلعت إلى الموت، تنطلق وتفلت من الموت بأعجوبة. فلتعاود الكرة إذن !

بيد أنني لم أجدد المحاولة وكأن غريزة الموت التي غمرتني تماما قد جفت فجأة.

حينئذ لم هذا الندم ؟ من أجل لا جدوى العقود الآتية والجمود الداخلي الذي يبقي عليّ كما كنت تقريبا ويجعلني أخرى بشكل مبرم. أخرى، أي كائنا مطروحا هادئ المظهر أحيانا حالم وخامل وأحيانا أخرى تضم أسنانها وتقدم على هذه المهمة أو تلك إلى أقصى حدّ أيا كانت طبيعتها ومرماها –«اللهو» قال باسكال.

في الواقع، لم تفارقني الرغبة قط في الطيران والذوبان في السماء أو في قاع الهاوية الفاغرة تحت رجليّ، لا أدري. ثمة تموّج قائم في نفسي، يؤرقني، تماهى معي

طوال السفر. تموّج أو خوف أو بالأحرى ذكرى جعلتني أبقي ما يشبه النظرة الداخلية، البعيدة ولكنها مفتوحة على ماذا ... ؟ وكأن الرهان كان شيئا آخر بشكل مبرم مغاير لما يظهر في الواقع، الواقع الظاهر... وكأني أحيا نهائيا في مكان آخر عن طواعية مع إجبار نفسي على التواجد ها هنا ! أؤدي اللعبة : الاجتماعية والجمالية وماذا أيضا ؟ وكأن «العيش»، أريد أن أقول «العيش نهائيا»، «العيش حقا»، يتولاه شخص آخر، صورتك المضاعفة المزدوجة، ولكن هناك في مكان آخر خلف الأفق !

وأنا ملتفتة إلى نفسي، أجدني أمام هذا السؤال من دون جواب، أشعر بذلك وأحاول أن أقضي في نفسي على مسافة الفهم وفهم ذاتي : فجأة أراني مجنونة مرة واحدة ولكنني أنقذت، وعرضت للخطر إراديا ولكنني أنقذت، ومع ذلك، لم أعد بعد، لم أصح بعد من أي هذيان ومن أي «سحر» ؟ لماذا في آخر مرحلة من حياتك، لا تقولين في ما يشبه صفاء الذهن والقبول اللطيف : ألم يحن أخيرا الوقت لتقتل حتى وإن ببطء هذه الجمرات الخفيفة التي لم تنطفىء أبدا ؟ هذا التساؤل ليس تساؤلك وحدك، بل هو تساؤل جميع النساء هناك على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط...

لماذا، لماذا يجب عليّ أنا أن أجدني وجميع الأخريات بلا حيّز في «منزل أبي» ؟

.3

ابتكار الدوّار

كتبت أحيانا بالدموع (دموع الغضب والهزيمة والجليد والدهشة)...، وأحيانا للقبض على الإيقاع، منذ يوم من أيام خريف 1953 إلى غاية... 2007، بعد أكثر من نصف قرن.

إن هذه العقود الثابتة هي التي تبدو لي فجأة قبورا. لنقل بأنها ليست قبورا من حجر بطبيعة الحال، ولا قبور وحدة وعزلة بفضل الصداقة بين النساء في حوار خفيف أو في الشارع من خلال اشراقات فجائية مع مجهولين (رجال، نساء) أو أناس نزهاء ذوي ثقة (ثقة غريزية لأول وهلة دون كلام ولا عهد) ينفتحون فجأة أو يمكننا أن نتحدث أمامهم (لذواتنا، وأمامنا في شفافية الحقيقة المفاجئة، والسيولة وخفة الجسد وانطلاقة السيقان والنظرة المقلوبة للسماء)، أجل إن هذه العقود المملوءة حدّ الطفح بالأقوال المتبادلة

والثقة، في ظرف بريق وثانية حتى وإن تلاشى الوهم بعد ذلك، ذلك أننا لا نقوى حتى على مناجاة النفس كمجنونة مسكونة بأصوات آتية من مكان آخر، بتأوهات الماضي، تعبرها آلام الأخريات، أعني النساء الأخريات، وأحيانا رائحة الآخرين –رجل أو أكثر لم نحتقرهم وإنما أحسسناهم "مسدودين"، محظوري الأطراف، مشلولين أو الذين أرادوا التقرب منك، لمسك، مداعبتك أو، في ما إن لم يتمكنوا من ذلك، ضربك، لكمك فقط ليتأكدوا بأنفسهم أنك من لحم ولست من كلمات فقط، من دخان، من أحلام و روائح...

طيلة هذه السنوات كلها التي هي خلفك، شخت أو تقدمت فقط وحيدة، متعثرة، جريئة أم جاهلة تماما. جاهلة بكل شيء ما عدا غرائزك. تصلّب قلبك وتقدمت، بفعل العناد البسيط، عبر أي غابة مظلمة ؟

في البدء، ظننت أن في الأرض الأصلية سوء تفاهم –أرضك أرض شجرة الأم ونبلاء «الظهرة» الصغار الفخورين وكأنهم نزلوا من جبال الهيمالايا أو أنهم أولاد عم «دون كيخوت»، ولكنهم ليسوا بمطرودين، قد وقفوا في وجه الفرنسيين الذين كانوا منتصرين، هم (الأسلاف)

المنطلقون والمرتمون نحو الأمام ويخسرون المعركة تاركين نساءهم أو أمهاتهم بالأحرى يمجدون هزيمتهم المجيدة بالغناء، يولولون من أجلهم، هم الفرسان الذين سقطو جميعهم من على نفس الحصان الأبيض، عويل لم يعد غناء نحيب وإنما سيلان لعذوبة حمامة –أنت، فتاة الماضي، تستمعين من أجل تحويل غناء الرثاء هذا إلى أنين رغبة مستحيلة...

الآن فهمت بما أنك قد عدت إلى فجر أكتوبر 1953 قبالة خليج الجزائر الهائل سنة بالضبط قبل الانتفاضة المبرمجة في الفاتح نوفمبر 1954 التي أودت بحياة الرجال والنساء والأطفال من المعسكرين، من المنتمين لمعسكرك والمنتمين إلى المعسكر المقابل بينما أنت لم تكوني تنتمين لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك –ولكن لا تدرين ذلك، بل ظننت أنك مرتبطة أكثر بالشاب المغرور، وهو سبب أو علة مواجهتكما أو رفضك، وبعد ذلك ها هو يشهد على سباقك المجنون وسقوطك وانبجاس الترامواي الزاحف بسرعة والذي توقف بأعجوبة فوق جسدك الممدود.

بعد أن انتشل هذا الجسد من تحت الماكنة، عاد إليك صوت السائق –صوت مليء بالذعر بينما كانت قوة يده

الآمنة تنقذ حياتك– نعم صوت مجهول، أو بالأحرى تعيدين الإصغاء إليه كلما (مرتين أو ثلاث مرات بعد ذلك) انغمست في كتابة عمياء ومجانية كما الرقصة، كتابة متحركة ومخدوشة، بدافع اللعب وبدافع النزوة ربما ؟ كنت تعتبرين قصتك الأولى لعبة سنونوات بسيطة، في الفضاء وفجأة وقد انتشيت من هذا الاتساع رحت تشيدين قصة ثانية فثالثة...

ها أنت «تكتبين» وتتصورين أنك تخترعين من كل شيء، ولكن لا : «أنت تكتبين» ولكن ليس صدقا ! إذن هو لعب ؟ لا بالكاد، لأن هذا النوع من الحبور سرعان ما تلاشى. الكتابة بقلب وجسد معقودين ؟ كلا ! الكتابة بقلب متحرك ولكنه مخنوق ؟ لا ! استشعرت القوة على الكتابة جسد متحرك وقلب مفتوح... على الانفجار. كان يكفي فقط أن تغطسي، مقدمة رأسك في شلالات الظل أو في حضور بداية العالم !

كنت تكتبين، وتبدعين –بضحكات ودموع– ولكن إن صح القول «في انتظار... !» وفي كل مرة كان في مقدورك أن تتذكري بأن هذه الحرية وهذه الإبداعية –اللتين لم تكونا في المحصلة سوى خفة جسم ورأس–

أنت مدينة بهما لسائق الترامواي الكورسيكي أو الصقلي أو المالطي أو مهاجر من البروفانس، ولم لا يكون من بريطانيا، أي باختصار واحد من «ذوي الأقدام السوداء» ولكنه مزود بمعصم قوي أنقذك من الهلاك.

والحال لأنك شرعت أخيرا في الدنو من هذا المنعطف («الانطلاقة المهشمة» هل يجب تسميته كذلك ؟) في هذا الصباح الخريفي، بشارع سادي كارنو –نقلة معلقة فوق جسمك الساقط، ثم نقلة جبهتك التي قوّمت– في هذا الصباح الذي أردت أن تنسيه والذي خلصت حقا إلى نسيانه.

حينئذ أخذت كل قصة من قصصك تميل وتترنح من اليمين إلى اليسار وفي كل مرة، بشكل غير منتظر، يفلت منك هذا الشخص أو ذاك من الشخوص النسائية، المنبثق من يدك –في نهاية السرد، القصة أو الرواية–، ويحيد عن المسار المتوقع في الأفق، وفجأة ترينها تجري أحيانا دون هدف، كيفما اتفق ضاحكة ولكنها يائسة، وسط الحشد ولكنها وحيدة ثملة من الوحدة والعنف المميت، ولكنها مرحة أحيانا...

بيد أن عينا أخرى تراقبها، وظلا حميما ذا نظرة يقظة : أنت إذن ساهرة كما الأم، ولكنك متبصرة ومدركة، ولكن مدركة ماذا ؟ كم هي سعيدة هذه التي ابتكرتها بالكلمات، تجري مفككة الشعر وماذا يريد هذا الظل الهارب وقد تقطعت حبال المركبة في هذا الفضاء بين الحلم والحقيقة وبين الفرح والكابوس –ذلك أن ذاكرتك، تحت يدك، والموجهة ذاتيا، تشتغل، وتشغل بالك، وتستيقظ وتتسارع وتحاول في المحصلة أن تخرجك من دور الراوية والمؤلفة والموجهة : ثم تتركين رغما عنك الشخص يذهب إلى غاية الأفق، مثل كحول تتذوقينه أو تتخلين عنه (بدافع الحيطة أو الندم ؟) كي تعيدي العارضة إلى سابق استقامتها في اللحظة الأخيرة.

وفجأة توقفين هذه الآليات المبدعة أو التذكرية. لقد أخذ البنيان كله يرتج ويميل مثل برج بيزا. تغيرين وجهة اللعبة والقصة : النهاية لا يمكن أن تكون ربقة، لا يطلب منك أكثر من هذا ولا أن تنزعي القناع أو تطفئي المصابيح بما أن لا مشهد هناك.

لطالما درت والتفتّ وانقدت إلى الميل بفضل إيقاع جموح، ولكن لم تعودي ترغبين في اللعب. تتمنين أن

تنامي فتنامين وتنسين وتنظرين إلى الأمام وخلفك. اليد التي تكتب تنتظر من رأسك –هذه الآلة المنتجة للأحلام– الدفع وسرعة السفر. لكن لا أثر لنسيج العنكبوت على السقف !

بعد أن خلت الأماكن، تعودين بعد شهر أو أحيانا بعد عام (عام من الكسل والتسلية وكثير من الليالي من أجل الرقص و...). الوحدة تلفك من جديد : أنت لست خائفة كلا بل –كما يقول الشاعر الفرنسي «روني شار» بعد أن لاحظ بعد سنوات من المقاومة : «لست خائفا، أنا أعاني من الدوار ليس إلا !».

إذن هذا هو ما يشغلك : الدوار : اختراع أو اعتقاد، كما حصل حين كنت طفلة تلعبين بالحبل، ثم رحت تتعلمين ركوب الدراجة –من ذا الذي فجأة أوقف هذه الألعاب ؟ ليس الأب دائما ولا الرفيق الذي جعلته البطالة يغار !

إثر ذلك، أخذت تفرين من الآخرين أو الآخر الذي ظننت أنك أعطيته الكثير : جسدك، ولياليك وأحيانا عمل النهار. غير أن بداخلك يقظة، بعيني أعمى متقدتين، تسهر –المنبهة، في الإجمال، الخبيثة، الفضولية النهمة

التي تسكنك، الخاملة المزيفة والشغوفة التي تلجم نفسها وترغب في السكينة ها هي تلفي نفسها على أهبة الحرب، وكأن الأسلاف منذ ثلاثة أجيال غابرة من خلالك قد سكنوك بعنفهم وجيادهم السريعة ورغبتهم في الموت وضعفهم العددي الهزيل وقلة عدتهم ولكنهم ليسوا كذلك من حيث السرعة والجرأة... يسقطون من علياء الحلم الذي قوّمهم في لحظة ما بشكل فرجوي وصامت للغاية –النساء وحدهن، لاسيما الجدات، حتى ولو كنّ فاقدات البصر، حتى وإن أصبحن لا يسخنّ الطبول، هنّ أمهات أمهات كل الآباء المهزومين وأبنائهم الذين لم يولدوا بعد، لم ينهضوا بعد فجأة قبل أن يفرقهم العداء الأخوي، الجدات وراءك، الجدات أمامك، ينعبن بتشنج ويعدننا إلى المسرح الثابت لزمن قد تجمد.

أنت تنظرين وتتذكرين في آن واحد، ولكنك تسألين أيضا، في داخل قلبك المفرغ، هذه الظلال الهائلة المفعمة بالضغينة والهزيمة المروّضة الصاخبة. ها أنت أخيرا أصبحت بكماء!

أخيرا خيّم الصمت. أخيرا ها أنت وحدك بمعية ذاكرتك المفتوحة. تتطهرين بكلمات من غبار وجمر.

تسيرين موشومة دون أن تدري إلى أين، والأفق منتصب قدامك.

نعم هو ذاك، إلى غاية الأفق !

نيويورك : نوفمبر 2005 – فيفري 2006.

نيويورك وباريس : نوفمبر 2006 – ماي 2007.


https://telegram.me/maktabatbaghdad



ملحق


https://telegram.me/maktabatbaghdad

«الصمت على الحرير» أو الكتابة الهاربة

كان في مقدوري أن أعنون هذا النص كما يلي : صمت على الحرير وكأن الكتابة عن الذات، هذا التمرين الخشن المضني (مثل صمت السيلس الذي يسلخ جلد الزاهد الذي لا يكفّ في كل ليلة، صلاة بعد أخرى، عن التجرّد أمام الخالق) كان يحثني على أن يفضي بي هذا التذكّر، مع جهد الازدواج التدريجي، إلى «ما هو من قبيل الحرير» وليس إلى ما يعذّب وينكّل.

ولكن أنىّ لي أن أجعل هذا التحليل الذاتي الاستذكاري «حريريا» ومن ثم مطمئنا، بما أنه مصدر تبصر بل سكينة ؟ ثم إن سلمنا جدلا ببلوغ هذه الغاية، كيف السبيل إلى الحيلولة دون مصاحبة هذه الإضاءة عن الذات بتأنيب الضمير ؟

هذا الاعتراف (ألاحظ في الوقت المناسب بأن ثقافتي الإسلامية الأصلية تجهل أو تبتعد عن هذا الكشف، على الأقل إزاء راهب) بإمكانه أن يدفعني مع ذلك إلى أن أقر بندمي مع الإشادة بغروري بحسباني كاتبا أو كاتبة في حالتي، فالتاء المربوطة ها هنا قد تدفع إلى المجاملة بل إلى ما هو أدهى : التبختر أمام المرآة...

صحيح أنه خلف «حرير» هذا الصمت تكمن الذات أو الأنا، التي تلتصق، وهي تنكتب شيئا فشيئا بطيات الذاكرة وبأول ارتجاجها -«الذات-النفس» الأكثر تنكرا، لأنها ممحوة جزئيا...

في هذا النفق الطويل الذي مقداره خمسون سنة من الكتابة، جسد طفلة ففتاة يبحث عن نفسه ويختفي ويحتجب، غير أن هذه الفتاة التي أصبحت ناضجة ترسم اليوم أول خطوة في الانكشاف الذاتي. علما بأن الأمر لا يتعلق برغبة إكراهية في التجرد والانكشاف ولا شغف بالسيرة الذاتية -ذلكم الدواء البديل «المعلمن» للاعتراف في أدب الغرب. في الأدب العربي، -حتى أبقى مع أساتذة «غربي»- تصبح السيرة الذاتية للكتاب الكبار -ابن عربي الأندلسي وابن خلدون المغاربي- مسارا

روحيا أو فكريا : تدوين لمراحل الحياة الداخلية والصوفية لهذا وتدوين مراحل حياة فكرية وسياسية لذاك.

في حالتي المتواضعة، فإن الضرورة التي كانت تحدو هذه –«الكتابة عن الذات» –وهذا المسار المتشظي والمعروض بفتات– لم تفرض نفسها فرضا، على الأقل من باب الاستعجال...

أتكون السيرة الذاتية كما حددتها آنا أرندت «معرفة الذات المتلهفة» ؟

حلقة أولى من الذكريات –طفولة فمراهقة تبلغ مداها في «فعل مجاني» : خلال سنتي السابعة عشرة –بريق، فعل جنوني انبثق عن تركيز بعض الدقائق ذات صباح من أيام أكتوبر، غريزة عنيفة وانفجار مرتجل، مع أنه كان مبيتا بشكل غامض على امتداد سنة.

هذه «الحلقة الأولى»، وليس حركة –انطلاقة وطيران وسباق مجنون– بل بالأحرى «سفر إلى مكان مجهول»، إقلاع مع انحراف ولكن نحو ماذا، أية غريزة عنيفة سكنت «تلك التي تجري صوب البحر» ؟ ولم البحر الذي، في ظرف ثانية، استولى على المنظر كله من أجل تلك المذهولة، تلك المحلّقة، خارج ذاتها، وفجأة خارج

كل ما يمكن رؤيته –لاستعادة الفرح– مغمورة في نهاية المطاف بهذا البحر –الأصل، مكان الولادة و الانبعاث من جديد.

ثمة نوعان من الكتب، قلت في نفسي بعنف تقريبا عند نهاية هذا المسعى : من جهة، الكتب التي تمدد الكاتب نفسه على أوراقها بشكل متخفّ وعنيد. ومن جهة أخرى، جميع الكتب، كبيرها وصغيرها، الملهمة أو الحاذقة والساحرة المكتوبة بلغات العالم الألف، الحية منها والميتة، تلك التي أصبحت غير مقروءة أبدا. هل الكتب التي تنتمي إلى النوع الأول، والتي نقرأها بإحساس غامض بأن الكاتب (أو الكاتبة) النائم (أو النائمة) منذئذ، يطوي معنا الصفحات، هي من قبيل الفن (أي الأدب أيا كان مستوى طموحها) ؟ أليس لدرجة خطورتها أو بالأحرى طابعها المبرم وزن أكبر ؟

إننا نلج هذه الكتب ثم نخرج منها بقلب منقبض أحيانا وكأن الكاتب (الكاتبة)، تحت أنظارنا التي لا تقوى على التخلي عن الصفحات (حين لا يقوون على ذلك حقا، فإن الأمر لا يتعلق بما يعرف بالتشويق الذي ليس سوى «حيلة» من حيل المهنة) قد دفع ثمنها أضعافا مضاعفة !

أي ثمن ؟ ولِمَ نقولُ «دفع» في حين يمكننا أن نفترض بأنه على العكس قد تحرر وخفّ ؟

«الكتب المستقلة»، هذه الكتب قد تبدو «كتب مأتم» بما أن صوت الذي (أو التي) يكتب قد انتزع بشكل ما من حلقه وجسده تدريجيا –هذا الجسد المبدد الغبار على الأرض : هل حاصرتنا الصورة بشكل خفي طوال قراءتنا البطيئة ؟ أجل، لقد غدا الكاتب وذاكرته رمادا رغم هذا الصوت الذي نحت كلمات بقسوة في صمت : كلمات محفورة، مكرهة أو متصلبة بوقار، كأنها رسمت بريشة تخدش بياض ورق طبيعي رقيق– هذا الصوت الذي يخلد للصمت المطلق في الصفحة الأخيرة. عند وصولنا إلى مخرج النفق، نقوم نحن القراء بإلقاء نظرة أكثر عمقا على ميدان الأطلال غير المجدي الذي خلفه هذا الكاتب (الكاتبة) المزعج (ة) الذي يعرب أمامنا عن أسفه لإخفاقه...

لماذا لم تذهب ببساطة إلى غاية البحر كي تغرق فيه – نعم لتغرق فيه ؟

لكن ها هي الكاتبة –التي قد نرى جسدها ممدودا ومقطعا إلى أشلاء أو ذائبا– تبدو، وهي تجري على حافة

الجنون، وكأنها تقول لنا إنها تفضل، في المحصلة، هجانة الكتابة –الاعتراف والكتابة الهاربة... والمنتحبة.

وحتى، وإن خرجت الراوية من هذه الكتابة التي تحاول إرجاع ماض بعيد ومستذكر تدريجيا –باعثة بذلك مجتمعا استعماريا منقسما– فإنها لن تخرج منها إلا ببصيص نور باهت.

لنتحاش التيه : حلقات حرير أم حلقات الذات ؟ أم حلقات على الذات –بشرة حية تنمحي شيئا فشيئا تحت هذه الأوشام والخدشات ؟

أعود إلى هذه الأنا، أنا الماضي المبددة التي تحيا مرة أخرى في ذاكرتي والتي بانفتاحها على الكتابة تحث على الوشاية بالذات بدل التنكر أو النسيان !

أن نقول لأنفسنا وداعا.

الدائرة التي يقوم هذا النص بالإبانة عنها هي خطوة المسعى الأولى.

وفي حين فرضت هذه الصورة الهندسية نفسها عليّ، أكتشف فجأة بأنه ستكون هناك ثلاث صور على الأقل... كما دورات الفراشة التي تقطع ليلتها في شرنقتها. حينئذ يستبد بي إحساس بأن الدورة الأخيرة، المنفتحة والمنغلقة، ستصادف زفرتي الأخيرة.

دوائر تظهر ببطء، أو كالبرق، بالتوازي مع تبقى للكتابة...

وهكذا سيصبح «العمل» الثاني الوجه «الخشن» ومن ثم الإرادي لمسعى الكتابة لدي : رواية، مسرح أو مقالة، ولكن ليس السيرة الذاتية، بل بالأحرى بناءات طريفة وصروحا من رياح وعواصف بشخوص من الماضي أو

أولئك الذين حاذيتهم عن طريق المصادفة ولاحظتهم وشممتهم –أولئك الذين أحببتهم أو رغبت فيهم أو على الأقل اقتربت منهم– هؤلاء وأولئك يجب وصفهم وتنشيطهم وإعادة النفس لهم (نفسي ليس إلا)، والمجد للقصة المقدسة (كما كان يقال قديما «التحالف المقدس») وكذلك بفضل إلهامي الأدبي، خيال مقدس للتطور، دائما في تطور، في شكل مخطط، مخاطرة، عدم يقين، في تحرك مستقل...

يعرف كل كاتب قصة (أو شعر) أن اللحظة العجيبة هي تلك التي يفلت الشخص أو القوة الفاعلة منكم، بفضل تفصيل ما في لحظة غير متوقعة، وينزلق بين أصابعكم، ولم يعد آليا –فجأة تمسون لا المؤلف بل التابع والخادم والعاشق من خلال حملكم ظل الآخر، هذا الدخان وهذا الظل الرفيق والعدو في كلمات وأصوات، هذا الصوت الذي هو أنتم وليس أنتم وحدكم...

الحياة –حتى حين لا تكون من لحم، بل مردودة إلى كلمات متحركة– الحياة التي تجرؤون أو تظنون أنكم أحييتموها، أنتم الذين تحولتم في ثانية إلى الرب–الأب والرب–الأم في آن واحد، فإن المؤلفة إذن المفعمة ببذرة أو

ألم المخاض وتتويجه –أجل إن حياة النص تقاوم وتتمرد : عند نهاية مسعاكم ها أنتم تصبحون في قلب هذا العمل قارئا (قارئة) أيضا بدافع التواضع أو التفاني لهذا المزيج والرواسب : كتاب بين آلاف وملايين الكتب سيحولها الزمن إلى غبار أو إلى هندسة معمارية عنكبوتية مصنوعة من صمت وسمفونية حلم متلاش ولكنه مؤرق.

آ. ج.– 2006 - 2007 – نيويورك - باريس.

ملاحظة : كل كتابة تتمدد في صمت. إن الكتابة الهاربة، كما رسمتها هاهنا كانت على وعي بذلك منذ البداية : وذلك هو جرأتها وتواضعها. غرورها ؟


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفهرس

I.
شظايا الطفولة

II.

تمزيق المحجوب

III.

تلك التي تجري صوب البحر

خواتم

ملحق

بوّابة الذكريات

بعد العديد من الصور التاريخية التي تستحضر فيها الجزائر، هاهي آسيا جبار تطلق العنان لذاكرتها الحميمة كي تقدم لنا هذا الكتاب الأكثر ذاتية حيث تحيي بكثير من العاطفة، الصفاء والحشمة أثر قصة ذاتية تعكس في الحقيقة قصة شعبها.

بين عالمين، عالم أب معلّم وأم راقية تكشف لها سحر الأعراس النسائية، نشأت فتاة تحمل، وتكتشف في الوقت ذاته، "عالم الآخرين" من خلال شغفها بالكتب و ما تسر لها به صديقتها في الداخلية، نظرة مولعة بحقبة من الزمن: الحفلات الأوربية الراقصة في ساحة القرية، "الأهالي" المراقبين في الظلام...

عندما استقرت الأسرة في الجزائر العاصمة، تحولت الأم إلى حضرية بأناقة أوربية وشرعت المراهقة في مراسلة سرية. قصة حب بدأت ترتسم. في العاصمة وبعد انتهاء الدروس اليومية بالثانوية الكبرى، لا تكف الفتاة الشابة عن السير يُسكرها الفضاء والشعر. سنة واحدة قبل الانفجار الذي هز كامل البلاد، هل سيقطع فتيل هذا التعلّم العاطفي؟

وتختم الكاتبة بقولها:
" ألم يحن أخيرا الوقت لتقتل حتى وإن ببطء هذه الجمرات الخفيفة التي لم تنطفء أبدا؟ هذا التساؤل ليس تساؤلك وحدك، بل هو تساؤل جميع النساء هناك على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط... لماذا، لماذا يجب عليّ أنا أن أجدني وجميع الأخريات بلا حيّز في "منزل أبي" ؟"

آسيا جبار، التي تم انتخابها في جوان 2005 عضوة في أكاديمية اللغة الفرنسية، هي مؤلفة خمسة عشر رواية تتطرق للتاريخ الجزائري، لوضع النساء والصراع حول اللغات في الجزائر. ترجمت مؤلفاتها إلى أكثر من عشرين لغة وتوجت بالعديد من الجوائز الأدبية.
رشحت آسيا جبار أكثر من مرة لنيل جائزة نوبل للآداب.

ترجمة: محمد يحياتن



